نظرة عميقة للحب الرومانسي في روعته ومخاطره

دروس

مكتبة ٦١٤

الحب

آلان دو بوتون

مؤلف **عزاءات الفلسفة** و **قلق السعي إلى المكانة**

ترجمة: الحارث النبهان

التنوير

مكتبة | 614
سُر مَن قرأ

آلان دو بوتون

دروس الحب

الكتاب: دروس الحب
تأليف: آلان دو بوتون
ترجمة: الحارث النبهان
عدد الصفحات: 304 صفحة
الترقيم الدولي: 978-614-472-129-2
الطبعة الأولى: 2020

مكتبة
t.me/t_pdf

16 \ 9 \ 2022

هذه ترجمة مرخصة لكتاب
The Course of Love by Alain de Botton
Copyright © 2016 by Alain de Botton

جميع الحقوق محفوظة لدار التنوير © دار التنوير 2020

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت - بئر حسن - بناية فارس قاسم (سارة بنما) - الطابق السفلي
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
مصر: القاهرة 2- شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي
هاتف: 002022795557
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.daraltanweer.com

آلان دو بوتون

مكتبة | 614
سُر مَن قرأ

دروس الحب

ترجمة

الحارث النبهان

التنوير

الفهرس

رومانسـية 7

افتتان 9

البداية المقدّسة 15

الوقوع في الحب 27

الجنس والحب 37

عرض الزواج 49

طيلة العمـر 63

أمور سخيفة 65

الحَرَد 81

الجنس والرقابة 87

التحويل 103

ملامةٌ غير محدّدة 113

تعليم وتعلُّم 125

الأطفـال 137

دروس الحـب 139

حلاوة 155

حدود الحب 161
الجنس والأبوة 175
أهمية غسل الملابس 189

الخيانة الزوجية........................ 197

جرذ الحب........................ 199
حججٌ مؤيّدة 209
حجج مضادة 217
رغبتان متضاربتان 233
أسرار 241

ما يتجاوز الفلسفة الرومانسية 245

نظرية الارتباط........................ 247
النضج........................ 265
مستعد للزواج 279
المستقبل........................ 289

رومانســية

مكتبة
t.me/t_pdf

افتتان

الفندق قائم على مرتفع صخري، على مسافة ساعة واحدة إلى الشرق من مدينة مَلقَة. فندقٌ مصمّم من أجل العائلات يكشف، في أوقات الوجبات خاصةً، ومن غير قصد، عن الصعوبات التي يواجهها نتيجة كونه مشروعًا عائليًا. رابح خان في الخامسة عشرة من عمره. وهو في عطلة مع أبيه وزوجة أبيه. الجو بينهم قاتم، والأحاديث قليلة. مضت ثلاث سنوات على وفاة والدة رابح. يقدّم الفندق الطعام من خلال بوفيه يقيمونه كل يوم على شرفة مطلّة على بركة السباحة. ومن حين لآخر، تبدي زوجة أبيه ملاحظة عن طبق البايلا، أو عن الريح التي تهبّ شديدة من جهة الجنوب. هي في الأصل من غلوسيسترشاير، وتحب العمل في الحديقة.

لا يبدأ الزواج بعرض الزواج، ولا حتى في اللقاء الأول.
يبدأ قبل ذلك بزمن طويل؛ يبدأ عندما تولد فكرة الحب.
وعلى نحو أكثر تحديدًا، يولد مع الحلم بشقيق الروح.

يرى رابح الفتاة أول مرة عند المزلقة المائية. تصغره بنحو سنة واحدة، ولها شعر كستنائي قصير كأنه شعر صبي، وجلد زيتوني اللون، وأطراف رشيقة. إنها ترتدي بلوزة بحّارة مقلّمة، وشورتًا أزرق، وشبشبًا أصفر ليمونيًا. في معصمها الأيمن سوار دقيق من الجلد. تلتفت وتلقي في اتجاهه نظرة سريعة وتبتسم ما قد يكون

ابتسامة غير متحمّسة، ثم تجلس على كرسي من كراسي التشمّس. تمضي بعد ذلك بضع ساعات في النظر إلى البحر نظرة تأمّل وهي تصغي إلى الووكمان الذي معها وتعضّ أظافرها من وقت لآخر. والداها جالسان إلى جانبَيها. تتصفّح أمها عددًا من مجلة Elle، ويقرأ أبوها واحدة من روايات لين ديتون، بالفرنسية. في وقت لاحق، سيعرف رابح من سجلّ نزلاء الفندق أنها من كليرمونت فيرالد، وأن اسمها آليس ساور.

لم يشعر من قبل أبدًا بأيّ شيء يشبه هذا، ولو من بعيد. غمره هذا الإحساس منذ البداية. ليس إحساسًا معتمدًا على كلمات لن يتبادلاها أبدًا. أحسّ كأنه، على نحو ما، كان يعرفها دائمًا... كأنها تقدّم إليه إجابة عن وجوده نفسه، وكأنها تقدّم خاصةً إجابة عن منطقة ألم حائر في داخله. وفي الأيام التالية، يراقبها في أرجاء الفندق، لكن عن بعد: وقت الفطور في فستان أبيض ذي حاشية مزينة بالزهور وهي تجلب من البوفيه لبنًا رائبًا ودرّاقة؛ وفي ملعب التنس تعتذر من المدرب عن ضربتها العكسية بأدب مؤثّر وبلغة إنجليزية فيها لكنة واضحة؛ وفي نزهة منفردة (في الظاهر) حول ملعب الغولف... تتوقّف لتنظر إلى نباتات الصبار والخبازى.

قد يأتي الأمر سريعًا جدًا، هذا اليقين بأن إنسانًا آخر هو «شقيق الروح». نحن لسنا في حاجة إلى الحديث معهما؛ بل ربما لا نعرف حتى اسميهما. لا علاقة لهذا بالمعرفة الموضوعية. ما يهم هنا هو الحدس، الإحساس التلقائي الذي يبدو أكثر دقة وجدارة بالاحترام لأنه يتجاوز عملية الفهم المنطقي العادية.

يتبلور افتتانه بها من خلال جملة عناصر: فردة شبشب متدلية من قدم، بلا مبالاة؛ ورواية «سدهارتا» لهيرمان هسّه في غلافها الورقي ملقاة على منشفة إلى جانب عبوة كريم الواقي الشمسي؛ وحاجبان حسنا التحديد؛ وهيئتها الذاهلة عندما تجيب أباها وزوجته، وطريقتها في إسناد وجنتها إلى راحة كفها وهي تتناول لقمات صغيرة من «موس الشوكولاته» وقت البوفيه المسائي.

ينحتُ رابح غريزيًا صورة شخصيتها الكاملة انطلاقًا من هذه التفاصيل. يرفع عينيه ناظرًا إلى الشفرات الخشبية لمروحة السقف في غرفته، ويكتب في ذهنه قصة حياته معها. ستكون كئيبة الطبع، ذكية ذكاء ابنة مدينة متمرّسة. ستضع ثقتها فيه وتضحك من نفاق الآخرين. سيكون لديها أحيانًا توتّرٌ إزاء الحفلات وإزاء بقية البنات في المدرسة... أعراض شخصية حسّاسة عميقة. ستكون فتاة وحيدة في حياتها لم يسبق لها أبدًا أن أقدمت على وضع ثقتها الكاملة في أي شخص آخر. سيجلسان معًا على سريرها وتتشابك أصابعهما تشابكًا لعوبًا. وبدورها، لن تكون قد تخيلت أبدًا أن صلة مثل هذه قد تكون ممكنة بين شخصين.

ثم ترحل تلك الفتاة ذات صباح... ترحل من غير سابق إنذار؛ ويجلس إلى طاولتها رجل وامرأة هولنديان معهما ولدان صغيران. لقد غادرت الفندق مع أبيها وزوجته منذ الفجر لكي يسافروا بطائرة إير فرانس عائدين إلى ديارهم... هذا ما يقوله مدير الفندق.

الحادثة كلّها لا أهمّية لها. ولن يلتقيا بعد ذلك أبدًا. لا يخبر أحدًا. ولا يستغيبها في أفكاره. لكن... إذا كانت القصّة تبدأ هنا، فهذا لأن فهمه للحبّ سيظلّ عشرات السنين محتفظًا تمام الاحتفاظ

ببنيته التي اكتسبها أول مرة في فندق كازا آل سور في صيف السنة السادسة عشرة من عمره (مع أن قسمًا كبيرًا من رابح سينضج ويتغير مع مرور السنين). سوف يظل على ثقته نفسها بإمكانية الفهم والمَيل المتبادَلين، التامّين، السريعين، بين كائنَين بشريين؛ وسيظل واثقًا من فرصة وجود نهاية حاسمة للوحدة.

سوف يعيش حالات مماثلة من التَوْق المرّ الحلو إلى شقيقات روح أخريات فقدهن بعد أن رآهن في الباصات وفي ممرات المتاجر وقاعات القراءة في المكتبات العامة. سيكون لديه ذلك الإحساس نفسه -بالضبط- في سن العشرين، وخلال فصل دراسي أمضاه في مانهاتن، وتجاه امرأة جالسة في مقعد إلى يساره في قطار متّجه شمالًا؛ وكذلك في الخامسة والعشرين في مكتب تصميم معماريٍّ في برلين حيث يتلقى تدريبًا عمليًا على العمل؛ وكذلك في التاسعة والعشرين في طائرة بين باريس ولندن بعد حديث قصير فوق القناة الإنجليزية مع امرأة اسمها كلوي: إحساسه بأنه وجد جزءًا من نفسه فقده منذ أمد بعيد.

بالنسبة إلى شخص رومانسي، قليلة جدًّا هي الخطوات الفاصلة بين الرؤية الخاطفة لشخصٍ غريبٍ وبين تكوين استنتاجٍ جوهريٍّ مهيبٍ جليل: استنتاج مفاده أن ذلك الشخص قد يكون إجابة نهائيّة شاملة عن أسئلة الوجود غير المعبَّر عنها.

قد تبدو كثافة الإحساس وشدّته أمرًا ثانويًا- بل حتى فكاهيًا- إلا أن هذا الإجلال للإحساس الغريزي ليس كوكبًا قليل الشأن في فلك العلاقات العاطفية. إنه

الشمس المركزية التي تدور مُثُل الحب المعاصرة من حولها.

لا بد أن الإيمان الرومانسي قد وُجد على الدوام. لكنه كان محكومًا عليه، في القرون القليلة الماضية فقط، بأنه ليس أكثر من مرض. ولم يحدث إلا في الآونة الأخيرة أن صار مسموحًا للبحث عن شقيق الروح أن يتبوّأ مكانة قريبة من البحث عن غاية الحياة نفسها. والنزوع المثالي الذي كان في السابق متّجهًا إلى الأرواح والآلهة أعيد توجيهه صوب مواضيع بشرية -لفتة كريمة في ظاهرها- على الرغم من كونها محاصَرة بذعر التحريم والعواقب الوخيمة... فليس بالأمر الهيّن على أي كائن بشري أن يفي، على امتداد عمر كامل، بمظاهر الكمال التي لعله يكون قد لمحها فيه مراقبٌ نَشِطُ المخيلة في الشارع أو في المكتب أو في مقعد مجاور في طائرة.

سوف يستغرق رابح سنوات كثيرة من المحاولات المتكرِّرة في عالم الحبّ حتى يصل إلى بضعة استنتاجات مختلفة، وحتى يدرك أن تلك الأشياء نفسها التي اعتبرها يومًا ما رومانسية -الحدس غير المعبَّر عنه بالكلمات، والتوق اللحظي، والإيمان بشقيق الروح- هي ما يقف عقبة في طريق تعلُّم أن يكون المرء مع شخص آخر. وسوف يستنتج أن الحب غير قادر على الاستمرار والدوام إلا عندما يكون المرء غير مخلص لتطلعاته البدئية الخدّاعة، وأن عليه -حتى تنجح علاقاته- أن يتخلّى عن المشاعر التي جعلته يدخل تلك العلاقات أصلًا. سوف يتعيّن عليه تعلُّم الدرس القائل إن الحب مهارة، لا فيضُ حماسة.

البداية المقدّسة

إنه السؤال نفسُه الذي يُوجَّه دائمًا إلى رابح وزوجته خلال أولى سنوات زواجهما، ثم سنوات كثيرة بعد ذلك: «كيف التقيتما؟»، وعادة ما يكون هذا السؤال مصحوبًا بنفحة ترقّب وإثارةٍ لعوبٍ محسوسة. عندها، عادة ما ينظر الزوجان كلٌّ إلى الآخر -بشيء من الخجل أحيانًا عندما يصمت من على الطاولة جميعًا وينصتون- لكي يقررا من منهما سيجيب عن السؤال هذه المرة. وبحسب المستمعين، من الممكن أن يجعلا الأمر طريفًا، أو رقيقًا ناعمًا. قد يمكن تكثيف الإجابة إلى جملة واحدة؛ وقد تملأ الإجابة فصلًا في كتاب.

تحظى لحظة البداية بهذا القدر غير المتناسب من الاهتمام لأن أحدًا لا يعتبرها مجرّد مرحلة من بين مراحل كثيرة. فعند الشخص الرومانسي، تشتمل هذه المرحلة -بصورة مكثّفة- على كلّ ما له أهمية في الحب جملةً. هذا هو السبب الذي يجعل الراوي، في قصصِ حب كثيرة، عاجزًا عن الاهتداء إلى أي شيء آخر يفعله بالرجل والمرأة بعد أن ينتصرا على جملة من العقبات والمصاعب الأولية إلا أن يضعهما في عهدة مستقبل قاسٍ غامض، أو حتى أن يعمد إلى التخلص منهما بإنهاء حياتهما. ليس ما أَلِفنا أن نسمّيه حبًّا إلا بداية الحب، لا أكثر!

يستغرب رابح وزوجته أن من النادر أن يسألهما أحد عما جرى لهما بعد أن التقيا؛ وكأن قصة علاقتهما الحقيقية غير منتمية إلى ميدان الفضول المشروع، أو المثمر. لا يجدان نفسَيهما أبدًا، على الملأ، أمام السؤال الذي يشغل بالهما حقًا: «كيف هو الأمر بعد أن يمرّ على الزواج حين من الزمن؟».

أمر ساحر، ومثير للقلق أيضًا، أن تظل قصص العلاقات العاطفية قائمةً عشرات السنين من غيّر أن تمرّ بنكبات أو بهناءة كبيرة. لكن هذه استثناءات من بين القصص الكثيرة التي نجرؤ على روايتها لأنفسنا عن مسار الحب.

يحدث الأمر على هذا النحو... البداية التي تحظى بهذا القدر كله من الاهتمام. رابح في الحادية والثلاثين، يسكن مدينة لا يكاد يعرفها أو يفهمها. كان يعيش في لندن، لكنه انتقل مؤخّرًا إلى إدنبره بسبب عمله. لقد تخلّت الشركة المعمارية التي كان يعمل فيها عن نصف موظفيها بعد خسارتها غير المتوقّعة عقدًا أبرمته؛ فأرغمته حقيقةُ أنه صار من غير عمل على توسعة نطاق بحثه عن عمل جديد توسعةً تجاوزت ما كان يتمنّاه. وهذا ما قاده أخيرًا إلى قبول وظيفة لدى استوديو اسكوتلندي للتصميم الحضري متخصّص في مجال الساحات والتقاطعات الطرقية.

وهو من غير أي ارتباط عاطفي منذ أن فشلت علاقته بمصممة غرافيكية قبل بضع سنين. انضم إلى نادٍ صحّي محلّي، وانتسب إلى موقع من مواقع المواعدة على الإنترنت. كما حضر افتتاح معرض فنّي للمصنوعات السلتية. وهو يحضر أيضًا عددًا من المناسبات ذات الصّلة الفضفاضة بعمله. لكن هذا كلّه من غير طائل. شعر

مرات قليلة بوجود تقارب ذهني مع امرأة، لكن من غير تجاذب جسدي -أو بتجاذب جسدي من غير تقارب ذهني-. أو... أسوأ من ذلك: بارقةُ أمل يأتي بعدها ذكرُ الشريك الذي يكون عادة واقفًا في الناحية الأخرى من الغرفة وقد علا وجهه تعبير يذكّر بحارس سجن.

إلا أن رابحًا يظل متمسّكًا بالأمل. إنه شخص رومانسي. وأخيرًا حدث الأمر بعد أيام أحد فارغة كثيرة... حدثَ على نحو يكاد يشبه ما علّمته إياه أعمال فنّية كثيرة من أن يظل مترقّبًا حدوثه.

دوّار على الطريق A720 المتّجه من وسط إدنبره صوب الجنوب، دوّار يصل بين الطريق الرئيسي وممرٍ يفضي إلى مجموعة بيوت فاخرة مشرفة على بركة وملعب للغولف -مهمة لا يتولّاها رابح لأنه مهتمّ بها كثيرًا، بل نتيجة اضطراره الناجم عن تصنيفه المتواضع ضمن تراتبية العاملين في شركته.

وأما من ناحية الجهة صاحبة المشروع، فقد كان الدور الإشرافي منوطًا أول الأمر بعضو رئيسي في فريق المساحة لدى مجلس المدينة؛ لكن وفاة تحدث في عائلة الرجل قبل يوم واحد من بداية المشروع فتحلّ محله زميلة له أحدث منه عهدًا.

يتصافحان في موقع العمل في صباح يوم غائم أوائل شهر حزيران؛ بعد الساعة الحادية عشرة بقليل. كيرستن ماكليلاند ترتدي سترة صفراء عاكسة، وخوذة عمّالية، وحذاء ثقيلًا ذا نعل مطّاطي. لا يستطيع رابح خان سماع معظم ما قالته، لا بسبب الهدير المتقطع الصادر عن ضاغط هيدروليكي قريب منهما فحسب، بل أيضًا لأن كيرستن -هذا ما سيكتشفه بعد ذلك- كثيرًا ما تتكلّم بصوت

خافت، بذلك الصوت الشائع في مدينة إنفرنِس التي نشأت فيها حيث اعتاد الناس أن يتوقّفوا قبل أن تنتهي الجملة تمامًا... كأنها تكتشف، في وسط الجملة، اعتراضًا على ما تقوله، أو كأنها تريد الانتقال إلى الكلام في أمر آخر ترى أن له أولوية.

على الرغم من ملابسها -أو، في الحقيقة، بسبب تلك الملابس إلى حدٍّ ما- ينتبه رابح على الفور إلى مجموعة سمات لدى كيرستن، سمات جسدية ونفسية، يجد نفسه منجذبًا إليها. ينتبه إلى طريقتها المرحة الهادئة في الاستجابة إلى الموقف المتعالي لدى فريق العمل المكوّن من اثني عشر رجلًا مفتولي العضلات؛ ويلاحظ حرصها على التحقّق من البنود الكثيرة في جدول أعمال المشروع؛ ويلاحظ قلة اهتمامها الواثقة بمراعاة معايير الموضة. ينتبه أيضًا إلى فرادتها التي يوحي بها عدم الانتظام البسيط في أسنانها الأمامية العليا.

بعد انتهاء لقائهما مع فريق العمال، يذهب المقاول وصاحب المشروع فيجلسان معًا على مقعد قريب حتى يراجعا وثائق العقود. لكن المطر يبدأ بعد بضع دقائق فتقترح كيرستن أن يسيرا إلى الشارع الرئيسي ويبحثا عن مقهى هناك لأنه لا توجد في موقع العمل غرفة صالحة لأن يراجعا تلك الأوراق.

في طريقهما، سائرين تحت مظلّتها، يدور بينهما حديث عن رحلات المشي. تخبره كيرستن بأنها تحاول الابتعاد عن المدينة كلما سنحت لها فرصة لذلك. والواقع أنها ذهبت قبل مدة قصيرة إلى منطقة لوخ كايابيم حيث نصبت خيمتها في غابة صنوبر منعزلة وعاشت ذلك الإحساس الاستثنائي بالسلام والصفاء لأنها صارت

بعيدة جدًا عن بقية الناس وعن تشتت حياة المدينة وصخبها. نعم، لقد كانت هناك بمفردها... هكذا تجيبه قائلة: «نعم، لقد ذهبت إلى ذلك المكان وحدي». يتخيّل صورتها في خيمتها وهي تفك رباط حذائها. لا تقع أنظارهما على أي مقهى عندما يبلغان الشارع الرئيسي، فيلتجئان بدلًا من ذلك إلى مطعم هندي كئيب خاوٍ اسمه «تاج محل» ويطلبان شايًا، ومعه (بناء على إلحاح صاحب المطعم) طبقٌ من خبز البابادوم. يشعران بالانتعاش بعد شرب الشاي فيمضيان في مراجعة أوراقهما ويخلُصان إلى أن من الأفضل أن يتم صبّ الإسمنت في الأسبوع الثالث، وأن يتم إحضار حجارة الرصف في الأسبوع الرابع.

يتفحّص رابح كيرستن بتركيز يكاد يشبه تركيز طبيب شرعي، لكنه يحاول فعل ذلك خفية. يلاحظ شامات خفيفة على وجنتيها، ومزيجًا غريبًا من التحفّظ والحزم في تعبير وجهها؛ شعرٌ بنيٌّ كثيف يبلغ الكتف مردود إلى جهة واحدة؛ وعادتها في أن تبدأ جملتها بداية نشطة سريعة «لدينا هنا شيء...».

وفي مجرى حديثهما العملي هذا، يفلح في التقاط لمحات عارضة من جانب أكثر خصوصية. تجيب كيرستن عندما يسألها عن أبويها، فيسمع نبرة غريبة في صوتها عندما تقول إنها نشأت في إنفرنِس في كنف أمّها وحدها لأن أباها فقد في وقت مبكر أي اهتمام بالحياة العائلية. تقول وهي تبتسم له ابتسامة ساخرة، «لم تكن تلك بداية مثالية تجعلني كبيرةَ الأمل في الناس». (يلاحظ أن سنّها الأمامية العلوية اليسرى منحرفة قليلًا). «... لعل هذا ما يجعل عبارة 'عاشا سعيدين دائمًا' لا تثير لديَّ اهتمامًا كبيرًا».

على أن قولها هذا لم يقلّل من حماسة رابح نحوها، فقد ذكّر نفسه بالحكمة القائلة إن الساخرين ليسوا إلا أشخاصًا مثاليين لديهم معايير أعلى من المعتاد. كان يرى غيومًا تتحرّك سريعًا عبر نوافذ «تاج محل» الواسعة. وفي الأفق البعيد، شمس متردّدة تسكب ضياءها على القباب البركانية السوداء في تلال بنتلاند.

يستطيع منع نفسه من التفكير في أن كيرستن شخصية لطيفة يحب أن يمضي معها ساعات النهار في حلّ بعض مسائل الإدارة البلدية المحيّرة. ويستطيع أيضًا كبح أحكامه في شأن مدى ما يمكن أن يكون لتلك الشخصية من عمق كامن خلف تأملاتها في الحياة المكتبية والشؤون السياسية الاسكوتلندية. ويستطيع قبول أن من المستبعد أن تتبدى روحُها عرَضًا من خلال شحوبها وخطوط رقبتها. ولا مانع عنده من القول إنها جذّابة إلى الحدِّ الكافي وأنه سيكون في حاجة إلى خمس وعشرين سنة أخرى حتى يعرف عنها ما يتجاوز هذا كثيرًا.

بدلًا من هذا، يشعر رابح بأنه واثق من عثوره على امرأة فيها ذلك المزيج الاستثنائي من الخصال الداخلية والخارجية: ذكاء ولطف، وجمال، وروح فكِهة، وصدق، وجرأة؛ امرأة سيشتاق إليها إذا خرجت من الغرفة على الرغم من أنه لم يكن يعرفها أبدًا قبل ساعتين فقط؛ امرأة، أصابعها -تلك الأصابع التي ترسم الآن بعود الأسنان خطوطًا واهية على مفرش الطاولة- يتمنّى أن يداعبها وأن يشدّ عليها بأصابعه؛ امرأة يودُّ أن يمضي بقية حياته معها.

خائفًا من إزعاجها، غير واثق من مزاجها، مدركًا المخاطرة في أن يخطئ قراءة لمحاتها، راح يبدي لها إعجابًا شديدًا واهتمامًا دقيقًا.

يسألها لحظة خروجهما عائدين إلى موقع العمل: «إنني آسف؛ لكن... هل تفضّلين أن أحمل مظلّتك؟».

تجيبه: «أوه، لا مانع عندي أبدًا».

يتابع قائلًا: «يسعدني أن أحملها لك... أو، ربما لا تريدين!».

«مثلما قلت لك... كما تريد».

يراقب ما يقوله مراقبة صارمة. مهما تكن مسرّة الكشف، فهو يريد أن يخفي عن كيرستن جوانب شخصيته، فلا يُظهر منها إلا بعضها. في هذه المرحلة، ليست لإظهار ذاته الحقيقية أية أولوية.

يلتقيان من جديد في الأسبوع التالي. وأثناء سيرهما عائدَين إلى مطعم «تاج محل» لكي يراجعا موازنة المشروع وتقرير سير العمل فيه، يسألها رابح إن كان له أن يساعدها فيحمل حقيبة الملفّات بدلًا منها، فتضحك استجابة لذلك وتقول له إن عليه ألا يكون «رجلًا» إلى هذا الحدِّ. لا يبدو له أن اللحظة مناسبةٌ لأن يكشف لها عن أنه لن يكون أقل سعادة في مساعدتها إن أرادت الانتقال من بيتها، أو حتى في تمريضها والسهر عليها إن أصابتها الملاريا. ثم لا تلبث حماسته أن تتضاعف من جديد لأن كيرستن لا تبدو عليها حاجة إلى المساعدة في أي شيء على الإطلاق، ففي آخر المطاف، يكون الضعف جانبًا ساحرًا أكثر ما يكون عندما يتبدّى في طبع شخص قوي.

تقول كيرستن موضحة بعد أن جلسا في المطعم: «المسألة هي أن نصف العاملين في القسم قد ذهبوا. وهذا ما يجعلني أؤدّي عمل ثلاثة أشخاص معًا. بقيت في العمل حتى الساعة العاشرة الليلة الماضية على الرغم من أن أكثر هذا ناجم، ولعلّك قد لاحظت هذا، عن أنني شديدة الميل إلى ضبط كل شيء».

يستبدّ به الذعر من أن يقول شيئًا خاطئًا، ولا يستطيع أن يعثر على أمر يتكلّم فيه، لكنه يرى نفسه غير قادر على ترك الصمت يستمر طويلًا، لأن ذلك الصمت سيبدو برهانًا على بلادته. ينتهي به الأمر إلى تقديم شرح مطوّل عن توزّع الأحمال على ركائز الجسور، ثم يُتبعه بتحليل للسرعات النسبية العظمى التي تتلف عندها الإطارات على السطوح الجافة، وعلى السطوح الرطبة أيضًا. إن خراقته علامة عارضة، على الأقل، على صدقه: لا تكون لهفتنا كبيرة عندما نحاول إغواء أشخاص لا يهمنا أمرهم كثيرًا!

يحسّ عند كل منعطف في الحديث بضعف قدرته على اجتذاب اهتمام كيرستن. فالانطباع الذي تكوّن لديه عن استقلاليتها وحريتها يخيفه بقدر ما يثير حماسته. ويدرك انعدام وجود أي سبب وجيه يجعلها تسبغ عليه عطفها واهتمامها. يفهم تمام الفهم أنه لا يكاد يمتلك أي حق في أن يطلب منها النظر إليه بذلك اللطف الذي تستلزمه نواحي قصوره الكثيرة. ليس هو أكثر من شخص متواضع الحال كثيرًا على محيط حياة كيرستن.

ثم يأتي التحدّي الحاسم، تحدّي معرفة إن كان الإحساس متبادلًا... أمرٌ يكاد يكون ذا بساطة طفولية على الرغم من أنه يتحمّل دراسات دلالية وتخمينات لا آخر لها. تبدي إعجابها بمعطفه المطري الرمادي. وتقبل أن يدفع ثمن ما تناولاه معًا من شاي وبابادوم. تشجّعه عندما يقول لها إنه طامح إلى العودة إلى دراسة العمارة. إلا أنها تبدو نافرة، بل منزعجة قليلًا أيضًا، في المرات الثلاث التي يحاول فيها جعل حديثهما يتطرّق إلى علاقاتها السابقة. لا تحاول التقاط تلميحه بإمكانية الذهاب معًا لحضور فيلم.

ليس لهذه الشكوك إلا أن تضرم الرغبة. فبالنسبة إلى رابح، ليس الأشخاص الأكثر جاذبية هم من يقبلونه سريعًا، لأنه يشكّ في سلامة «حكمهم»، ولا أولئك الذين لا يمنحونه أية فرصة (يصير مغتاظًا لقلّة مبالاتهم به)، بل هم من يتركونه بعض الوقت في مهبّ الريح. قد يفعلون هذا نتيجة ارتباك رومانسي مثل ارتباكه، أو عن طبيعة حذرة، أو عن علة جسدية، أو حاجز نفسي، أو التزام ديني، أو خلاف سياسي.

إن للتّوق طريقته الخاصّة في إثبات روعته.

أخيرًا، يبحث رابح عن رقم هاتفها في أوراق مجلس المدينة. وفي صباح يوم سبت، يكتب لها رسالة يقول فيها إنه يظنّ أن النهار سيكون مشمسًا. يأتيه ردّها شبه الفوري: «أعرف هذا. ما رأيك في نزهة إلى الحديقة النباتية؟ كيرستن».

يصلان إلى حديقة إدنبره النباتية بعد ثلاث ساعات من ذلك، ويتجولان بين أغرب أنواع الأشجار والنباتات. يريان أزهار الأوركيد التشيلية، ويدهشهما تعقيد شجيرة الوردية، ويتوقّفان لحظة بين شجرة تنّوب من سويسرا، وشجرة صنوبر أحمر عملاقة من كندا تهتز أغصانها اهتزازًا بسيطًا في الريح الآتية من البحر.

استنفد رابح قدرته على صياغة العبارات التي لا معنى لها؛ تمامًا مثلما يحدث عادة قبل تلك اللحظات. ليس إعجابه بنفسه، ولا إحساسه بأحقيته، بل قنوطه وجزعه هما ما جعلاه يقاطع كيرستن في منتصف جملتها وهي تقرأ ما هو مكتوب على لوحة المعلومات... «لا يجوز الخلط بين أشجار الألب و...»، فيحيط وجهها بكفيه ويضغط شفتيه بلطف على شفتيها... بادرةٌ استجابت لها بأن أغمضت عينيها، وطوّقت ذراعاها بقوة أسفل ظهره.

رنين غريب صادر عن سيارة تبيع الآيس كريم في إنفرنِست تيراس، وغراب ينعق بين أغصان شجرة منقولة من نيوزيلندا، وما من أحد منتبه إلى شخصين اثنين، نصف مختفيين بين شجرتين آتيتين من خارج البلاد، يعيشان واحدة من أرقّ لحظات حياة كل منهما وأكثرها انفتاحًا على نتائج لاحقة.

مع ذلك، علينا التأكيد على أن لا شيء من هذا له علاقة بقصّة حب. لا تبدأ قصص الحب عندما نخاف أن يكون شخصٌ غير راغب في رؤيتنا من جديد، بل عندما يقرّر أنه لا مانع لديه أبدًا من رؤيتنا طيلة الوقت... لا تبدأ عندما تكون للآخر فرصة للهرب، بل عندما يبادلنا العهد بأن يأسرنا، وبأن يكون أسيرًا لنا، طيلة العمر.
يكون فهمنا للحب مختطفًا، ومكذوبًا، بفعل لحظاته المؤثّرة المحيّرة الأولى. نسمح لقصص حبنا بأن تنتهي أبكر كثيرًا مما ينبغي. والظاهر أننا نعرف كثيرًا جدًّا كيف يبدأ الحب، لكننا لا نعرف عن كيفية استمراره إلا قدرًا قليلًا إلى حد خطير.

عند أبواب الحديقة النباتية، تقول كيرستن لرابح أن يتّصل بها؛ وتعترف له -مع ابتسامة يرى فيها فجأة كيف كان شكلها عندما كان عمرها عشر سنين- بأنها ستكون حرّة في أية أمسية من أمسيات الأسبوع التالي.
يشقّ رابح طريقه في زحام يوم السبت عائدًا إلى كارترمايل، ويشعر بنشوة تجعله راغبًا في إيقاف أي غريب حتى يخبره بحظّه الحسن. لقد نجح نجاحًا كبيرًا -لا يعرف كيف- في التحدّيات

الكبرى الثلاثة التي تقوم عليها الفكرة الرومانسية عن الحب: عثر على المرأة الصحيحة؛ وفتح قلبه لها، وحظي بقبولها.

لكنه، بطبيعة الحال، لم يصل بعد إلى أي شيء. سوف يتزوجان؛ وسوف يعانيان، وسوف يكون المال مشكلة تقلقهما من وقت لآخر، وسوف ينجبان بنتًا أول الأمر، ثم صبيًا، وسوف تكون لواحد منهما مغامرة عاطفية، وسوف تمر بهما فترات من الضجر، وسوف يرغبان أحيانًا في أن يقتل واحدهما الآخر، وسوف يحدث بعض المرّات أن يرغب واحدهما في قتل نفسه. ستكون هذه هي قصّة الحب الحقيقية.

مكتبة
t.me/t_pdf

الوقوع في الحب

تقترح كيرستن أن يذهبا في رحلة إلى شاطئ بورتوبيلّو الواقع على مسيرة نصف ساعة بالدراجة عبر جسر فيرث أوف فورث. رابح غير مستقرٍّ على دراجته المستأجرة من متجر قريب من شارع برينسز تعرفه كيرستن. إن لديها دراجة حمراء بلون الكرز لها اثنتا عشرة سرعة ونظام مكابح متقدّم. يبذل أقصى ما يستطيعه حتى يواكبها. يركّب سرعة جديدة في منتصف طريق النزول، لكن سلسلة الدراجة تحتج على ذلك، وتنتفض، ثم تتدلّى خامدة إلى جوار المسنن. يندفع في نفسه إحباط وحنق يعرفهما جيدًا. مسافة العودة إلى المتجر بعيدة. لكن كيرستن لها رأي آخر. تقول له: «انظر إلى نفسك. أنت، أيها الأحمق الكبير الغاضب». تقلب الدراجة رأسها على عقب، وتغير اتجاه أداة السرعة، ثم تضبط وضع مسنن التوجيه الخلفي الصغير. سرعان ما تتسخ يداها بالزيت، ثم ينتهي الأمر بظهور مسحة منه على وجنتها.

يعني الحب الإعجاب بصفاتٍ لدى المحبوب تعدنا بأن تصحِّح نقاط ضعفنا واختلالاتنا؛ فالحب بحث عن الكمال.

لقد وقع في حبّ هدوئها، في حبّ إيمانها بأن كل شيء سيكون على ما يرام، في حب انعدام أي إحساس بالاضطهاد لديها، في

حب غياب القدرية عنها. هذه فضائل صديقته الاسكوتلندية الاستثنائية الجديدة التي تتكلّم بلهجة يصعب عليه فهمها كثيرًا، فيجد نفسه مضطرًّا إلى مطالبتها ثلاث مرات بأن توضح له كيف تستخدم كلمة «مؤقَّت». إن حب رابح استجابة منطقية لاكتشاف عناصر القوة المتمّمة لشخصيته وجملةٍ من الخصال التي يتمنّاها لنفسه. إنه يحب انطلاقًا من إحساس بالنقص، بعدم الكمال... ومن رغبته في أن يصير مكتملًا.

وهو ليس وحيدًا في هذا. فكيرستن تسعى مثله إلى تعويض نقاط ضعفها، وإن تكن نقاطًا كامنة في مجالات أخرى. لم تسافر خارج اسكوتلندا إلى ما بعد دراستها الجامعية. أقاربها كلهم متحدّرون من ذلك الجزء الصغير نفسه من البلاد. الأرواح ضيّقة هناك، وألوان رمادية، وجو ريفي، وقيمٌ قائمة على إنكار الذات. تجد نفسها مشدودة بقوة إلى انتسابه إلى الجنوب. تريد ضوءًا، وأملًا، وأشخاصًا يعيشون عبر أجسادهم بحماسة وعاطفة. تحب الشمس كثيرًا وتكره شحوب جلدها وإحساسها بالضيق تحت أشعتها. إن على جدار غرفتها ملصقًا لمنطقة المدينة في فاس المغربية.

يثيرها ما عرفته عن خلفية رابح. ويحيّرها أنه ابن مهندس مدني لبناني ومضيفة طائرة ألمانية. يحكي لها قصصًا عن طفولته التي عاشها في بيروت وأثينا وبرشلونة، حيث كانت هناك لحظات من التألّق والجمال، ومن حين لآخر لحظات من الخطر الشديد. يتكلّم العربية والفرنسية والألمانية والإسبانية؛ وتحمل عبارات التحبّب التي يقولها لها بأسلوب لَعوب نكهات كثيرة جدًا. جلده زيتوني اللون بالمقارنة مع جلدها الأبيض الوردي. يصالب ساقَيْه

الطويلتين عندما يجلس، وتعرف يداه الرشيقتان رشاقة مدهشة كيف تحضّران المكدوس والتبولة وسلطة البطاطس. يطربها سماع كلامه عن تلك العوالم التي عاش فيها. وهي باحثة أيضًا عن حب يعيد إليها التوازن، ويتمّمها.

> *فالحب أيضًا -وبالتساوي- متّصل بالضعف، متّصل بأن تمسّ مشاعر المرء آلامَ الآخر ومَواطن ضعفه وهشاشته. يصحّ هذا خاصة عندما نكون، نحن أنفسنا، (مثلما يحدث في أيام الحب الأولى)، غير واقعَيْن في خطر تحميلنا مسؤولية تلك الأحزان وتلك الهشاشة. فعندما نرى الحبيب جزِعًا، مأزومًا، باكيًا، غيرَ قادر على التحمّل، يمكن أن يطمِئننا هذا إلى أنه -على الرغم من حسناته كلّها- ليس شخصًا منيعًا إلى حدٍّ غريبٍ منفّرٍ. فهو أيضًا يجد نفسه عند بعض النقاط حائرًا مضّطربًا... إنه إدراك ينيط بنا دورًا مساندًا إضافيًا، ويخفف من إحساسنا بالخجل إزاء ما فينا من نواقص، ويُقرّب كلًا منا إلى الآخر من حول تجربة الألم المشتركة تلك.*

يذهبان بالقطار إلى إنفرنِس لزيارة والدة كيرستن. وتصرّ والدتها على المجيء لملاقاتهما في المحطة. مع أن هذا يعني رحلة بالباص إلى الناحية الأخرى من المدينة. إنها تدعو كيرستن «غنمتها الصغيرة» وتحتضنها بقوّة على رصيف المحطة مغمضة عينيها إغماضًا شديدًا. تمدّ يدها بحركة رسمية للسلام على رابح، وتعتذر عن «الأحوال» في هذا الوقت من السنة: لا تتجاوز الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، لكن الظلمة موشكة على إرخاء سدولها.

عيناها مفعمتان بالحيوية مثل عيني ابنتها، لكن فيهما -فضلًا عن ذلك- نظرة ثابتة تجعل رابحًا يحسّ شيئًا من الضيق عندما تستقران عليه، هذا ما ظلّتا تفعلانه تكرارًا خلال إقامتهما عندها، ومن غير أي سبب ظاهر.

بيتها ضيّق، مكوّن من طابقين، وله شرفة رمادية. إنه واقع مباشرة قبالة المدرسة الابتدائية التي ظلّت والدة كيرستن معلّمة فيها ثلاثين سنة. وفي أنحاء إنفرنِس كلّها، هناك أشخاص كبار -صاروا الآن يديرون متاجر، ويبرمون عقودًا، ويأخذون عينات من الدم- قادرون على أن يتذكّروا أول معرفتهم بمبادئ الحساب وقصص الكتاب المقدّس وهم جالسون في حضن السيدة ماكليلاند. وبمزيد من الدقة، يتذكّر أكثرهم أسلوبها المميّز في جعلهم يعرفون لا كم تحبهم فقط، بل أيضًا كم يسهل أن يسبّبوا لها خيبة أمل.

يتناول ثلاثتهم معًا عشاء مبكرًا في غرفة المعيشة وهم يتابعون برنامج مسابقات في التلفزيون. رسوم كيرستن في روضة الأطفال معلّقة على الجدار على امتداد السلم كلّه ضمن إطارات مذهَّبة أنيقة. في الصالة صورة لها يوم تعميدها. وفي المطبخ، صورة جانبية لها في زيّها المدرسي تبدو فيها عاقلة وتظهر ثغرة بين أسنانها في سن السابعة. وعلى رف الكتب، صورة ملتقطة لها عندما كانت في الحادية عشرة... نحيلة، مشعّثة الشعر، جريئة المظهر في بنطلون قصير وتي شيرت عند الشاطئ.

وفي غرفتها التي يبدو عليها كأن أحدًا لم يمسّها منذ رحيلها إلى أبردين من أجل نيل شهادة جامعية في القانون والمحاسبة، ملابسُ سوداء في الخزانة ورفوف مزدحمة بكتب مدرسية تغضّنت أغلفتها

الورقية. وفي نسخة من رواية مانسفيلد بارك صادرة عن مؤسسة بنغوين، كتبت نسخةُ زمن المراهقة من كيرستن، «فاني بايس: فضائل الاعتيادي الاستثنائي». وفي ألبوم صورٍ تحت السرير صورة عفوية لها مع أبيها واقفَيْن أمام سيارة تبيع الآيس كريم عند كرودن باي. إنها في السادسة؛ وسوف يظل والدها في حياتها سنة واحدة بعد ذلك.

شاء الفولكلور العائلي أن يرحل أبوها رحيلًا مفاجئًا ذات صباح، بعد أن حزم حقيبة صغيرة عندما كانت الزوجة التي مرّ على ارتباطه بها عشر سنين تعلِّمُ الأطفال في المدرسة. وكان التفسير الوحيد الذي قدّمه قصاصة من ورق خربش عليها كلمة آسف ووضعها على الطاولة في ردهة البيت. راح بعد ذلك يتجوّل في أنحاء اسكوتلندا ويأخذ أعمالًا مؤقتة في المزارع محافظًا على تواصله مع كيرستن من خلال بطاقة بريدية واحدة مع هدية يرسلها كل سنة في يوم ميلادها. عندما صارت في الثانية عشرة، وصلها طرد فيه سترة صوفية مناسبة لفتاة عمرها تسع سنوات. ما كان من كيرستن إلا أن أعادت إرسال الهدية من حيث أتت في كاماتشنور، وأرفقت بها ملاحظة تبلّغ مرسل الهدية بأملها الصريح في أن يموت سريعًا. ثم لم تسمع منه شيئًا منذ ذلك الوقت.

لو رحل من أجل امرأة أخرى، لكان قد نكث بعهود زواجه، لا أكثر. وأما أن يترك زوجته وطفلته لمجرد أن يعيش وحده ويزيد استمتاعه بصحبة نفسه من غير أن يقدّم أبدًا أي شرح مفهوم لحقيقة دوافعه، فقد كان هذا رفضًا ذا طبيعة أكثر عمقًا وأكثر غرابة وضررًا.

استلقت كيرستن بين ذراعي رابح وهي تشرح له هذا. عيناها محمرّتان. هذا جزء آخر منها يحبّه: ضعف شخص ذي قوة واقتدار عميقين.

وأما من جانبها، فإن لديها تجاهه الشعور نفسه تمامًا -في تاريخ حياته ظروف ليست أقل ألمًا يستطيع أن يحدّثها عنها-. عندما كان رابح في الثانية عشرة، وبعد طفولة عاشت عنفًا طائفيًا، وحواجز في الطرق، وليالٍ في ملاجئ للحماية من الغارات الجوية، ترك بيروت مع أبيه وأمه راحلين إلى برشلونة. ثم لم يمر إلا نصف سنة بعد وصولهم وسكنهم في شقة قريبة من الميناء القديم، قبل أن تبدأ أمه الشكوى من ألم عند بطنها. ذهبت إلى الطبيب حيث تلقّت تشخيص إصابتها بحالة متقدّمة من سرطان الكبد، جاء هذا على نحو غير متوقّع سدّد ضربة لا شفاء لها إلى إيمان ابنها بثبات أي شيء على الإطلاق. ثم ماتت بعد ثلاثة شهور. وفي غضون سنة واحدة، تزوّج أبوه مجدّدًا من امرأة إنجليزية بعيدة عن الصبي عاطفيًا؛ وهو يعيش الآن معها في مدينة قادس الإسبانية.

تودّ كيرستن، بقوة مفاجئة لها، أن تشيع راحة في نفس ذلك الصبي البالغ اثني عشر عامًا الذي كان قبل عشرات السنين. يواصل ذهنها الرجوع إلى صورة لرابح مع أمه ملتقطة قبل سنتين من موتها على أسفلت مطار بيروت، ومن خلفهما طائرة لشركة لوفتهانزا. كانت والدة رابح تعمل مضيفة في رحلات جوية إلى آسيا وأميركا، فتقدّم وجبات الطعام في القسم الأمامي من الطائرة لرجال أعمال أثرياء، وتتأكّد من ربط أحزمة المقاعد، وتسكب الشراب لأشخاص غرباء وتبتسم لهم، في حين يكون ابنها منتظرًا عودتها إلى البيت. يتذكّر رابح إحساسه بإثارة شديدة تقارب الغثيان في الأيام التي تسبق عودتها. أحضرت له من اليابان ذات مرة دفاتر مصنوعة من ألياف شجر التوت، ومن المكسيك تمثالًا صغيرًا ملونًا لواحد من

زعماء الأزتك. كانت تشبه ممثلة سينمائية -رومي شنايدر-، كما كان الناس يقولون.

إن في قلب حب كيرستن رغبة في شفاء جرح الفقد الدفين في قلب رابح منذ زمن بعيد، ذلك الفقد الذي لا يكاد يتطرّق إلى ذهنه.

يبلغ الحب ذروةً في تلك اللحظات عندما يتّضح لنا أن الحبيب يفهم النواحي المخجلة والمحرجة في أنفسنا، النواحي التي تعمّها الفوضى، يفهمها بوضوح أكبر مما يستطيعه أي شخص آخر، بل ربما أكبر مما نستطيعه نحن. فأن يتمكّن شخص آخر من فهم حقيقتنا، ويتعاطف معنا، ويصفح عنا نتيجة ما يراه كامنًا من تحت قدرتنا كلّها على الثقة والعطاء. الحب هبة امتنان لقدرة بصيرة الحبيب على النفاذ إلى نفسنا المضطربة الحائرة.

«من جديد، أنت في مزاجك الغاضب الذي يشعر بالإساءة، لكنه هادئ إلى حدٍّ غريب!». هكذا تشخّص حالته ذات مساء، عندما تتجمد صفحة موقع شركة تأجير السيارات على الإنترنت الذي يستخدمه رابح لكي يحجز لنفسه وأربعة من زملائه سيارة ميني باص عند وصوله إلى آخر مرحلة من مراحل الحجز، فتتركه غير عارف إن كان الموقع قد أدرك مراده واقتطع المبلغ من بطاقته المصرفية. «أظن أن عليك أن تصرخ، أن تقول شيئًا قبيحًا؛ ثم تعال إلى السرير. لن يزعجني هذا. بل من الممكن أن أتصل صباحًا بتلك الشركة من أجلك». إنها مدركة، بطريقة غريبة، عدم قدرته على التعبير عن غضبه. تفهم ما يحدث في داخله عندما يحوّل الصعوبة إلى حالة من الخدر والتقزز من الذات. ومن غير أن تجعله يخجل

من نفسه، تستطيع تحديد الأشكال التي يتخذها غضبه أحيانًا، وتسميها بأسمائها.

وبدقة ليست بأقل من ذلك، تلتقط خوفه من أن يبدو قليل الشأن في عين أبيه، ثم في أعين بقية الذكور من ذوي السلطة والنفوذ. وفي طريقهما إلى اللقاء الأول مع والده في فندق جورج، تهمس لرابح من غير مقدّمات، «ما عليك إلا أن تتخيّل فقط أن لا أهمية لرأيه بي... أو لرأيه في الأمر، أو لرأيه بك». بالنسبة إلى رابح، كان إحساسه كأنه عائد في وضح النهار مع صديق إلى غابة كان فيها وحده في الليل، فصار يرى الآن أن الأشكال الخبيثة التي أثارت الذعر في نفسه من قبل لم تكن أبدًا، في حقيقة الأمر، أكثر من صخور جعلتها الظلال تبدو مخيفة.

إن في مرحلة الحب الأولى نوعًا من الإحساس بالارتياح المحض إزاء القدرة -أخيرًا- على الكشف عن ذلك القدر كلّه مما كان ضروريًا أن يبقى خبيئًا بغية اللياقة. نستطيع الإقرار بكوننا لسنا محترمين، أو رصينين، أو متّزنين، أو «أسوياء» بالقدر الذي يراه المجتمع فينا. نستطيع أن نكون طفوليين، مبدعين جامحين، آمنين، ساخرين، هشّين، متعدِّدين... فالحبيب قادر على فهم هذا كلّه وقبوله فينا.

في الساعة الحادية عشرة ليلًا، بعد انقضاء زمن على تناولهما طعام العشاء، يخرجان من أجل عشاء آخر ويشتريان أضلاعًا مشوية من مطعم لوس أرجنتينوس في شارع بريستون، ثم يأكلان في ضوء القمر على مقعد في منتزه ميدوز. يتحدّث كل منهما إلى الآخر

بلهجة غريبة: هي سائحة من هامبورغ ضلت طريقها تريد من يدلّها على متحف الفن الحديث؛ وهو غير قادر على مساعدتها لأنه بائع لثمار البحر قادم أبردين ولا يستطيع فهم نطقها غير المألوف.

يعودان إلى روح الطفولة اللعوب. يقفزان على السرير. يحمل كل منهما الآخر على ظهره. يتبادلان النمائم. وبعد حضورهما حفلة من الحفلات، ينتهي بهما الأمر -لا محالة- إلى العثور على عيب في كل واحد من الحاضرين، ويزداد ولاء كل منهما للآخر عمقًا من خلال التزايد المستمر لقلّة ولائهما لأيٍّ شخص آخر.

إنهما ثائران على ما في حياتهما المعتادة من نفاق. يحرّر كل منهما الآخر من مشقّات الحلول الوسط. يتبادلان الإحساس بأن ما من أسرار باقية بينهما.

يكون عليهما في الأحوال العادية أن يستجيبا للاسمين اللذين فرضتهما عليهما بقية العالم، الاسمين المستخدمَيْن في الوثائق الرسمية ولدى البيروقراطية الحكومية؛ لكن الحب يوحي إليهما بالبحث عن أسماء مستعارة تكون أكثر اتفاقًا مع منابع الرقة والحنان عند كل منهما. وهكذا يصير اسم كيرستن «تيكل»، الكلمة التي يشيع استخدامها في اسكوتلندا بمعنى «عظيمة». كلمة تبدو لأذن رابح غامضة ساذجة، بارعة، شديدة التصميم. وأما هو فيصير اسمه «صْفُوف» مثل اسم الحلوى اللبنانية الجافة المنكّهة باليانسون والكركم التي جعلها تجرّبها في متجر يبيع مأكولات أجنبية في نيكلسون سكوير -كلمة ترى أنها تعبر تعبيرًا تامًا عن الحلاوة المتحفّظة وغرابة شرق المتوسط في ذلك الصبي البيروتي ذي العينين الحزينتين-.

الجنس والحب

يقترح رابح عشاء في مطعم تايلندي في شارع هاو من أجل لقائهما الثاني بعد تلك القبلة في الحديقة النباتية. يصل قبلها ويجلس إلى طاولة في الطابق السفلي بالقرب من حوض غاصّ بسرطانات البحر. يتأخّر وصولها بضع دقائق. تأتي غير متأنّقة على الإطلاق: بنطلون جينز قديم، وحذاء رياضي، ونظارة بدلًا من العدسات اللاصقة التي تستخدمها عادة. يبدأ الحديث بينهما مرتبكًا. يشعر رابح بالعجز عن استعادة مستوى التواصل الحميم الذي كان في آخر لقاء بينهما. كان ذلك كأنهما عادا مجرد شخصين يعرف أحدهما الآخر معرفة عادية. يتحدّثان عن أمّه وعن أبيها، وكذلك عن بعض الكتب والأفلام التي يعرفانها معًا. لكنه لا يجرؤ على لمس يديها اللتين تظلّان، على أية حال، في حُجرها معظم الوقت. يبدو أمرًا طبيعيًا افتراض إمكانية أنها قد غيّرت رأيها.

لكن ذلك التوتر لا يلبث أن يتلاشى عندما يخرجان إلى الشارع بعد ذلك. تسأله: «ما رأيك في أن نشرب الشاي في بيتي... شاي الأعشاب؟ المكان غير بعيد».

يجتازان بضعة شوارع حتى يصلان إلى بناية سكنية يصعدان إلى الطابق الأخير فيها حيث لديها شقة صغيرة، لكنها جميلة. شقة فيها غرفة نوم واحدة وإطلالة على البحر. على امتداد جدران الشقة، صور أخذتها كيرسن لمناطق مختلفة من هايلاندز. يلتقط رابح

لمحة سريعة لغرفة النوم فيرى على السرير كومة كبيرة من ملابس مختلطة.

تصيح قائلة: «جرّبت كل ما لديَّ من ملابس، لكنني قلت في نفسي: إلى الجحيم بهذا كلّه!... مثلما يقول المرء أحيانًا!».

إنها تعدّ الشاي في المطبخ. يدخل المطبخ، ويمسك علبة الشاي، ويبدي عجبه من غرابة شكل كتابة كلمة بابونج. تقول بنبرة مازحة دافئة: «أنت تلاحظ أكثر الأشياء أهمية!». يبدو له هذا كأنه دعوة، فيقترب منها ويقبّلها قبلة رقيقة. تستمرّ القبلة زمنًا طويلًا. في الخلفية، يسمعان صوت الغلاية تفور، ثم تهدأ. يتساءل رابح كم يمكن له أن يستمّر. تداعب يده رقبة كيرستن من الخلف، ثم تنزل إلى كتفيها. يخاطر بلمسة متردّدة على صدرها وينتظر ردة فعل لا تأتي. تجول يده اليمنى على بنطلونها الجينز، برقة شديدة، ثم تنحدر كفاه إلى فخذيها. يعرف أنه بلغ الآن أقصى ما قد يكون مقبولًا في الموعد الثاني. لكنه يغامر من جديد وتنزل يده مرة أخرى فتتحرك على الجينز بثقة أكبر وتتغلغل بين ساقيها.

يكون ذلك بداية أكبر لحظات الإثارة الجنسية في حياة رابح؛ فعندما تشعر كيرستن بيده تضغط عليها من فوق الجينز، يندفع جسدها إلى الأمام بحركة بسيطة لا تكاد تُحَس، يندفع مستقبلًا يده... ثم يندفع بقوة أكبر. تفتح عينيها وتبتسم له فيجيبها بابتسامة مماثلة.

تقول له: «هنا، هنا...»، وترشد يده إلى بقعة بعينها إلى جانب الجزء الأسفل من سحّاب البنطلون.

يستمر هذا دقيقة أخرى، أو نحو ذلك، ثم تمد يدها وتمسك

بمعصمه فترفع يده قليلًا وتوجهها لكي تفك الزر. يفتحان بنطلونها معًا، وتمسك بيده فتدعوها إلى داخل حافة سروالها الداخلي المطاطية السوداء. يحس دفئها؛ وبعد لحظة، يحس نداوة يعرف أنها علامة واضحة علىٰ الإثارة والترحاب.

قد تبدو الإثارة الجنسية، أول الأمر، ظاهرة فيزيولوجية، لا أكثر... ظاهرة ناتجة عن استيقاظ الهرمونات وعن تحريض النهايات العصبية. لكن الحقيقة أنها أمر ناجم عن الأفكار أكثر مما هو ناجم عن الحواسّ ـ وأول تلك الأفكار فكرة القبول والوعد بنهاية الوحدة والإحساس بالخجل.

بنطلونها مفتوح الآن على اتساعه، ووجهاهما متّقدان معًا. من ناحية رابح، تكون الإثارة الجنسية -التي هي ارتياح وإثارة ممتزجان معًا- نابعة جزئيًا من واقع أن كيرستن لم تكد تبدي أية إشارة، خلال ذلك الزمن الطويل كلّه، إلى أن في ذهنها شيء من هذا القبيل.

تشدّه إلى غرفة النوم، وتركل كومة الملابس فترميها على الأرض. على الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير، هناك رواية تقرأها، رواية لجورج ساند التي لم يسمع رابح بها قبل ذلك. يرى أيضًا أقراطًا للأذنين، وصورة لكيرستن في زيّها المدرسي واقفة أمام مدرستها الابتدائية ممسكة يد أمها.

تقول له: «لم تسنح لي فرصة لكي أخبئ أسراري كلّها. لكن، لا تترك ما أقوله الآن يمنعك من استراق النظر».

في الخارج قمر شبه مكتمل؛ والستائر ظلّت مفتوحة. يستلقيان على الفراش متعانقين؛ ويداعب شعرها، ويضغط على يدها. توحي

ابتساماتهما بأنهما لم يتجاوزا خجلهما كلّه بعد. يتوقّف في منتصف المعانقة، ويسألها متى قرّرت أول مرة أنها قد تكون راغبة في هذا. لا يسألها بدافع من غروره، بل من عنفوانه وإحساسه بالتحرّر الآن بعد أن برهنت الرغبات التي لعلّها كانت تبدو فاحشة أو ضارية أو دنيئة في شكلها الأول، قبل أن تجد استجابة، على كونها رغبات متبادلة على نحو يجعلها بريئة من أي إحساس بالإثم.

تقول له: «في وقت مبكّر جدًّا، حقًا. هل لديك شيء آخر أستطيع مساعدتك فيه؟».

«في الحقيقة... عندي».

«قل ما عندك».

«حسنًا... في أية لحظة شعرتِ أول مرة، بأنك... بأنك يمكن أن... كيف يمكن أن أقول هذا؟... نعم، بأنك يمكن أن تكوني راغبة بي...».

«تقصد في مضاجعتك؟».

«شيء من هذا القبيل».

تقول بنبرة معابثة: «فهمت الآن ما تريد قوله. إذا أردت الحقيقة، فقد بدأ هذا منذ المرة الأولى عندما سرنا معًا إلى ذلك المطعم. لاحظت أن لك مؤخرة لطيفة، ثم ظللت أفكّر فيها طيلة الوقت الذي كنت تثرثر فيه عن العمل الذي كان علينا القيام به ـ ثم تخيلت في وقت لاحق من الليل عندما كنت مستلقية على هذا السرير نفسه الذي نحن مستلقيان عليه الآن كيف سيكون الأمر إذا أوقعتُ بك... نعم، حسنًا... الآن، سوف يصيبني الخجل أيضًا... ولن أقول الآن أكثر من هذا».

أن تكون لدى أشخاص يبدون محترمين بعض الخيالات

الشهوانية الصريحة في داخلهم من غير أن يبدو عليهم من الخارج ما يشير إلى اهتمامهم بما يتجاوز حديثًا وديًّا... لا يزال هذا شيئًا يفاجئ رابح فيراه -على نحو ما- فكرة مدهشة جدًا تثير فيه غبطة عميقة وتمتلك قدرة فورية على تهدئة فيض خفيٍّ من إحساسه بالذنب إزاء الرغبة الجنسية. أن تكون خيالات كيرستن في آخر الليل متعلّقة به على الرغم من أنها بدت له متحفّظة في ذلك الوقت، وأن تكون الآن شديدة اللهفة وشديدة المباشرة... جعل هذا الكشف تلك اللحظة واحدة من أفضل اللحظات في حياة رابح.

> بصرف النظر عن كل ما يدور من كلام عن التحرر الجنسي، فالحقيقة هي أن السرّية وذلك القدر من الحرج المتّصل بالجنس يظلان موجودين كعهدهما دائمًا. لا نزال غير قادرين، بشكل عام، على قول ما نحن راغبين في فعله، ومع من. ليس الخجل وكبت النزوات مجرّد شيئين تمسّك بهما أسلافنا وبعض التعاليم الدينية المتشدّدة لأسباب غامضة أو من غير داعٍ: إنهما محكومان بأن يظلّا باقيين على امتداد العصور. وهذا ما يضفي تلك الطاقة كلّها على هذه اللحظات النادرة (قد لا تكون هناك إلا بضع لحظات منها في العمر كلّه)، عندما يدعونا شخص غريب عنا إلى التخلّي عن حذرنا والإقرار صراحة بأننا راغبون، بالضبط تمامًا، في ما كنا نشعر بالذنب لأننا تواقون إليه في سرّنا.

تكون الساعة قد بلغت الثانية صباحًا عندما ينتهيان. بومة تنعق في مكان بعيد وسط الظلمة.

تغفو كيرستن بين ذراعَيّ رابح. تبدو مرتاحة، واثقة، وهي تطفو وئيدًا في تيار النوم في حين يظل واقفًا على ضفّته، معترضًا على انتهاء هذا اليوم العجائبي مستعيدًا في ذهنه لحظاته المهمة. ينظر إلى شفتيها ترتعشان قليلًا كأنها تقرأ لنفسها في الليل كتابًا بلغة أجنبية. ومن حين لآخر، تبدو كأنها تستيقظ لحظة فتبين على وجهها علائم إجفال وخوف كأنها تتوسل نجدةً. تقول: «القطار!»، أو تقول بمزيد من اللهفة والإلحاح: «إنه غدًا، لقد غيروا مكانه». يطمئنُها (لديهما وقت كافٍ للذهاب من أجل المحطة. وقد أنجزتْ كل ما يلزم من مراجعة ضرورية استعدادًا للامتحان)، ويأخذ يدها بين يديه مثلما يفعل والد يستعد لأن يجتاز بطفلته شارعًا مزدحمًا.

ليس الأمر مجرد خَفَرٍ عندما يشار إلى ما فعلاه بالقول إنه «ممارسة الحب». لم يمارسا الجنس فحسب، بل ترجما مشاعرهما -الرقة والإعجاب والعرفان والتخلي- ترجماها إلى فعل جسدي.

نسمي هذه الأشياء إثارة، لكن ما لعلنا نشير إليه حقًا هو حبورنا وبهجتنا لأننا تمكنّا أخيرًا من الكشف عن ذواتنا الخبيئة -ومع كشفنا عنها-، لا ينتاب الحبيب ذعر لرؤيتنا على حقيقتنا، بل يختار أن يستجيب لنا بكل تشجيع واستحسان.

مع بلوغ رابح الثانية عشرة، بدأت تظهر لديه درجة من الإحساس بالخجل مع ميل إلى عادةِ إحاطة الجنس بالسرية. وبطبيعة الحال، قيلت له قبل ذلك بضع أكاذيب صغيرة، وارتكب بضع خطايا: سرق نقودًا قليلة من محفظة أبيه؛ وتظاهر بأنه مولع بخالته أوتيليه، ونسَخَ عصر ذات يوم في شقّتها الخانقة المزدحمة عند كورنيش

البحر مقطعًا كاملًا من واجب الجبر من دفتر زميله المتفوّق ميشيل. لكن أيًا من تلك المخالفات لم تجعله يشعر بأدنى قدر من التقزّز من نفسه.

في نظر أمه، كان دائمًا ذلك الطفل الذكي الحلو الذي تدعوه باسم التحبب «فأر»؛ وكان الفأر يحب الاندساس معها تحت بطانية الكشمير الكبيرة في غرفة الجلوس، وأن تزيح كفّها خصلات شعره المتدلية فوق جبهته الناعمة. وفجأة، خلال واحد من الفصول الدراسية، وجد ذلك الفأر نفسه غير قادر على التفكير إلا في مجموعة بنات أكبر منه بسنتين... بنات طولهنّ خمس أقدام أو ست كان واضحًا من كلامهنّ أنهنّ إسبانيات، وكن تتجوّلن أوقات الإستراحة في عصبة تآمرية، وتقهقهن معًا بطريقة فظة، واثقة، مغوية. كان ينسلّ كل بضع ساعات، أيام العطلة، إلى الحمام الأزرق الصغير في البيت، ويتخيل مشاهدَ يرغم نفسه على نسيانها مجددًا لحظة انتهائه. انفتحت هوّة بين ما كان ينبغي أن يكونه من أجل أسرته، وما كان يعرف في دخيلة نفسه أنه حقيقته الفعلية. ولعل هذا التفارق كان أشد ألمًا في علاقته بأمه. لم يُعفِه من ذلك أن يكون بِدء بلوغه قد وافق، بالضبط تقريبًا، وقت تشخيص إصابة أمه بالسرطان. ففي أعماق لاوعيه، في موضع منزوٍ مظلم عصيٍّ على المنطق، ظلّ كامنًا ذلك الانطباع بأن اكتشافه الجنس قد يكون من بين الأسباب التي ساهمت في قتلها.

وعلى نحو مماثل، لم تسر الأمور عند كيرستن سيرًا بسيطًا تمامًا. فهي أيضًا، كانت لديها أفكار مرهِقة حول ما يعنيه أن يكون المرء شخصًا جيدًا. في الرابعة عشرة من عمرها، كانت تحبّ أن تأخذ

الكلب في نزهات خارج البيت، وأن تؤدّي أعمالًا تطوّعية في مأوى كبار السن، وتؤدّي واجبات جغرافيا مدرسية إضافية عن الأنهار. لكنها كانت أيضًا تستلقي على الأرض في غرفتها، وحدها، وترفع تنّورتها عاليًا وتنظر إلى نفسها في المرآة، متخيّلة أنها تؤدّي عرضًا أمام ولد في المدرسة أكبر منها سنًا. ومثلما كان الأمر لدى رابح، أرادت بعض الأشياء التي لم تكن تبدو لها منسجمة مع المفاهيم الاجتماعية السائدة، ولا مع الحالة السويّة.

ليست قصص الانقسام الذاتي هذه، في ماضي كل منهما، إلا جزءًا مما يجعل بداية العلاقة بينهما مُرضية إلى هذا الحد. ما من حاجة بينهما إلى أية ألاعيب أو أي غموض. فعلى الرغم من أن كل منهما قد عرف بضعة شركاء في الماضي، فقد وجد واحدهما الآخر شخصًا منفتح الذهن، باعثًا على الاطمئنان بطريقة استثنائية. تصير غرفة نوم كيرستن مقرًّا لرحلات استكشاف ليلية، يستطيعان فيها أخيرًا أن يكشفا من غير خشية من أية أحكام عن أشياء غير معتادة لا تخطر في الذهن ترغمهما نوازعهما الجنسية على التماسها.

قد تبدو تفاصيل ما يثيرنا جنسيًا أمورًا غريبة أو غير منطقية، لكننا نظر إليها عن قرب فنرى أنها تحمل أصداء من خصائص نتوق إليها في ميادين وجود أخرى نزعم أنها أكثر رشدًا: التفهّم، والتعاطف، والثّقة، والوحدة، والسخاء، واللطف. فمن تحت كثير من المحفّزات الشهوانية تكمنُ حلول رمزية لبعضٍ من أعظم مخاوفنا، وتكمنُ إلماحاتٌ صائبة إلى ما لدينا من شوق إلى الصداقة والتفهّم.

إنه الأسبوع الثالث لهما بعد المرة الأولى. يمرِّر رابح أصابعه بخشونة في شعر كيرستن. تشير بحركة من رأسها مع تنهيدة صغيرة إلى أنها تريد مزيدًا من ذلك، أقوى أيضًا، أرجوك! تريد أن يقبض

حبيبها على شعرها بيده ويشدّه بشيء من العنف. لكن هذا تطورٌ دقيق بالنسبة إلى رابح. لقد علّموه أن يعامل المرأة باحترام كبير، وأن يعتبر الجنسَين متساوِيَيْن، وكذلك أن يكون مؤمنًا بأن من غير الجائز في علاقة بين اثنين أن يستخدم أحدهما القوة مع الآخر. لكن شريكته لا تبدي في هذه اللحظة أدنى اهتمام بتلك المساواة، أو أدنى اكتراث بالقواعد المألوفة للتوازن بين الجنسين.

وهي ليست أقلّ من ذلك حرصًا على استخدام عدد من الكلمات الإشكالية. تطلب منه مخاطبتها كأنه غير مبالٍ بها أبدًا، فيجد الاثنان إثارة في هذا لأن الحقيقة هي عكسه تمامًا -لأنها كذلك بالضبط-. تصير كلمات من قبيل *ابن حرام*، *وعاهرة*، *ومهبل*، رموزًا مشتركة بينهما تشير إلى ما بينهما من ثقة وإخلاص.

وفي السرير، لا يعود العنف مخاطرة على الإطلاق على الرغم من كونه مصدر خطر في الحياة العادية. من الممكن أن يكون استخدام قدر من القوة سلوكًا آمنًا لا يجعل أيًا منهما غير مرتاح. فثورة رابح المؤقتة يمكن أن تبقى تحت سيطرته تمامًا، حتى عندما تستمد منها كيرستن إحساسًا يملأها قوّة بأنها قادرة على استعادة نفسها بعد ذلك العنف. كان كل منهما في طفولته ميالًا إلى الاحتكاك الجسدي مع الأصدقاء. قد يكون الأمر ممتعًا أن يضرب المرء أحدًا. كانت كيرستن تنهال على صديقاتها ضربًا بوسائد الأريكة؛ وكان رابح يصارع أصدقاءه على العشب عند بركة السباحة. وأما بعد أن كبرا، فقد صار العنف محظورًا مهما يكن نوعه: لا يجوز لأي شخص كبير أن يستخدم القوة ضد شخص آخر. على الرغم من هذا، (ضمن حدود ألعاب الحبيب والحبيبة)، من الممكن أن

يكون ممتعًا على نحو غريب أن يتلقّى المرء صفعة، وأن يَضربَ قليلًا ويُضرب قليلًا. يمكن أن يصيرا خشنين، وأن يواصلا ذلك. ويمكن أن يكون في الأمر شيء من القسوة. فضمن نطاق الحماية الذي يرسمه حبهما، لا يشعر أيّ منهما بخطر أن يصيبه أذى، أو بأن يظل محرومًا.

كيرستن امرأة على قدر كبير من القوّة والصلابة. هي مديرة قسم في عملها؛ وهي تكسب أكثر مما يكسبه حبيبها. امرأة واثقة من نفسها... قائدة. وقد تعلّمت منذ سن مبكرة أنّ عليها أن تكون لها قدرة على رعاية نفسها بنفسها.

وأما في السرير مع رابح، فهي تكتشف الآن أنها راغبة في القيام بدور مختلف، يكون نوعًا من مهرب من المتطلّبات المرهقة التي تفرضها عليها بقية نواحي حياتها. فأن تكون خاضعة له يعني أن تسمح لشخص يحبّها أن يملي عليها ما تفعله، وأن تتركه يتولى مسؤولية الاختيار بمعزل عنها.

لم تستهوها هذه الفكرة من قبل على الإطلاق؛ لكنها لم تستهوها لقناعتها بأن أكثر الأشخاص المتسلّطين ليسوا ممن يستحقّون الثقة: لم يكونوا يبدون لها لطيفين حقًا، أو غير عنيفين على الإطلاق بحكم طبيعتهم، مثلما هو رابح. (كانت تعابثه فتسميه «السلطان رابح»)؛ كان لديها توق تلقائي إلى الاستقلالية، لأنه لم يكن من حولها أي «سلاطين عثمانيين» على قدر من اللطف يجعلهم مستحقّين أن يروا ذلك الجانب الضعيف في ذاتها.

وأما من جانبه، فقد كان على رابح -طيلة حياته بعد أن كبر- أن يكبح ميله إلى التسلط كبحًا شديدًا على الرغم من كونه مدركًا في

قرارة نفسه أن في طبيعته جانبًا أكثر قسوة. يحسّ أحيانًا كأنه واثق من معرفته الخيار الأفضل بالنّسبة للآخرين، وما يستحقّون أن يحدث لهم. قد يكون في العالم الحقيقي موظفًا مساعدًا صغيرًا لا حول له في شركة للتصميم الحضري في منطقة ريفية، وقد تكون عليه قيود كثيرة قوية تمنعه من التعبير عما يراه حقًا. وأما في السرير مع كيرستن، فهو يصير قادرًا على الإحساس بجاذبية ترك تحفّظه المعتاد جانبًا وفرض الطاعة المطلقة له -تمامًا مثلما قد يفعل السلطان سليمان القانوني بين حريمه في قصره المزيَّن بالرخام والحجارة الكريمة على شواطئ البوسفور-.

ألعاب الخضوع والهيمنة، وسيناريوات كسر القواعد، والولع الفيتيشي بكلمات بعينها أو بأجزاء بعينها من الجسد: يتيح هذا كله فرصًا لاستطلاع الرغبات التي هي ليست أبدًا مجرّد رغبات غريبة، أو فارغة، أو مجنونة قليلًا. إنها ألعاب توفّر فترات فاصلة طوباوية نستطيع فيها، مع صديق حقيقي نادر الوجود، أن نخلع عنا آمنين دفاعاتنا المعتادة، ونكشف توقنا المشتاق إلى القرب الشديد والقبول المتبادل فنرويه حتى يكتفي؛ وهذا هو السبب الحقيقي ذو الجذر الفيزيولوجي الذي يجعل تلك الألعاب، في آخر المطاف، أمرًا شديد الإثارة.

يطيران إلى أمستردام لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. وفي منتصف الرحلة، فوق بحر الشمال، ينسلان معًا إلى حمام الطائرة. لقد اكتشفا نشوة فعل ذلك في أماكن شبه عمومية: أمرٌ يبدو كأنه يحقّق لهما توافقًا مفاجئًا خطيرًا، لكنه مثير، بين جانبيهما الجنسيين

وشخصيتيهما العامتين الأكثر رسمية، تلك الشخصيتان اللتان يكون عليهما عادةً إظهارها أمام الناس. يحسّان كأنهما يتحدّيان المسؤولية والخفاء وضبط النفس بلحظاتهما المضطرمة المنفلتة. وعلى نحو ما، تصير متعتهما أكثر شدة في وجود مئتين وأربعين مسافرًا غافلًا عنهما من خلف باب صغير واحد.

حمام الطائرة ضيّق جدًا، لكن كيرستن تفلح في فك أزرار بنطلون رابح واستخدام فمها. في الماضي، كانت ترفض، أكثر الأحيان، أن تفعل هذا مع رجال آخرين، لكن هذا الفعل صار معه امتدادًا دائمًا ضروريًا لحبها. أن تتلقّى ذلك الجزء الذي هو في الظاهر أكثر أجزاء جسد حبيبها قذارة وخصوصية ومدعاة للإحساس بالذنب... أن تتلقّاه في أكثر أجزاء جسدها عمومية وعلنية واحترامًا، فهو فعل يرمز إلى تحريرهما كليهما من الانقسام الأليم بين القذر والنظيف، والسيئ والحسن، في تلك العملية أثناء طيرانهما في الفضاء المتجمّد متّجهَين إلى مطار شيفينينغن بسرعة أربعمئة كيلومتر في الساعة وهما يخلقان كلًا واحدًا من ذاتين كانتا منقسمتين، خجولتين.

عرض الزواج

يعودان إلى بيت والدة كيرستن في إنفرنِس في أول عطلة ميلاد لهما معًا. تبدي له السيدة ماكليلاند لطفًا أموميًا (جوارب جديدة، وكتاب عن الطيور الاسكوتلندية، وزجاجة ماء حار من أجل سريره الفردي)؛ وإلى جانب ذلك كلّه، فضولها المستمر الذي تحسن تمويهه. إن لأسئلتها التي توجّهها وهي واقفة عند مجلى المطبخ بعد الطعام، أو في نزهة على الأقدام من حول خرائب كاتدرائية سان آندرو، مظهرًا يوحي لهما بأنها أسئلة عادية عارضة؛ إلا أن هذا لا ينطلي على رابح. إنها تعاينه. تريد أن تفهم أسرته، وعلاقاته السابقة بالنساء، وكيف انتهى عمله في لندن، وما هي مسؤولياته في عمله الجديد في إدنبره. إنها تجري تقييمًا له بقدر ما يمكن تقييمه في هذه السن التي لا تقبل تدقيق الأهل، بل تصرّ على أن العلاقات تكون أكثر نجاحًا إذا لم تُتح أية سلطة لمُقررين من خارجها. فمن الواجب أن يكون الاتحاد الرومانسي حقًّا حصريًا للفردين المعنيين به بحيث يستبعد منه حتى من لعلهم كانوا -ليس منذ سنين كثيرة جدًا- يحمّمون الفتاة كل مساء ويضعونها في أيام العطلة الأسبوعية في عربة الأطفال ويأخذونها إلى الحديقة العامة لكي ترمي قطع الخبز للحمامات.

إلا أن عدم قدرة السيدة ماكليلاند على المشاركة في القرار لا تعني أنه ليست لديها أية أسئلة. تتساءل عما إن كان رابح سيبرهن

على أنه زير نساء أو رجل مبذر، أو على أنه ضعيف أو سكير، أو على أنه مضجر أو رجل من ذلك النوع الذي يلجأ إلى حل الخلافات باستخدام بعض القوة. إن لديها فضولًا يدفعها إلى التحرّي عن ذلك كلّه لأنّها تعرف أكثر من معظم الناس أن ما من أحد أقدر على تدميرنا من الشخص الذي نتزوّجه.

وفي آخر يوم لهما هناك، عندما قالت السيدة ماكليلاند لرابح أثناء تناول طعام الغداء إن من المؤسف ألا تكون كيرستن قد غنّت أبدًا بعد رحيل أبيها عن البيت، وذلك لأن لها صوتًا واعدًا جدًّا، ولأن لها موقعًا في قسم الطبقات الصوتية العالية في الكورَس، فهذا ليس مجرد إطلاعٍ له على معلومات عن النشاطات السابقة التي كانت لابنتها خارجَ المدرسة: إنها تطلب من رابح -بالقدر الذي تتيحه قواعد التعامل- ألا يدمّر حياة كيرستن.

يعودان بالقطار إلى إدنبره في الليلة التي تسبق ليلة رأس السنة: سفرة تستمر أربع ساعات عبر منطقة هايلاندز تقودها قاطرة ديزل شائخة. إن لكيرستن خبرة في هذه الرحلة؛ وهذا ما جعلها تحضر معها بطانية التفّا بها معًا في عربة القطار الأخيرة الفارغة. إن كان أحد ينظر إلى القطار من تلك المزارع البعيدة، فلا بد أنه يراه أشبه بخط مضاء ليس أكبر من يسروع ليلي ماضٍ وسط بحرٍ من سواد.

تبدو كيرستن مشغولة الذهن.

تجيبه عندما يسألها: «لا، لا شيء أبدًا». لكنها لا تكاد تقول هذا حتى تتدحرج دمعة من عينها، وسرعان ما تتبعها دمعة ثانية، ثم ثالثة. مع ذلك، تظلّ مصرة على القول إن الأمر لا شيء. هذا سخف منها. غباء. لا تقصد إحراجه، فالرجال جميعًا يكرهون هذا الأمر، وهي

لا تعتزم جعله عادة من عاداتها. وأهم من هذا أن الأمر لا علاقة له به. إنها أمها. تبكي كيرستن لأنها -للمرة الأولى في حياتها بعد أن كبرت- تشعر بسعادة حقيقية لم تعرف مثلها إلا مرات قليلة نادرة مع أمُّها التي تربطها بها علاقة لصيقة جدًا. إن السيدة ماكليلاند قلقة من أن يجعل رابح ابنتها حزينة؛ وتبكي كيرستن شاعرة بالذنب إزاء هذه الظنون، فحبيبها هو من يساعدها في أن تكون هكذا.

يحتضنها، ويشدّها إليه. لا يقولان شيئًا. يعرف أحدهما الآخر منذ أكثر قليلًا من ستة أشهر. لم يخطط لطرح الأمر الآن. لكنه يلتفت إلى كيرستن بعد أن تجاوزا قرية تيليكارنكي، وبعد مرور مفتش التذاكر، ويسألها من غير مقدّمات إن كانت تقبل به زوجًا؛ ثم يقول لها إنه ليس ضروريًا أن يتزوجا سريعًا، بل عندما تشعر بأن الوقت قد صار مناسبًا... ليس ضروريًا أيضًا أن يكون ذلك بقدرٍ كبيرٍ من الضجيج، فمن الممكن أن يكون احتفالًا صغيرًا لا يحضره غيرهما مع أمها وبضعة أصدقاء... لكن من الممكن أيضًا -بالطبع- أن تكون مناسبة كبيرة إن كانت تفضّل ذلك؛ فالأمر الجوهري هو أنه يحبها من غير أية مقدمات، ويريد أكثر مما أراد أي شيء آخر من قبل أن يكون معها ما بقي حيًّا.

تستدير إليه؛ ولوهلة قصيرة، تظلّ صامتة. تعترف بأنها ليست ممن يجيدون التصرّف في لحظات من هذا النوع... ليس معنى هذا أنها لحظات تمرّ بها كثيرًا، بل لم تمر بها من قبل أبدًا. ليس لديها كلام جاهز تقوله، فقد أتى الأمر مثلما تأتي صاعقة في سماء صافية... لكن، ما أشد اختلافه عما يحدث لها عادة، فكم هو لطيف منه، وكم هو جريء ومجنون منه، أن يطرح الآن شيئًا

من هذا القبيل... ثم، وعلى الرغم من طبيعتها الميالة إلى التهكّم، ومن اعتقادها الراسخ بأنها غير مهتمّة بهذه الأمور، وبما أنه صار يفهم جيّدًا ما يريده، وبما أنه لاحظ أي وحش هي، فهي غير قادرة على رؤية سبب يمنعها من القول -من كل قلبها، وبخوف وامتنان غامرين- نعم، نعم، نعم.

يخبرنا هذا شيئًا عن المكانة النسبية للتحليل الدقيق في «عملية الزواج»، فإن مما يمكن اعتباره أمرًا «غير رومانسي» بل حتى أمرًا وضيعًا، أن يُطلب من رجل وامرأة مرتبطين أن يوضحا، بأي قدر من العمق، وبصبر وتبصّر ذاتي، ما قادهما إلى طلب الزواج، وإلى قبوله. على الرغم من هذا، نظلّ دائمًا تواقين -بطبيعة الحال- إلى السؤال عن عرض الزواج: كيف حدث، ومتى؟

لا يرى رابح أيّة وقاحة أو قلّة احترام في القول إنه لا يعرف حقًّا السبب الذي يجعله يطلب منها أن تتزوجه... «يعرف» بمعنى أن لديه مجموعة دوافع متماسكة ذات أساس منطقي مقنِع يستطيع أن يقدّمها إلى طرف ثالث فضولي أو متشكّك. إن لديه بدلًا من المنطق مشاعره، بل وفرة من تلك المشاعر: إحساسه بأنه لا يريد أن يتخلّى عنها أبدًا بسبب جبهتها العريضة الواضحة، ولأن شفتها العليا ناتئة قليلًا جدًّا فوق شفتها السفلى؛ إحساسه بأنه يحبّها بسبب مظهر الدهشة الطفيفة وسرعة البديهة الذي يوحي إليه بأن يدعوها «فأرته»، أو «خلده» (أيضًا لأن هيئتها غير التقليدية تلك تجعله يرى نفسه ذكيًّا لأنه يجدها جذّابة)؛ إحساسه بأن عليه أن يتزوّجها لما يظهرُ على وجهها من تركيز دقيق عندما تُعِدّ سمكة قدّ وفطيرة

سبانخ، ولما يراه فيها من حلاوة عندما تزرر معطفها الصوفي، ولما تبديه من ذكاء ماكر عندما تحلّل نفسيات أشخاص من معارفهما.

حقيقة الأمر أنه ما من تفكيرٍ جادٌّ يشكّل أساسًا ليقينه فيما يخصّ الزواج. لم يقرأ أبدًا أية كتب عن تلك المؤسّسة؛ ولم يمض خلال العقد المنصرم كلّه أكثر من عشر دقائق مع طفل رضيع؛ ولم يطرح أسئلة ساخرة على شخصين متزوجين؛ ولم يخُض في حديث على أي قدر من العمق مع شخصين مطلَّقين؛ ولعل من الممكن أن يحار في تفسير سبب فشل أكثر الزيجات باستثناء ما يفشل منها نتيجة حماقة أصحابها، أو فقر مخيلاتهم.

على امتداد الشطر الأكبر من التاريخ المسجّل، كان الناس يتزوّجون نتيجة أسباب منطقية متعدّدة: لأن لديها قطعة أرض مجاورة لأرضه، أو لأن عائلتها تدير تجارة حبوب مزدهرة، أو لأن أباها قاضي البلدة، أو لأن هناك قلعة ينبغي الحفاظ عليها، أو لأن أهله وأهلها من أتباع تفسير واحد للكتاب المقدس. ومن هذه الزيجات المنطقية، كان ينتج الشعور بالوحدة، والاغتصاب، والخيانة الزوجية، والضرب، وقسوة القلب، والصراخ الذي يُسمع من خلف أبواب مغلقة.

لم تكن الزيجات المنطقية -من أي منظور صادق- منطقية على الإطلاق؛ بل كثيرًا ما كانت زيجات نفعيّة وضيّقة الأفق ومدَّعية واستغلالية وتعسّفية. ولهذا، فإن ما حل محلها-زواج المشاعر- قد تخلّص إلى حدٍّ كبيرٍ من الحاجة إلى تبرير نفسه. ما يهم هو وجود شخصين

لديهما رغبة جامحة في حدوث الزواج، شخصين متجاذبين بفعل غريزة طاغية، عارفين في قرارة نفسيهما أن ذلك هو الشيء الصائب بالنسبة إليهما. الظاهر أن الزمن الحديث قد شبع واكتفى من تلك «الأسباب المنطقية» التي هي المادة الحافزة للبؤس، المادة التي يعتاش عليها المحاسبون. والواقع أن الزواج الذي يبدو أشد طيشًا (لعل واحدهما لم يعرف الآخر إلا منذ ستة أسابيع؛ ولعل أحدهما من غير عمل؛ أو لعل الاثنين لم يكادا يتجاوزان سن المراهقة) هو الزواج الذي قد ينتهي به الأمر لأن يكون أكثر أمانًا، لأن «تهوّره» الظاهر يكون ثقلًا ومعادلًا لكل ما يجود به من أغلاط ومآسي ما كان القدامى يدعونه «زواجًا عاقلًا». إن السحر الذي تتمتّع به الغريزة إرث باقٍ من ردة فعل جمعية مصدومة في مواجهة قرون طويلة من «المنطق» اللامنطقي.

يسألها أن تتزوجه لإحساسه بأن فعل ذلك خطير جدًّا: إذا فشل الزواج، فسوف يدمّر حياته وحياتها. إن تلك الأصوات التي تشير إلى أن الزواج ما عاد ضرورة، وإلى أن الاكتفاء بالمساكنة أكثر أمانًا، أصوات محقّة من وجهة نظر عملية... هذا ما يقرّ به رابح؛ لكنها أصوات غافلة عن السحر الوجداني الكامن في الخطر، في وضع المرء نفسه وحبيبه في تجربة يمكن -نتيجة بضعة اعوجاجات في مسار الحياة- أن تفضي إلى دمار الاثنين معًا. يعتبر رابح استعدادَه نفسَه لأن يصيبه الدمار باسم الحب برهانًا على التزامه. فأن يكون الزواج «لا ضرورة له» من وجهة نظر عملية أمر كافٍ لجعل الفكرة

أكثر إغراء من الوجهة العاطفية. قد يُعتبر كون المرء متزوجًا أمرًا ذا صلة بالحذر والمحافظة والميل إلى الجبن، لكن إقدامه على الزواج أمر مختلف جدًّا ومتهوّر جدًّا، وبالتالي فهو مشروع رومانسي أكثر جاذبية.

يبدو الزواج لرابح أشبه بنقطة الأوج في مسار جسور ماضٍ إلى حميمية كلية؛ فعرض الزواج يحمل ذلك الإغواء المتّقد، إغواء إغماض المرء عينيه والقفز من فوق جرف شديد الانحدار متمنّيًا أن يلتقطه الطرف الآخر، وواثقًا من أنه سيلتقطه.

يطرح عليها الزواج لأنه يودُّ أن يحفظ، أن «يجمّد»، ما يشعر به كل منهما تجاه الآخر. أمله معقود على أن يستطيع جعل هذا الإحساس الغامر أبديًا من خلال الإقدام على الزواج.

هناك ذكرى سيعود إليها مرات كثيرة عندما يستعيد الحماسة المتوهجة التي يود أن يظل متمسّكًا بها. هما في حانة على سطح بناية في شارع جورج. إنها ليلة السبت. هما في حلبة الرقص، سابحان في مدارات سريعة من أضواء صفراء وأرجوانية مع موسيقى هيب هوب تقطعها في كل فينة أصوات تردّد أناشيد ملاعب كرة القدم. كيرستن مرتدية شورتًا مخمليًا أسود اللون، وحذاء رياضيًا، وبلوزة سوداء من الشيفون. يتمنّى أن يلعق العرق عن صدغيها وهو يجعلها تدور بين ذراعيه. الموسيقى وروح الرفقة بين الراقصين وعدٌ بنهاية أبدية لكل ألم وانقسام.

يخرجان إلى تراس لا تنيره غير سلسلة شموع ضخمة موزعة على امتداد الدرابزين. إنها ليلة صافية: نزل الكون كله للقائهما. تشير له إلى مجرّة أندروميدا. تميل طائرةٌ في مسارها فوق قلعة

إدنبره، ثم تعتدل قبل بدء انحدارها صوب المطار. يشعر في تلك اللحظة شعورًا لا يشوبه أي شك في أن هذه هي المرأة التي يتمنّى أن يشيخ معها.

بطبيعة الحال، فإن في هذه المناسبة عددًا غير قليل من الجوانب التي لا يستطيع الزواج تمكينه من «تجميدها» أو من حفظها. صفاء الليل الشاسع المرصّع بالنجوم؛ وروح المتعة الحسّية السّخية في حانة ديونيزيان؛ وغياب المسؤولية؛ والأحد الكسول الذي ينتظرهما (سوف ينامان حتى منتصف النهار)؛ ومزاجها البهيج؛ وإحساسه بالعرفان. لن يتزوّج رابح إحساسًا -وبالتالي-، فهو لن يجمّده إلى الأبد. سوف يتزوج شخصًا أتاح له حظه الطيب مشاركته إحساسه في ظل مجموعة ظروف خاصة جدًا، ظروف متميزة يصعب استبقاؤها.

إن عرض الزواج، في جزء منه، ناتج عما يجري رابح إليه؛ لكنه ناتج أيضًا -ربما على نحو لا يقل عما سبق- عما يجري هاربًا منه. تناول مرة طعام العشاء مع شخصين متزوجين، قبل بضعة شهور من التقائه كيرستن. كانا صديقين قديمين من أيام دراسته الجامعية من مدينة سالامانكا. كان عشاء بهيجًا نشطًا تحدّثوا فيه عن الأنباء. وعندما خرج الثلاثة من ذلك المطعم في شارعٍ فيكتوريا، أصلحت مارثا ياقة معطف جوان الأصفر الداكن، ولفّت رقبته بشاله ذي اللون الخمري لفًّا متقنًا: حركةٌ فيها ذلك القدر كله من الرعاية الرقيقة الحانية كان لها أثرٌ كبير على رابح -كأنه لكمة في بطنه- جعله ينتبه فورًا كم كان قبلها وحيدًا في عالم غير مكترث بوجوده ومصيره.

أدرك أن حياته وحيدًا قد صارت غير محتملة أبدًا. لقد اكتفى من عودته سائرًا إلى البيت وحيدًا بعد انتهاء الحفلات الفوضوية؛ ومرت به أيام آحاد كثيرة من غير كلمة واحدة مع بشريّ آخر، وعطلات أمضاها مع أزواج مرهَقين لم يترك أطفالهم فيهم طاقة للكلام... اكتفى تمامًا من معرفته أنه لا يشغل أي حيّز مهم في قلب أحد.

يحب رابح كيرستن حبًّا عميقًا، لكنه يكره فكرة بقائه وحيدًا، يكرهها بقوة تكاد تكون مساوية لقوّة حبّه.

إن من الممكن -إلى حد يدعو إلى الإحساس بالخجل- تفسير سحر الزواج بردّه إلى شدّة بشاعة أن يكون المرء وحيدًا. ليست هذه غلطة الفرد بالضرورة. فالظاهر أن المجتمع ككلٍّ مصمِّم على جعل حالة العزوبية مرهقة ومثيرة للكآبة إلى أقصى حد ممكن: فبعد أن تنقضي أيام خلو البال، أيام المدرسة والجامعة، يصير العثور على الرفقة والدفء صعبًا إلى حد محزن؛ فالحياة الاجتماعية تبدأ بالدوران الجائر من حول ثنائيات المتزوجين؛ ولا يبقى لدى المرء أحد يتصل به أو يمضي الوقت معه. من هنا، لا يكاد يكون مفاجئًا أن نتعلّق بمن نجده حتى إن لم يحقّق إلا نصف المعايير التي ننشدها.

في سالف الأيام، عندما كان الناس غير قادرين (من الناحية النظرية) على ممارسة الجنس إلا بعد الزواج، كان الملاحظون الحكماء عارفين أن من الممكن وقوع البعض في إغراء الزواج لأسباب غير وجيهة حقًّا. وهذا

ما جعلهم يذهبون إلى القول بوجوب إلغاء الحظر المفروض على الجنس خارج الزواج بغية مساعدة الشباب في اتخاذ قرارات أكثر هدوءًا وتعقّلًا من غير أن تكون الغريزة دافعًا إلى اتخاذها.

لكن، إذا كان ذلك العائق بعينه أمام الأحكام السليمة قد أزيل، فالظاهر أن هناك جوعًا من نوع آخر قد حلّ محلّه. فقد تكون للتوق إلى الرفقة آثارٌ لا تقل قوّة وقلّة مسؤولية عما كانه الدافع الجنسي في يوم من الأيام. فأن يظل المرء وحيدًا اثنتين وخمسين عطلة نهاية أسبوع متواصلة أمرٌ يمكن أن يودي تمامًا بكل ما لديه من حصافة وتعقّل. فمن الممكن أن تحرّض الوحدة تعجّلًا مندفعًا ضارًا وقمعًا للشكوك ومشاعرَ وأفكارًا مختلطة ومتناقضة في ما يخصّ الزوج المحتمل أو الزوجة المحتملة. إن من الواجب تقرير مدى نجاح أية علاقة، لا بمدى سعادة شخصين بأن يكونا معًا، بل أيضًا بمقدار القلق الذي تسبّبه لكلٍّ منهما فكرة أن يكون من غير علاقة على الإطلاق.

يعرض عليها الزواج بتلك الثقة كلّها، وبذلك اليقين كلّه، لأنه يرى نفسه شخصًا مستقيمًا حقًّا يصلُح العيش معه -هذه أيضًا نتيجة ظرفية لكون المرء وحيدًا مدة طويلة جدًّا-. فحالة العزوبية ميّالة إلى أن تخلق لدى المرء صورة خاطئة مفادها أنه يعيش عيشة طبيعية. إن ميل رابح إلى الهوَس بالتنظيف والترتيب عندما يحسّ الفوضى في داخله، واعتياده استخدام العمل لكي يطرد به القلق من نفسه، والصعوبة التي يعانيها في التعبير عما في ذهنه عندما يكون

قلقًا، وحنقه عندما لا يستطيع العثور على قميصه المفضّل... هذه الشذوذات كلّها ظلّت في العتمة زمنًا طويلًا لأن ما من أحد معه حتى يراها، ناهيك عن عدم وجود أحد معه يسبّب الفوضى، أو يطالبه بالعودة لتناول طعام العشاء في البيت، أو يعلّق ساخرًا على عادة تنظيف جهاز التحكّم بالتلفزيون التي صارت لديه، أو يطلب منه توضيح ما يقلقه. ففي غياب الشهود، يمكنه أن يعيش في وهم لطيف مفاده أن من الممكن -في وجود الشخص المناسب- أن يكون العيش معه أمرًا ليست فيه أيّة صعوبة خاصّة.

لو كان للناس الذين عاشوا قبل بضعة قرون من زماننا أن ينظروا إلى سوية معرفة الذات التي يعتبرها عصرنا ضرورية حتى يتزوّج المرء، فلعلّهم يرون فيها مطلبًا محيّرًا، إن لم نقل شديد القسوة. عندها، يمكن أن يكون السؤال المعياري الذي ليس فيه أي ميل للحكم على الشخص الآخر (هذا سؤال يجوز طرحه منذ اللقاء الأول)، السؤال الذي يمكن أن يتوقّع أي شخص إجابة عنه تكون متسامحة ولطيفة وغير دفاعية، هو: إذًا، فمن أية نواحٍ أنت مجنون؟

تقول كيرستن لرابح إنها لم تكن سعيدة في مراهقتها، وإنها لم تكن تشعر بالقدرة على التواصل مع الآخرين، وإنها مرّت بمرحلة من إيذاء النفس. تقول له إن الشيء الوحيد الذي كان يمنحها إحساسًا بالارتياح هو أن تخمش ذراعيها حتى يسيل منهما الدم. يتأثر رابح لاعترافها، لكن الأمر يتجاوز ذلك الحدّ: إنه منجذب إلى كيرستن بسبب مشكلاتها. وهو يراها مرشّحة ملائمة للزواج

لأن لديه ريبة غريزية إزاء الأشخاص الذين تسير أمورهم دائمًا على ما يرام. يشعر بالعزلة والغرابة عندما يكون مع أشخاص مبتهجين ممن يحلو معشرهم. ينفر من السعداء الذين لا همّ لديهم نفورًا يكاد يكون انتقاميًا. لقد وصف بعض النساء اللواتي خرج معهن في الماضي أنهن «مضجرات»، في حين كان من الممكن لأي شخص غيره أن ينظر إليهن نظرة «كرم» و«دقّة»، فيقول إنهن «مرحات أو لطيفات». فلما كان يرى في الكرب سبيلًا رئيسيًا إلى النمو والعمق، فهو يريد لحزنه أن يعثر على صداه في شخصية الشريكة. من هنا، فلا مانع لديه -في البداية- أن تكون كيرستن منكمشة أحيانًا، وأن يكون فهمها صعبًا، وكذلك أن تبدو متحفّظة متّخذة وضعًا دفاعيًا متشدّدًا بعد مشاجرة أو مجادلة بينهما. تكون لديه رغبة مرتبكة في مساعدتها، لكن من غير فهم أن المساعدة يمكن أن تكون منحة يصعب تقديمها إلى من يكون في أمسّ الحاجة إليها. إنه يفسّر الجوانب المتضرّرة فيها بطريقة شديدة الوضوح والشاعرية: يرى فيها فرصة لأن يلعب دورًا مفيدًا.

نظن أننا نلتمّس السعادة في الحبّ، لكن الألفة هي ما نسعى إليه في حقيقة الأمر. نتمنى أن نعيد -ضمن علاقاتنا بعد أن نكبر- خلق المشاعر نفسها التي عرفناها أحسن معرفة في طفولتنا، تلك المشاعر التي نادرًا ما كانت محدودة بالرقة والرعاية فقط. يأتينا الحب الذي ذاقه أكثرنا في مرحلة مبكرة من الحياة مقرونًا بديناميات أخرى أكثر أذًى: الإحساس بالغربة عند مساعدة شخص بالغ فقد رشده، أو الإحساس بالحرمان من دفء

الوالدين، أو من دفء أحدهما، أو الذعر من غضبه أو غضبها، أو الإحساس بعدم الأمان الكافي للتعبير عن أكثر رغائبنا تعقيدًا.

فكم هو منطقي إذًا أن نجد أنفسنا -بعد أن نصير كبارًا ناضجين- نرفض بعض المرشّحين لا لأنهم «غير مناسبين»، بل لأنهم «ملائمون» أكثر مما ينبغي -بمعنى أنهم يبدو عليهم قدر زائد من التوازن والنضج والفهم والجدارة بالثقة- وذلك لأن قلوبنا تشعر بأن هذه «الملاءمة»غريبة عنا، وبأننا لا نكاد نستحقّها. نجري خلف آخرين، خلف أشخاص أكثر إثارة لنا، لا لاعتقادنا بأن الحياة ستكون أكثر انسجامًا معهم، بل انطلاقًا من إحساس لا واعٍ بأن تلك الحياة ستكون مألوفة على نحو مُطَمْئِن من حيث نوع خيبات الأمل التي ستكون فيها.

يسألها الزواج منه حتى يكسر القبضة المرهِقة لفكرة العلاقات، تلك القبضة التي ظلت زمنًا طويلًا مُطبقة على روحه. لقد استنفدته سبع عشرة سنة من الميلودراما والإثارة التي لم تفضِ إلى شيء. هو الآن في الثانية والثلاثين؛ وهو توّاق إلى تحدّيات أخرى. ليس أمرًا ساخرًا ولا قاسيًا أن يكون لدى رابح أملٌ في أن يفلح الزواج أخيرًا في تحرير حياته من هيمنة الحب التي هي (على الرغم من حبه الكبير لكيرستن) هيمنة أكثرُها مؤلم.

وأما عن كيرستن فيكفي القول (لأن أكثر ترحالنا سيكون في عقله) إن علينا ألا نقلّل من شأن الجاذبية التي قد تجدها امرأة تشك شكًا مؤلمًا في أمور كثيرة ليس أقلّها شكّها في نفسها في عرضٍ

زواج يقدّمه شخص ظاهرُه لطيف جذاب، شخصٌ يبدو مقتنعًا قناعة راسخة لا عودة عنها بأن هذه المرأة مناسبة لأن تشاركه حياته.

يزوّجهما موظف في صالة وردية في مكتب سجلات إنفرنِس في صباح يوم ماطر من أيام شهر تشرين الثاني في حضور أمها وأبيه وزوجة أبيه وثمانية من الأصدقاء. يتلوان مجموعة عهود الزواج التي تقدمها إليهما حكومة اسكوتلندا، فيعد كل منهما الآخر بأن يحبه ويرعاه، وبأن يكون صبورًا معه ورفيقًا به: سوف يثق كل منهما بالآخر ويسامحه، وسيبقيان صديقين حميمين ورفيقين مخلصين إلى أن يفرق الموت بينهما.

لا رغبة لدى الحكومة في القيام بدور الواعظ أو الموجِّه (أو لعلها غير واثقة من كيفية فعل ذلك)، فهي لا تقدّم أية مقترحات أخرى في شأن السُّبل التي قد تجعل تحقيق هذه الوعود ممكنًا، لكنها تقدم للزوجين معلومات عن التخفيضات الضريبية المتاحة لمن ينفّذون أعمال العزل الحراري لبيتهم الأول.

وبعد انتهاء مراسم الزواج، يذهب المحتفلون إلى مطعم قريب لتناول الغداء، ثم ينزل العريس والعروس في وقت متأخّر من ذلك المساء في فندق باريسي صغير قريب من سان جيرمان.

الزواج: مقامرة سخيّة، كلّها أمل. هو مغامرة لطيفة لطفًا لا حدّ له يُقدِم عليها شخصان لا يعرفان بعدُ مَن يكونان، أو لا يعرف الواحد منهما بعدُ مَن يكون، أو لا يعرف بعدُ من قد يكونَه الشخص الآخر، فيربطان نفسيهما بمستقبلٍ لا يستطيعان فهمه، بمستقبلٍ حَرصا كل الحرص على تفادي تحرّيه.

طيلة العمـر

أمور سخيفة

في مدينة الحبّ، باريس، تذهب الزوجة الاسكوتلندية وزوجها الشرق أوسطي لزيارة الموتى في مقبرة دير لاشيز. يفتشان من غير طائل عن عظام جان دو برونهوف، ثم ينتهي بهما المطاف إلى تناول سندويتش كروك مسيو فوق قبر إديث بياف. يعودان إلى غرفتهما فينزعان ما تسميه كيرستن «مفرش السرير الملوّث بالمني»، ويفردان على الفراش منشفة، ثم يأكلان من طبقين من الورق المقوّى (باستخدام شوكتين بلاستيكيتين) سرطان البحر المتبّل الآتي من مقاطعة بريتاني الذي ناداهما من واجهة متجر لبيع المأكولات في شارع شيرش ميدي.

مقابل فندقهما، هناك متجر مبهرج لملابس الأطفال يبيع أوفرولات وسترات صوف باهظة الأثمان. وبينما يكون رابح مستلقيًا في حوض الاستحمام بعد ظهر ذات يوم، تعود كيرستن إلى الغرفة حاملة «دوبي»: وحش صغير ذو فراء له قرن واحد وثلاث عيون غير متناسبة (على نحو مقصود). بعد ست سنين، سيصير دوبي أحب لعبة إلى قلب ابنتهما.

وعند عودتهما إلى اسكوتلندا يشرعان في البحث عن شقّة للعيش فيها. يقول رابح مازحًا إنه تزوج امرأة ثرية؛ وهذا غير صحيح إلا عند مقارنة وضعها بحالته المالية. إنها مالكة لشقّتها الصغيرة التي كانت تعيش فيها؛ ولديها خبرة عمل أكثر منه بأربع

سنين. ثم إنها لم تمضِ ثمانية شهور عاطلة عن العمل مثلما جرى له. تقول (بطريقة لطيفة) إن لديه مالًا كافيًا لأن يدفع ما يعادل الملابس اللازمة لعريس. يجدان شقّة تعجبهما في الطابق الأول من بناية في جادة مرتشستون. البائعة أرملة هشة البنية تقدّمت بها السن. لقد فقدت زوجها منذ سنة، ويعيش ولداها الآن في كندا. صحّتها ليست على ما يرام. صورُ الأسرة عندما كان الولدان صغيرين مصْفُوفةٌ على رفوف بنيّة داكنة يبدأ رابح على الفور التساؤل عما إذا كان مكانها كافيًا من أجل جهاز التلفزيون. سوف يزيل ورق الجدران أيضًا؛ وسوف يطلي خزائن المطبخ ذات اللون البرتقالي الفاقع بلون أكثر وقارًا.

تقول السيدة العجوز: «أنتما تذكرانني قليلًا بإيرني وبنفسي عندما كنا في شبابنا». تجيبها كيرستن بالقول: «السلام لروحه»، وتحيطها بذراعها لحظة وجيزة. لقد كانت صاحبة الشقة قاضية؛ لكن في عمودها الفقري الآن ورم متنام غير قابل للجراحة؛ وسوف تنتقل للعيش في مأوى في الناحية الأُخرى من المدينة. يتفقون على سعر معقول. لا تقسو البائعة كثيرًا على الزوجين الشابين. وفي يوم توقيع عقد بيع الشقة، تدخل كيرستن غرفة النوم لكي تأخذ قياساتها، لكن السيدة العجوز تستوقف العريس لحظة ممسكة إياه بيد قوية إلى حدٍّ واضحٍ على الرغم من بروز عظامها. تقول له: «كن طيبًا معها، من فضلك. كن طيبًا حتى إذا رأيت أحيانًا أنها مخطئة». يسمعان بعد سنة من ذلك أنها ماتت.

يصلان إلى النقطة التي يمكن أن تبلغ عندها قصتهما -البسيطة دائمًا- نهايتها إن اتخذت الأمور مسارها الطبيعي. صار التحدّي

الرومانسي خلفهما. وسوف تتخذ الحياة، اعتبارًا من الآن، إيقاعًا متكرِّرًا ثابتًا إلى حدٍّ يجعل من الصعب عليهما، في حالات كثيرة، أن يحدِّدا زمن حادثة بعينها. وسوف تبدو السنون شديدة التشابه في ظاهرها. لكن قصتهما لا تزال بعيدة عن نهايتها: من الآن فصاعدًا، ليست المسألة أكثر من الوقوف زمنًا أطول في تيار الحياة الجاري، واستخدام شبكة ذات فتحات أصغر من أجل التقاط ما يكون مثيرًا للاهتمام.

وفي صبيحة يوم من أيام السبت، بعد مضي أسابيع معدودة على انتقالهما إلى الشّقة الجديدة، يذهب رابح وكيرستن بالسيارة إلى متجر أيكيا عند أطراف المدينة لكي يشتريا كؤوسًا. تشغل تشكيلة الكؤوس في المتجر ممرين اثنين، وتشتمل على أنواع وأشكال كثيرة. عندما كانا في متجر جديد قريب من شارع كوين في عطلة نهاية الأسبوع الماضية، عثرا سريعًا على مصباح أعجبهما كليهما. كانت له قاعدة خشبية وظلّة من البورسلان. لا بد أن مهمتهما اليوم ستكون سهلة.

بعد وقت قصير من دخولهما قسم المستلزمات المنزلية الذي يشبه كهفًا، تقرر كيرستن أن عليهما أن يشتريا مجموعة من صنع فابلوس -كؤوس صغيرة مستدقة عند القاعدة على حوافها نقط زرقاء وأرجوانية-، ثم يعودان مباشرة إلى البيت. إن سرعتها في اتخاذ القرار واحدة من خصالها التي تثير إعجاب زوجها. وأما بالنسبة إلى رابح، فسرعان ما صار واضحًا أن تلك الكؤوس الأكبر حجمًا (كؤوس من صنع بوبيس) وغير المائلة وغير المزينة هي وحدها ما يصلح حقًّا لطاولة المطبخ في بيتهما.

الرومانسية فلسفة اتفاق حدسي. فلا حاجة في الحب إلى تجشُّمِ مشقة قول كل شيء بطريقة واضحة. عندما يكون الشخصان في حالة وحدة، يرجع الأمر كلّه ببساطة -في آخر المطاف- إلى الإحساس العجيب المتبادل بأن كل واحد منهما يرى العالم بالطريقة نفسها تمامًا.

تقول كيرستن التي تعرف كيف تكون حازمة عندما يتطلّب الأمر كذلك: «سوف تعجبك هذه الكؤوس كثيرًا عندما نأخذها إلى البيت ونخرجها من أغلفتها ونضعها إلى جوار الأطباق. أعدُك بهذا. إنها ألطف شكلًا». ليست تلك الكؤوس البسيطة ذات المظهر غير المزيَّن إلا شيئًا يذكّرها بالسجون وبكافتيريات المدارس.

يجيبها رابح الذي لا يعجبه أي شيء بُولِغَ في تزيينه: «أفهم ما تريدين قوله؛ لكني لا أستطيع منع نفسي من رؤية أن هذه الكؤوس ستبدو أكثر نظافة».

تقول كيرستن بعد أنزلت كمَّي كنزتها حتى غطيا يديها: «حسنًا، لا نستطيع الوقوف هنا ومناقشة الأمر طيلة النهار».

يقول رابح موافقًا: «بالتأكيد، لا نستطيع».

«إذًا، فلنأخذ كؤوس فابلوس ودعنا ننتهي من هذا الأمر». تقول هذا بنبرة حادّة، عنيفة.

«يبدو لي جنونًا أن نظل مختلفين، لكني أرى فعلًا أن هذه الكؤوس ستكون أشبه بكارثة».

«المسألة هي أن... لديَّ هذا الإحساس الداخلي».

يجيبها رابح: «وأنا كذلك».

يعرف كل منهما، بالتساوي، أن بقاءهما واقفين في ممر متجر

آيكيا يتجادلان مطولًا في أمر قليل الأهمية إلى هذا الحد، في نوع الكؤوس التي يستحسن شراؤها، ليس إلا مضيعة حقيقية للوقت (فالحياة قصيرة جدًّا، ومتطلّباتها كبيرة جدًا). لكنهما يظلان واقفين في متجر آيكيا، ويتجادلان مطوَّلًا في نوع الكؤوس التي سيشتريانها، وذلك بمزاج لا ينفكّ يزداد سوءًا، ومع استقطاب قدر متزايد من انتباه بقية المشترين من حولهما. ثم يتخلّيان عن أي أمل في إمكانية الاتفاق على شراء الكؤوس، ويخرجان بعد عشرين دقيقة عائدين إلى موقف السيارات وكل منهما يتهم الآخر بأنه كان غبيًا بعض الشيء. تقول كيرستن في طريقهما إلى السيارة إنها تعتزم قضاء بقية عمرها وهي تشرب الماء من كفها. وطيلة طريق العودة إلى البيت، ينظر كل منهما إلى الخارج عبر زجاج السيارة من غير أن يقول شيئًا، ولا يقطع ذلك الصمت إلا التكتكات العارضة الصادرة عند تشغيل أضواء الإشارة في المنعطفات. وأما دوبي الذي اعتاد مرافقتهما، فهو جالس في المقعد الخلفي مذعورًا.

إنهما شخصان جادّان. تعمل كيرستن الآن على إعداد عرض تقديمي عنوانه «طرائق تنفيذ التعاقد على المشتريات في قطاع الخدمات المحلية»؛ وسوف تسافر الشهر القادم إلى دوندي لإلقاء العرض أمام جمهور مكوّن من موظفين حكوميين. وأما رابح فهو يؤلف أطروحة في «الاستخدامات المعمارية للمكان في أعمال كريستوفر ألكساندر». على الرغم من هذا، فإن تلك الكمية المفاجئة من «الأمور السخيفة» لا تنفك تطرأ بينهما. فما هي درجة الحرارة المثالية في غرفة النوم، على سبيل المثال؟ كيرستن مقتنعة بأنها في حاجة إلى كثير من الهواء النقي في الليل حتى يظل ذهنها

صاحيًا وطاقتها وافرة عندما تنهض في اليوم التالي. وهي تفضّل أن يكون في جو الغرفة شيء من البرودة (يمكنها في حال الضرورة أن ترتدي كنزة إضافية أو بيجاما دافئة) بدلًا من أن يكون الهواء خانقًا وملوَّثًا. ينبغي أن تظل النافذة مفتوحة. إلا أن أيام الشتاء كانت مُرّةً في طفولة رابح في بيروت؛ وكان الناس يتعاملون بجدية كبيرة مع هبّات الريح العنيفة (كانت لدى أسرته آراء متشدّدة في ما يخص تيارات الهواء، حتى في زمن الحرب). على نحو ما، يشعر بقدر أكبر من الأمان، ومن الدفء والرفاهية، عندما تكون مصاريع النوافذ الخارجية مغلقة والستائر مسدلة، وعندما يتكثّف بخار الماء على الزجاج من الداخل.

أو... فلننظر في نقطة اختلاف أخرى: في أي وقت ينبغي أن يخرجا من البيت للذهاب إلى تناول العشاء معًا (دعوة خاصة) في ليلة يوم من أيام الأسبوع؟ ترى كيرستن أن الحجز ينبغي أن يكون في الساعة الثامنة. مطعم أوريغانو واقع على مسافة ثلاثة أميال تقريبًا؛ وعادة ما تستغرق الرحلة زمنًا قصيرًا. لكن، ماذا لو كان هناك زحام في الدوّار الرئيسي مثلما حدث آخر مرة (عندما كانا ذاهبين لرؤية جيمس وميري)؟ وعلى أية حال، لا مشكلة أبدًا في وصولهما إلى المطعم في وقت مبكر قليلًا. يستطيعان تناول كأس في البار المجاور، بل حتى يستطيعان أن يتمشيا قليلًا في الحديقة. لديهما الكثير مما يتكلمان فيه. سيكون من الأفضل أن يطلبا وصول سيارة التاكسي إلى بيتهما في الساعة السابعة. وأما وجهة نظر رابح فهي: إذا كان حجزنا في الساعة الثامنة، فهذا يعني أننا نستطيع أن نصل إلى المطعم في الثامنة وخمس عشرة دقيقة، أو حتى في الثامنة

وعشرين دقيقة. لديَّ خمسة إيميلات طويلة لا بد لي من الفراغ منها قبل الخروج من المكتب. لا أستطيع أن أكون ودودًا ولا حميمًا إن كانت في ذهني أمور متعلّقة بالعمل. ثم إن الطرق تكون خالية في ذلك الوقت. وسيارات التاكسي تصل مبكرة على الدوام. ينبغي أن نطلب وصول السيارة في الساعة الثامنة.

أو، من جديد... ما هي أفضل طريقة لأن يحكي المرء قصة في... فلنقل، في حفلة فخمة في «متحف اسكوتلندا» يدعوهما إليها واحد من عملاء الشركة يريد رابح إثارة انطباع حسن لديه؟ يرى رابح أن هناك قواعد واضحة لهذا الأمر: التأكّد أولًا من مكان إقامة الحفلة؛ ثم تقديم المشاركين الرئيسيين ورسم صورة ما لديهم من مشكلات ثم الوصول إلى نهاية الحديث من خلال عبارات مباشرة محكمة (وبعد ذلك، يكون من باب التهذيب أن يعطي أحدًا آخر فرصة الكلام... أحسن شيء أن يعطي الكلام للمدير التنفيذي الذي ينتظر صابرًا). لكن كيرستن تُصرّ، خلافًا لما يراه، على أن من الأكثر إثارة لاهتمام المجتمعين أن يبدأ المرء القصة من منتصفها إلى آخرها قبل أن يعود أدراجه إلى بدايتها. هذا لأنها تشعر بأن ذلك الأسلوب في الكلام يجعل المجتمعين أكثر انتباهًا إلى ما هو مهم حقًا.

إن التفاصيل تضفي نكهة محلية. ولا يرغب الجميع في الوصول إلى نتيجة الكلام سريعًا، تمامًا مثلما لا يرغب الصياد عادة في الفوز بالطريدة من غير عناء! وأيضًا، إذا بدا أن النكتة الأولى كان لها وقع حسن، فلماذا لا يلقي المرء نكتة ثانية؟ وعندما يُطلب ممن يستمعون إلى كلامهما (وهما واقفين إلى جانب الهيكل العظمي

لديناصور عملاق عُثر على عظامه في مقلع قريب من غلاسغو أواخر القرن التاسع عشر) أن يُعبّروا عن آرائهم، فمن المحتمل كثيرًا ألّا تظهر لديهم أية اعتراضات كبيرة على أي من الأسلوبين المقترحَين: من الممكن أن يكون لكل منهما أسلوبٌ حسنٌ. سوف يؤكّدون لهما أن من الممكن أن يكون كلٌ من الأسلوبين حسنًا. لكنّ كلًا منهما يعيد تلخيص وجهة نظره بطريقة نزقة وهما متجهان إلى غرفة إيداع المعاطف، ويتخذ التباعد بين الرأيَيْن وجهة أكثر شخصية وحرجًا: يتساءل كل منهما في نفسه إن كان الآخر قادرًا أصلًا على فهم أي شيء -العالم، ونفسه، وشريكه- إن كان تفكيره عشوائيًا دائمًا، أو يتساءل عن سبب اتخاذ وجهة نظر مختلفة إلى هذا الحد؟ لماذا يكون متحجِّرًا هكذا؟ لكن الأمر الذي يساهم حقًا في زيادة التوتّر هو تلك الفكرة الجديدة التي تطلُّ برأسها كلما ظهر خلاف بينهما: كيف يمكن احتمال هذا طيلة العـ ؟

إنّا نتقبّل التعقيد في القسم الأكبر من المجالات المهمة في حياتنا ونترك حيّزًا للاختلاف ولحلّه الذي لا بد له من صبر: في مسائل التجارة الدولية، والهجرة، وعلوم الطب... وأما عندما يكون الأمر متّصلًا بالوجود البيتي، فإننا نكون أكثر ميلًا إلى افتراض خطير مفاده أن الأمر سهل، أو أنه واضح؛ وهذا ما يثير فينا بدوره إحساسًا شديدًا بالنفور إزاء «المفاوضات» التي تمتد زمنًا طويلًا. نرى أمرًا عجيبًا حقًا في أن نجد أنفسنا مضطرين إلى تخصيص اجتماع قمة يستمر يومين كاملين لبحث ترتيب الحمّام. وبالتأكيد، نرى قدرًا كبيرًا من السخف

في فكرة الاستعانة بوسيط متخصّص لمساعدتنا في تحديد التوقيت الصحيح لخروجنا من البيت عندما نقرّر الذهاب لتناول طعام العشاء في الخارج.

«لقد تزوجت امرأة مجنونة». يفكر في هذا وهو مذعور ومشفق على نفسه معًا بينما تسير بهما سيارة التاكسي مسرعة عبر الشوارع الخالية في الضواحي. شريكته التي لا تقلّ عنه غيظًا جالسة بعيدًا عنه إلى أقصى حد ممكن في المقعد الخلفي لسيارة التاكسي. لا مكان في مخيلة رابح لهذا النوع من الخلاف العائلي الذي هما فيه الآن. إنه مستعد تمامًا -من الناحية النظرية- لاختلاف وجهات النظر، ولمحاولة الوصول إلى حلول وسط؛ لكن ليس في أشياء غبية من هذا القبيل! لم يقرأ ولم يسمع أبدًا عن مشاجرات تبلغ هذا الحدِّ من السوء من أجل تفاصيل تافهة هكذا. يعرف أن من المحتمل ألا تظل كيرستن بعيدة عنه ومتجبّرة عليه هكذا إلى ما بعد تقديم الطبق الثاني على العشاء؛ لكن هذه المعرفة لا تفعل شيئًا غير أن تزيد ثورته. ينظر إلى سائق السيارة الهادئ -إنه أفغاني بالنظر إلى العلم البلاستيكي الصغير الملصق عند لوحة العدادات-. ما الذي يمكن أن يراه السائق في هذه الخصومة بين شخصين لا يعانيان جوعًا ولا تصفيات متبادلة بين القبائل؟ يرى رابح نفسه رجلًا بالغ اللطف، لكنه لم يحظَ -ويا للأسف- بذلك النوع من المشكلات الذي يكون ملائمًا لإظهار مدى لطفه. يجد الآن أن تبرّعه بالدم من أجل طفل جريح في بادخشان، أو حمله الماء إلى أسرة ظامئة في قندهار، أكثر سهولة من الالتفات إلى زوجته والقول لها إنه آسف.

لا تتمتّع المشكلات البيتية كلّها بالقدر نفسه من

«الاحترام». فمن الممكن أن يبدو المرء شخصًا على قدر كبير من الحماقة لأنه يرى مشكلة كبيرة في الصوت المرتفع الصادر عن الشخص الآخر وهو يتناول حبوب الإفطار، أو في خلافهما على مدة الاحتفاظ بالمجلات القديمة. وليس بالأمر الصعب أن نجعل شخصًا يشعر بالخجل من نفسه لتمسّكه بأسلوب محدّد لكيفية ترتيب آلة غسل الأطباق، أو لإعادة الزبدة إلى البراد بسرعة بعد استخدامها. عندما تكون التوترات التي تزعجنا خالية من أي سحر فنصير تحت رحمة من قد يكون راغبًا في اعتبار ما يشغل بالنا أمرًا غريبًا أو تافهًا. وقد ينتهي بنا الأمر إلى شعور بالإحباط، لكننا نظل في ريبة من وجاهة إحباطاتنا فلا تكون لدينا الثقة الكافية للحديث عنها بهدوء مع الشريك المتشكّك أو نافد الصبر.

في حقيقة الأمر، نادرًا ما تُجرى مشاحنات من أجل «لا شيء» في زواج رابح وكيرستن. فتلك الأمور الصغيرة هي -في حقيقتها- أمور كبيرة لم تحظ بالاهتمام اللازم. وليست خلافاتهما اليومية إلا الخيوط السائبة التي تعلق بنتوءات نقاط التضاد الأساسية بين شخصيتَيْهما.

لو كان رابح أكثر انتباهًا إلى التزاماته وخيبات أمله (في ما يتّصل بمسألة درجة حرارة الهواء في غرفة النوم)، لقال لها من تحت اللحاف: «عندما تقولين إنك تريدين ترك النافذة مفتوحة في وسط الشتاء، فإن هذا يخيفني ويقلقني -من الناحية النفسية، لا الجسدية-. يبدو لي هذا كأنه يحدّثني عن مستقبل يُداس فيه بالأقدام

على أشياء ثمينة. وهو يذكّرني بأن فيكِ ذلك الميل الرواقي السادي وتلك الجرأة المبتهجة، يذكّرني بأن فيك هذين الأمرين اللذين أهرب منهما دائمًا. كما أشعر بالخشية، في اللاوعي، من أنك لست شديدة الاهتمام بالهواء النقي في حقيقة الأمر، بل راغبة في دفعي من النافذة بطريقتك المفاجئة، العاقلة، المخيفة، وإن تكن ساحرة».

وعندما تكون كيرستن مهتمة -بالمثل- بتوضيح موقفها من دقته المفرطة، فمن الممكن أن تلقي خطبة مؤثرة على «رابح» وعلى السائق الأفغاني. «إصراري على الخروج في وقت مبكر إلى هذا الحدِّ ليس، في نهاية الأمر، إلا عرَضًا من أعراض الخوف. ففي عالم كلّه عشوائية ومفاجآت، نشأ عندي هذا الأسلوب لحماية نفسي من القلق ومن إحساس بشع بالذعر. أحب أن أصل في الموعد المحدّد حتى لا يصيبني القلق، تمامًا مثلما يشتهي غيري السلطة لا لأنه يريدها بل لأنه شخص يبحث عن الأمان. إن هذا له بعض المعنى -شيء من المعنى فقط- في ضوء حقيقة أنني أمضيت طفولتي منتظرة أبًا لم يأتِ أبدًا. إنها طريقتي الخاصة المجنونة في محاولة المحافظة على عقلي».

مع حاجات كل منهما معبّرًا عنها بهذه الطريقة، ومع تفهّم كل منهما لمنابع ما يراه الآخر، يمكن أن ينشأ بينهما نوع جديد من التفاهم. فقد يقترح رابح ألا يكون الانطلاق إلى مطعم أوريغانو متأخّرًا كثيرًا عن الساعة السابعة وثلاثين دقيقة. في حين يمكن أن تعثر كيرستن على طريقة مناسبة لحماية غرفة نومهما من تيارات الهواء التي يخشاها رابح.

تظهر المرارة حيث يغيب الصبر الذي لا بد منه

للتفاوض: يظهر الغضب الذي نُسي من أين جاء. هناك شخص ملحاح نكِد يريد الاستجابة إليه الآن من غير أن يحفل بتفسير السبب. وهناك شخص يتلقّى ذلك النكد لكنه لم يعد لديه جَلَد على شرح وتوضيح أن ممانعته -أو ممانعتها- مستندة إلى حجج مضادة لها منطقها أيضًا، أو ناتجة عن خلل في الطّبع يستحقّ الشفقة، بل يستحق الصفح أيضًا.

يأمل كلٌّ من الجانبين أن تختفي من تلقاء ذاتها تلك المشكلات التي صارت مملّة لكل منهما.

ثم يحدث -في خضم مشكلة أخرى متعلّقة بالنافذة، أو بدرجة حرارة الهواء- فتتصل كيرستن بحنّة، صديقتها التي تعيش في بولندا مع شريكها، وتسأل كيف هو «الأمر». تعني بهذا الزواج الذي صار عمره الآن سنة كاملة.

يرتدي زوج كيرستن معطفًا وقبعة صوف زيادة في إظهار مدى معارضته مطالب زوجته بالهواء النقي. وهو الآن جالس في زاوية الغرفة مشفقًا على نفسه بطريقة طفولية، وملتفًّا بلحاف. لقد قالت له قبل قليل -وهذه ليست المرة الأولى- إنه شخص ضعيف مفرط الحساسيّة.

تجيب كيرستن صديقتها: «إنه على أحسن ما يرام».

مهما يكن إظهار الانفتاح في ما يتصل بالحديث عن العلاقات أمرًا «على الموضة»، فإن من المخجل قليلًا اعتراف المرء بأن من الممكن أن يكون قد تسرَّع وتزوّج من شخص غير مناسب له على الرغم من وفرة فرص الاختبار والتفكير.

«إنني هنا مع رابح نمضي ليلة هادئة في البيت ونقرأ قليلًا».

ما من صورة واضحة في ذهن رابح، ولا في ذهن كيرستن، عن حقيقة الوضع بينهما. تشتمل حياتهما على تقلّبات مزاج مستمرة. ففي عطلة نهاية أسبوع واحدة، من الممكن أن ينتقلا من التباعد إلى الإعجاب، ومن الرغبة إلى الضجر، ومن اللامبالاة إلى الهيام حبًّا، ومن سرعة الانزعاج إلى الرقّة. فإذا أوقف أحدهما تلك الدورة في لحظة من اللحظات حتى يُعبّر أمام طرف ثالث عن حكم صريح إزاء ما يجري، فقد يخاطر بأن يظل إلى الأبد مسؤولًا عن اعتراف قد يتضح -عند النظر إليه في وقت لاحق- أنه لم يكن أكثر من حالة ذهنية مؤقتة، أو من رأي متشائم يلتمس «رأيًا مرجعيًا» لا يقدر عليه من هو أسعد حالًا منه.

طالما بقي رابح وكيرستن مطمئنين إلى عدم وجود شهود على المعارك الدائرة بينهما، فإن لهما الحرية في تجاهل الحاجة إلى تقرير مدى حسن سير الأمور بينهما أو مدى سوئها.

تظل العلاقة العادية التي تطرح تحديات كبيرة على طرفيها موضوعًا مهمَلًا إهمالًا غريبًا غير باعث على الأمل. فعادة ما تكون الحالات الحَدّية هي ما يخطف الأضواء -الشراكة الهانئة بالكامل، أو الكوارث- وهكذا يكون صعبًا علينا معرفة ما ينبغي لنا استنتاجه (أو مقدار ما ينبغي أن نشعر به من بعدٍ إزاء هذا الأمر) من أشياء من قبيل ثورات الغضب غير الناضجة، والوعيد بالطلاق في آخر الليل، والصمت المتجهِّم، وصفق الأبواب، وحالات كثيرة يومية من سلوك طائش أو فظ.

في الأحوال المثالية، يمنحنا الفن إجابات لا يمنحنا إياها بقية البشر. وقد يكون هذا الأمر واحدة من الغايات الرئيسية للأدب: أن يكون لدينا ما يُفصِحُ عما يعتبره المجتمع عامةً أمورًا لا يصحّ الخوض فيها. ينبغي أن تكون الكتب المهمّة هي الكتب التي تتركنا متسائلين -بشعور نصفه ارتياح ونصفه امتنان- كيف يمكن أن يكون الكاتب قد عرف هذا القدر كلّه عن حياتنا.

لكن، كثيرًا ما ينتهي الأمر بأن يضعف الإحساس الواقعي بماهية العلاقة التي يمكن احتمالها، وذلك بفعل الصمت... سواءٌ كان صمتًا مجتمعيًا أو صمتًا فنّيًا. هذا ما يجعلنا نتخيل أن الأمور، بالنسبة إلينا، أسوأ كثيرًا مما هي بالنسبة إلى بقية المتزوجين. فنحن لسنا غير سعداء فحسب، بل إننا نسيء أيضًا فهم مقدار ما قد يكون من غرابة وندرة في هذا الشكل الخاص الذي لدينا من انعدام السعادة. ينتهي بنا الأمر إلى الاقتناع بأن الصعوبات التي نعانيها مؤشراتٌ على أننا ارتكبنا غلطة أساسية غير مألوفة، وذلك بدلًا من اعتبارها دليلًا على أن زيجاتنا تسير -من حيث الأساس- وفق الخطة تمامًا.

إلا أن هناك ترياقَيْن موثوقين يُنجّيان رابحًا وكيرستن من دوام الإحساس بالمرارة. الترياق الأول هو الذاكرة الضعيفة. فبعد أن تبلغ الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الخميس، يصير صعبًا أن يتذكّر المرء موضوع الغضب الشديد في سيارة التاكسي في الليلة السابقة. يعرف رابح أن الأمر كانت له صلة بالازدراء الطفيف الذي أحسّه في

نبرة صوت كيرستن، وكذلك في طريقتها الوقحة الجاحدة في الرد على ما قاله عن اضطراره إلى الخروج من المكتب في وقت مبكر من غير سبب وجيه. إلا أن التفاصيل الدقيقة لإحساسه بالإساءة قد فقدت وضوحها الآن... فقدته بفضل ضياء الشمس الذي تخلّل الستائر في الساعة السادسة صباحًا، وبفضل ثرثرة الراديو عن منتجعات التزلج على الثلج، وكثرة الرسائل في صندوق البريد الوارد، والنكات التي تبادلاها على الغداء، والاستعداد للمؤتمر، والاجتماع الذي يمتد ساعتين لبحث تصميم موقع الإنترنت... كان لهذا كلّه أثر في إصلاح الأمور بينهما لعله ليس بأقل من الأثر الذي كان يمكن أن يتركه حوار مباشر ناضج.

وأما الترياق الثاني، فهو من طبيعة أكثر تجريدًا: قد يكون صعبًا أن يظلَّ المرء غاضبًا زمنًا طويلًا جدًّا عندما يرى مدى اتساع الكون من حوله. فبعد ساعات معدودة من حادثة آيكيا، وقت العصر تقريبًا، ينطلق رابح وكيرستن في نزهة على الأقدام خططا لها منذ فترة، فيسيران عبر تلال لامرموير الواقعة جنوب شرقي إدنبره. يبدآن السير صامتين، متجهِّمَين؛ إلا أن جمال الطبيعة من حولهما يُحرِّرهما، شيئًا فشيئًا، من وطأة حنقهما المتبادلة... تُحررهما تلك الطبيعة، لا من خلال تعاطفها معهما، بل من خلال لا مبالاتها الهائلة. تلالٌ ممتدة من غير انقطاع حتى تغيب في البعيد. تلالٌ شكّلها انضغاط الصخور الرسوبية في الحقبتين الأوردوفيكية والسيلورية (قبل نحو خمسمئة مليون سنة سبقت تأسيس شركة آيكيا). توحي لهما تلك التلال إيحاء قويًا بأن ذلك الخلاف الذي بدا في ذهنيهما أمرًا كبيرًا جدًا، لا يشغل في حقيقة الأمر إلا مكانة

لا قيمة لها في نظام الكون، فهو لا شيء عند مقارنته بالدهور التي يشهد عليها هذا المنظر من حولهما. غيوم مسافرة عبر الأفق من غير أن تتوقّف لحظة لتلقي نظرة على كبريائهما الجريح. لا يبدو أن أحدًا، أو شيئًا، يبالي بهما: لا سرب طيور زمّار الرمل المُدوّمة أمامهما، ولا كروان الماء، ولا عصافير الرمل، ولا طيور الزقزاق، ولا عصافير الحقول. لا زهرات أجراس العسل، ولا زهرات كُمّ الثعلب، ولا زهرات جرس الأرنب، ولا النعاج الثلاث عند غابة فيلكلوف التي ترعى بهمّة كبيرة في رقعة نادرة من البرسيم. بعد إحساس كل منهما، معظم اليوم، بأن الآخر يستخفّ به، يجد رابح وكيرستنن نفسيهما الآن معفيين من الإحساس بالصِّغَر نتيجة إدراكهما هذا الاتساع الرحب الذي تمضي فيه حياتهما. يصيران أكثر استعدادًا للضحك من قلّة شأنهما التي كشفتها أمام أعينهما قوى أكبر كثيرًا جدًا وأهم شأنًا وأثرًا منهما معًا.

ما أشدّ فائدة هذه التلال العتيقة، وهذا الأفق اللانهائي! مع وصولهما إلى مقهى في قرية دولز، يصير منسيًا ذلك السبب الذي جعل كلًّا منهما غاضبًا من الآخر. وبعد فنجانَي شاي، يتفقان على العودة إلى آيكيا، حيث يفلحان أخيرًا في انتقاء كؤوس سيعرف كل منهما كيف يتقبّلها طيلة ما بقي من عمريهما: اثنتا عشرة كأسًا من صنع سفالكا!

مكتبة
t.me/t_pdf

الحَرَد

تمرّ بهما فترة طويلة يشعران خلالها بأن ما من لزوم لوجود أيٍّ شخص آخر في حياتهما. لا يريدان رؤية أية أصدقاء ممن كان كلٌّ منهما معتمدًا عليهما في السنين الطويلة التي سبقت زواجهما. إلا أن إحساسًا بالذنب، وبتجدّد الفضول، لا يلبث أن يستولي عليهما شيئًا بعد شيء. من الناحية العملية، يعني هذا رؤية مزيدٍ من أصدقاء كيرستن لأن أصدقاء رابح مبعثرون في أرجاء العالم. تجتمع عصبة كيرستن من أيام جامعة أبردين في «بار بو» أيام الجمعة. المسافة بعيدة من شقتهما، لكن ذلك البار يقدّم مجموعة واسعة من أنواع الويسكي والبيرة الطازجة. لكنَّ رابحًا يكتفي بتناول المياه الغازية ليلةَ أقنعته كيرستن بالذهاب معًا إلى ذلك المكان. يتعيّن عليه توضيح أنه لم يفعل ذلك انطلاقًا من أسباب دينية (توضيح يستغرق خمس دقائق)، لكنه ليس راغبًا في الشرب الآن.

يظهر أثرٌ من السخرية في صوت كاثرين عندما تقول: «زوج وزوجة!... واو!». إنها ضد الزواج؛ وهي أكثر ارتياحًا مع الناس الذين يؤيّدون وجهة نظرها. بطبيعة الحال، لا يزال وقع عبارة «زوج وزوجة» غريبًا بعض الشيء بالنسبة إلى رابح وكيرستن أيضًا. بل إنهما كثيرًا ما يضعان كلمتي زوج وزوجة بين أقواس يرسمانها بحركة مازحة من أصابعهما حتى يقللان من وزنهما وغرابتهما، لأنهما لا يشعران بأنهما يشبهان ذلك النوع من الناس الذي اعتادا

الإشارة إليه بتلك الكلمتين، فأولئك أشخاص أكبر سنًا، وأكثر استقرارًا، وأكثر بؤسًا مما يريانه في نفسيهما. تحب كيرستن عند دخولها البيت أن تصيح: «وصلت السيدة خان»، كأنها تلعب بتلك الفكرة التي لا تزال بعيدة عن التصديق في نظر كل منهما.

يقول موراي الملتحي ذو الصوت الخشن الذي يعمل في الصناعة النفطية وكان واحدًا من المعجبين بكيرستن في الجامعة: «إذًا، يا رابح، أين تعمل؟».

يجيبه رابح: «أعمل في شركة للتصميم المعماري». يشعر أمامه كأنه فتاة... شعور يأتيه أحيانًا في حضرة رجال أضخم منه جسدًا... «نحن نعمل في تصميم المساحات العامة واستخدامات الأراضي».

يقول موراي: «انتظر لحظة، يا صاحبي. لا أفهم شيئًا من هذا».

تقول كيرستن موضحة: «إنه معماري. يصمّم أيضًا مكاتب وبيوتًا، وسوف يفعل أكثر من ذلك عندما ينتعش الاقتصاد من جديد».

«الآن فهمت، هذا يعني أننا جالسون الآن في هذه النواحي المظلمة من المملكة ريثما ينتهي الركود الاقتصادي، فنعود إلى مكاننا تحت الأضواء وننشئ معجزة بناء جديدة مثل أهرامات الجيزة العظيمة!».

ينتهي موراي من نكتته غير المضحكة، ثم يضحك بصوت مرتفع زيادة بعض الشيء. إلا أن هذا لا يزعج رابحًا بقدر ما يزعجه أن تشاركه كيرستن الضحك حاملة بيدها ما بقي من كأس البيرة، مائلة برأسها صوب زميلها القديم، ضاحكة معه من قلبها كأن ما قاله قبل لحظة كان شيئًا مضحكًا حقًا.

يظل رابح صامتًا في طريق العودة إلى البيت، ثم يقول إنه مرهق ويجيبها بعبارة «لا شيء» الشهيرة، عندما تسأله عمّا به بعد دخولهما الشقة التي لا تزال تفوح برائحة الطلاء الجديد. يمضي إلى «العرين» حيث السرير/ الأريكة، ويصفق الباب بقوّة من خلفه.

ترفع صوتها لكي يسمعها من خلف الباب: «أوه، ماذا بك؟ ما الذي جرى؟».

لكنه يقول لها: «اللعنة عليك. اتركيني وحدي». من الممكن أحيانًا أن يكون صوت الخوف هكذا.

تُخمّر كيرستن كأس شاي لكي تشربها، ثم تذهب إلى غرفة النوم وهي تؤكّد لنفسها -ليس بصدق تام- أنها لا تعرف أبدًا ما يمكن أن يكون قد أزعج زوجها (الذي كان شكله غريبًا حقًّا في ذلك البار).

إن في جوهر حالة الحَرَد مزيجًا مُحيِّرًا من الغضب الحادّ، ومن رغبة ليست أقل منه شدّة في التعبير عن سبب ذلك الغضب. تكون لدى من يحرد حاجة ماسّة إلى أن يفهمه الشخص الآخر. لكنّه، في الوقت نفسه، يظل ملتزمًا التزامًا تامًا بعدم فعل أي شيء لمساعدته على فهمه. إن تلك الحاجة إلى الشرح، في حدِّ ذاتها، جزء جوهري من شعوره بالإهانة: إذا كان الشريك في حاجة إلى شرح، فمن الواضح أنه/ أنها لا يستحق ذلك الشرح. ولنا أن نضيف أيضًا أن في الحَرَد امتياز للشريك، فهو يعني أن شريكَه الذي حرد منه يحترمه ويثق به إلى حدٍّ كافٍ لجعله يرى أن عليه أن يفهم بنفسه ما سبّبه له من إساءة. هذه حالة من أكثر ما يجود به الحب غرابة.

تنهض من السرير آخر الأمر، وتدقّ باب عرينه. تقول أمّها دائمًا إنه لا يجوز المبيت على خصام. لا تزال تخبر نفسها أنها لا تفهم ما حدث. «حبيبي، أنت تتصرّف كأن عمرك سنتين فقط. أنا في صفك، ألا تتذكّر هذا؟ على الأقل، اشرح لي الأمر».

في داخل الحجرة الصغيرة المزدحمة بكتب العمارة، يتقلّب الطفل الصغير ذو الحجم الكبير على الأريكة، ولا يستطيع التفكير في شيء غير أنه لا يريد أن يتنازل -يفكّر أيضًا في شيء لا علاقة له بالأمر: كم يبدو غريبًا اسم المؤلف المطبوع بكلمات فضّية معدنية على كعب كتاب على الرف القريب منه، *مايلز فاندر روهن!*

لم يألف أن يكون في هذا الوضع. في علاقاته السابقة، كان يبذل قصارى جهده حتى يكون الشخص الذي يُبدي القدر الأقل من الاهتمام والمبالاة؛ إلا أن طبع كيرستن المبتهج الصلب يلقيه في دور معاكس. هو من جاء دوره الآن في أن يستلقي في السرير مستيقظًا، قلقًا. لماذا كرهه أصدقاؤها جميعًا؟ وما الذي تراه كيرستن فيهم؟ ولماذا لم تتدخّل حتى تساعده وتدافع عنه؟

يعبّر الحرد عن احترام لقيمة خطيرة جليلة يمكن تتبعها رجوعًا إلى طفولتنا المبكرة: الوعد بالفهم من غير كلام. لا نحتاج إلى تقديم أي شرح عندما نكون في أرحام أمهاتنا. تجري تلبية حاجاتنا كلّها. المساعدة التي تلزمنا تأتينا من تلقاء نفسها. يستمرّ جزء من هذه الحالة المثالية خلال سنوات عمرنا الأولى. لسنا مضطرين إلى التعبير عما يلزمنا: أشخاص كبار طيبون يعرفون كيف يخمّنون من أجلنا. يرون ما هو كامن خلف دموعنا وخلف حيرتنا

أو عدم قدرتنا على التعبير. إنهم يعثرون على تفسيرات للمنغّصات التي نفتقر إلى القدرة على التعبير عنها بالكلمات.

في العلاقات العاطفية، قد يكون هذا ما يجعلنا -بل ما يجعل أكثرنا طلاقة لسان- نفضّل غريزيًا ألا نقول شيئًا عندما نرى الشريك موشكًا على الوقوع في خطر العجز عن قراءتنا قراءة صائبة. قراءة الأفكار الصائبة الصامتة هي وحدها ما يبدو لنا دلالة صادقة على أن الشريك شخص يستحق ثقتنا: لا نشعر بالثقة في أن الشريك يفهمنا فهمًا حقيقيًا إلا عندما لا نكون في حاجة إلى تقديم أي توضيح.

عندما يصير رابح عاجزًا عن احتمال الوضع أكثر من ذلك، يسير على أطراف أصابعه إلى غرفة نومهما ويجلس على حافة السرير. يريد إيقاظها، لكنه يعدُل عن الأمر عندما يرى وجهها اللطيف الذكي غافيًا. فمها مفتوح قليلًا؛ وهو قادر على سماع صوت أنفاسها الخفيض. الوبر الناعم على ذراعها ظاهر في ضوء مصباح الشارع.

صباح اليوم التالي باردٌ قليلًا، لكنه مشمس. تستيقظ كيرستن قبل رابح، وتسلق بيضتين، واحدة لها وواحدة له. تضع أيضًا سلة من أصابع الخبز المقطّعة تقطيعًا أنيقًا. تنظر من النافذة إلى شجرة الصفصاف في الحديقة وتشعر بالامتنان إزاء تلك الأشياء البسيطة الموثوقة. يدخل رابح المطبخ خجلًا، مشعثًا؛ ثم يبدآن تناول الطعام صامتَيْن؛ ثم يبتسم كل منهما للآخر. وخلال استراحةٍ أثناء وجودها في العمل، تجد في إيميلها رسالة منه: «أنا مجنون قليلًا،

سامحيني». عليها الآن أن تذهب إلى اجتماع المجلس، لكنها تكتب له ردًا سريعًا: «لو أنك لست مجنونًا لكان الأمر مضجرًا كثيرًا، ولشعرتُ بالوحدة». لا يعود أيٌّ منهما إلى ذكر الحرَد بعد ذلك.

من المستحسن كثيرًا أن نكون قادرين على الضحك -بألطف شكل ممكن- عندما نكون هدفًا لغضب شخص حَرِد. سننتبه إلى تلك المفارقة المؤثرة. قد يكون ذلك الشخص كبيرًا، طويل القامة، وقد يكون صاحب وظيفة مهمّة؛ لكن الرسالة الحقيقية تظل رجوعًا مؤثرًا إلى الماضي: «لا أزال طفلًا صغيرًا في أعماقي. وأريدك، في هذه اللحظة، أن تكون مثل أبي وأمي. أريد أن تحزر بالضبط ما يؤلمني... مثلما كان الناس يفعلون عندما كنت طفلًا صغيرًا، عندما كانت أفكاري عن الحب في أول تشكّلها». إننا نصنع لأحبتنا الحَرِدين أعظم جميل عندما نكون قادرين على النظر إلى غضبهم مثلما ننظر إلى غضب طفل رضيع. كثيرًا ما نغفل عن فكرة أن من باب الإحسان إلينا أن نُعتبر أصغر سنًا مما نحن عليه في حقيقة الأمر. وكثيرًا ما ننسى أن من أعظم الامتيازات -أحيانًا- أن نستطيع النظر إلى ما خلف ذواتنا البالغة بغية الوصول إلى الطفل الحانق، المحبط، غير القادر على الكلام، في داخلنا ومسامحته أيضًا.

الجنس والرقابة

إنهما جالسان في مقهى يذهبان إليه -أحيانًا- صبيحة يوم السبت. يطلبان بيضًا مقليًا، ويتحدثان عن الأسبوع الذي مضى، ويقرأان الصحف. واليوم، تحكي كيرستن لرابح عن المشكلة التي واجهتها صديقتها شونا التي انتقل عمل صديقها -اسمه ألاس دير- انتقالًا مفاجئًا إلى سنغافورة. تتساءل شونا إن كان عليها أن تلحق به «إنهما معًا منذ سنتين»، أم تظل في عيادة جراحة الأسنان في إنفرنِس حيث تلقّت ترقية منذ فترة وجيزة؟

إنه قرار صعب، كيفما نظر المرء إليه. لكن شروحات كيرستن تسير سيرًا بطيئًا بعض الشيء، فضلًا عن كونها متقطّعة أحيانًا. لهذا، تستمر عين رابح في متابعة الأخبار في صحيفة ديلي ريكورد. هناك أشياء مروّعة وغريبة تحدث في الآونة الأخيرة في أماكن لها أسماء شاعرية كثيرًا: معلّم تاريخ بدين يقطع رأس زوجته بسيف عتيق في بيت قريب من لوتشديلي؛ وتبحث شرطة أوتشترنوتشتي عن رجل في الرابعة والخمسين أنجب طفلًا من ابنته البالغة ستة عشر عامًا.

«سيد رابح، إذا لم تكفّ عن ظنّك بأن كل ما أقوله لك ليس أكثر من ضجيج جانبي تستطيع أن تُصِمّ عنه أذنيك عندما تشاء، فإنني أعدك بأنّ ما أصاب تلك المرأة المسكينة في لوتشغيلي سيبدو لك أشبه بيوم تمضيه في ديزني لاند». تقول كيرستن هذا وهي تطعنه بقوة بين أضلاعه بمقبض السكين.

لكن ما يشغل ذهن رابح غير مقتصر على سفاح الأب وابنته وعلى مشكلة شونا. إن هناك أمرًا ثالثًا يشد انتباهه. يمتلك أنجيلو وماريا هذا المقهى منذ ثلاثين سنة. وقد كان والد أنجيلو -أصله من صقلية- معتقلًا في جزر أوركلي خلال الحرب العالمية الثانية. ولدى الزوجين ابنة في الحادية والعشرين اسمها أنتونيلا. في الآونة الأخيرة، أنهت أنتونيلا دراستها في تخصّص المطاعم والفنادق في كلية نورث إيست سكوتلاند في أبردين. وإلى أن يحدث في حياتها أمر أكثر أهمية، تمضي وقتها الآن في مساعدة أهلها في المقهى، وتنطلق جيئة وذهابًا بين المطبخ والصالة حاملة أربعة طلبات في المرة الواحدة، ومطلقة تحذيرات متواصلة من أن الأطباق حارّة جدًا وهي تتنقّل برشاقة بين الطاولات.

إنها طويلة القامة، رشيقة، حلوة الطبع ـ وهي شديدة الجمال أيضًا. تثرثر بيُسر مع زبائن المقهى عن الطقس؛ وأما مع الزبائن القدامى الذين يعرفونها منذ أن كانت طفلة، فهي تحدّثهم عن آخر المستجدات في حياتها. تقول لسيدتين متحمّستين كبيرتي السن جالستين إلى الطاولة المقابلة إنها من دون علاقة الآن؛ ثم تضيف قائلة إن هذا لا يزعجها أبدًا. تقول أيضًا: «لا، لن تجرّب أبدًا مواقع المواعدة على الإنترنت، فهذا ليس مما يعجبها». إن في رقبتها صليبًا كبيرًا إلى حدٍّ مفاجئ معلقًا من سلسلة.

ينظر رابح إليها؛ ومن غير أن يتعمّد ذلك حقًّا، يتخلّى جزء من عقله عن مسؤولياته الطبيعية ويبدأ تخيل سلسلة صور غير متوقّعة. السلّم الضيّق من خلف آلة الإسبرسّو المؤدّي إلى الشقّة السكنية فوق المقهى. غرفة أنتونيلا الصغيرة لا تزال مبعثرةً فيها صناديق

أمتعتها في الكلية التي لم تفرغها بعد. عمود من ضياء الصباح ساقط على شعرها الأسود الفاحم تاركًا جلدها الشاحب في الظل. ملابسها مرمية على الأرض، عند الكرسي، وأنتونيلا نفسها مستلقية على السرير فاتحة ساقيها الطويلتين الرشيقتين على اتساعهما... عارية تمامًا إلا من ذلك الصليب.

في الغرب، ندين للمسيحية بفكرة أن الجنس لا يجوز أن يحدث إلا في وجود الحب. وذلك الإصرار الديني على أن من واجب شخصين متحابّين يحرص كل منهما على الآخر أن يحفظا جسديهما، ونظريهما، كلٌّ للآخر وحده. إذا فكّر أحد في أشخاص آخرين تفكيرًا جنسيًا، فهو يتخلّى عن روح الحب الحقيقية ويخون ربّه وطبيعته البشرية أيضًا.

هذه الأفكار، التي هي مؤثرة وكابتة معًا، لن تتبخّر كلها مع تراجع شأن الإيمان الديني الذي كان سندًا لها. فحتى بعد خسارتها منطقها الإيماني الصريح، لا تزال تبدو كأنها متغلغلة في إيديولوجيا النزعة الرومانسية التي تظلّ محتفظة لفكرة الإخلاص الجنسي بمكانة مرموقة ضمن فكرة الحب. وفي العالم العلماني أيضًا، يعتبر الزواج الأحادي أو العلاقة الأحادية، ضرورة وتعبيرًا متناميًا عن الفضيلة والالتزام العاطفي. إن زماننا يحافظ (على نحو مدهش) على المغزى الجوهري للموقف الديني الذي كان لدينا: إيماننا بأن الحب الحقيقي ينبغي أن يكون مشتملًا على إخلاص جنسي صادق.

يعود رابح وكيرستن متجهَيْن إلى البيت. يسيران بطيئًا يدًا بيدًا، ويتوقّفان من حين لآخر، فيلقيان نظرة في هذا المتجر أو ذاك. سيكون هذا اليوم دافئًا جدًا. البحر داكن الزرقة كأنه بحر استوائي. إنه دور كيرستن في الاستحمام أولًا. عندما يصيران في البيت، يعودان إلى السرير شاعرَين بأنهما يستحقان أن يدللا نفسيهما قليلًا بعد أسبوع عمل طويل شاق.

يحبان تأليف القصص أثناء ممارسة الجنس. يبدأ أحدهما القصة، ثم يسير بها الآخر قليلًا قبل أن يعيدها إليه لمزيد من الإسهاب.

وقد تغدو تلك القصص مبالَغًا فيها. تبدأ كيرستن ذات مرة، «انتهى وقت الدراسة، وغرفة الصف خالية. لقد طلبتَ مني أن أبقى حتى نستطيع مراجعة الموضوع الذي كتبتُه. أخجل كثيرًا، ويحمر وجهي سريعًا. هذا أثرٌ باقٍ من تنشئتي الكاثوليكية المتزمّتة...». يضيف رابح تفاصيل من عنده، «وأنا مدرس الجغرافيا المتخصّص في الجليديات. يداي مرتعشتان. أمسّ ركبتك اليسرى. ولا أكاد أجرؤ على التفكير في أن...».

لقد تقاسما حتى الآن تأليف قصص فيها متسلّق جبال تائه وطبيبة ثرية، وصديقاهما مايك وديل، وامرأة تقود طائرة معها مسافر متحفظ، لكنه فضولي. من هنا، لا يجد رابح أي شيء غير طبيعي عندما يخطر في ذهنه هذا الصباح أن يبدأ قصةً فيها نادلة وصليب وحزام جلدي.

إن هناك دليلًا على المعتقد المسيحي - الرومانسي القائل بأن على الجنس والحب ألا ينفصلا أبدًا، وذلك

على الرغم من ندرة سماعه في الدوائر المحترمة. ينكر الموقف البعيد عن الدين أية صلة أصيلة أو منطقية بين حب شخصٍ من الأشخاص وضرورة الإخلاص الجنسي التام له. بل هو يذهب أيضًا إلى القول بإمكانية أن يكون أمرًا طبيعيًا تمامًا بالنسبة لطرفَي علاقة عاطفية، بل أمرٌ صحّيٌّ أيضًا، أن يمارسا الجنس عَرَضًا مع أشخاص آخرين لا يشعرون نحوهم بعاطفة كبيرة، لكنهم ينجذبون إليهم بقوّة. لا ضرورة لذلك التلازم الدائم بين الجنس والحب. وتذهب هذه الفلسفة إلى أن من الممكن أحيانًا أن يكون الجنس فعلًا جسديًا فحسب، أي شيئًا أشبه بنشاط رياضي يمارسه المرء من غير أن يكون له أي معنى عاطفي مهم. ويخلص أصحاب هذه الفلسفة إلى أن وجوب التزام المرء بالاقتصار جنسيًا على شخص يحبه لا يقلّ سخافة عن المطالبة بعدم السماح بلعب كرة الطاولة أو بالذهاب إلى ممارسة رياضة الجري معًا إلا للأزواج الملتزمين.

في زماننا الحالي، تظلّ هذه آراء أقلّية من الناس، بل أقلّية صغيرة جدًا.

يبدأ رابح المشهد: «نحن في هذه البلدة الساحلية الصغيرة في إيطاليا -لعلها رينيني- وكنا قد تناولنا الآيس كريم، لعلّه كان بالفستق الحلبي، عندما تلاحظين النادلة التي هي فتاة ودود حقًّا وبطريقة طبيعية يحسّها المرء، في وقت واحد، أمومية وعذرية ساحرة».

«أنت تعني أنتونيلا».

«ليس بالضرورة».

تقول له ساخرة: «رابح خان، اخرس!».

«إذًا، لا بأس. فلتكن تلك الفتاة أنتونيلا. تسألين أنتونيلا، إن كانت راغبة في القدوم لتناول البراندي معنا. تعجبها الفكرة، لكنها محرَجة قليلًا. الأمر هكذا... إن لديها صديقًا، اسمه ماركو، يعمل ميكانيكيًا في مركز إصلاح السيارات في القرية. إنه شديد الغيرة، لكنّها، في الوقت نفسه، لا تجده كافيًا لها من الناحية الجنسية. هناك أشياء تريد منذ زمن بعيد أن تجرّبها معه، لكنه يرفض المحاولة رفضًا قاطعًا. لا تستطيع إخراج تلك الأشياء من ذهنها. وهذا واحد من الأسباب التي تجعلها تقبل عرضنا غير المألوف».

تظل كيرستن صامتة.

«نحن الآن في الفندق، في غرفتنا التي فيها سرير كبير له رأس نحاسي على الطراز القديم. جلدها ناعم جدًا. وعلى زغب شفتها العليا أثر من رطوبة. تلعقين تلك الرطوبة، ثم تنزلق يدك بحركة رقيقة نازلةً على امتداد جسدها».

يتابع رابح: «لا تزال مرتدية مريلة العمل، لكنك تساعدينها في خلعها. تجدينها حلوة فاتنة، لكنك تريدين أيضًا استخدامها بطريقة شرهة نوعًا ما. هنا يأتي دور الحزام الجلدي. ترفعين حمالة ثدييها، إنها سوداء. أو... لا، قد تكون رمادية. وتنحنين إلى ثديها.

تظل كيرستن صامتة. لا تقول شيئًا.

يواصل كلامه: «تنزل يدك وتندسّ داخل سروالها التحتي الإيطالي المزركش كثيرًا. وفجأة، تشعرين برغبة شديدة، وتبدئين استكشاف كل أماكن الإثارة في جسدها».

في هذه الأثناء، يصير صمت شريكة رابح في رواية القصص صمتًا عميقًا. يسألها: «هل أنت على ما يرام؟».

«أنا بخير، لكن الأمر... لست أدري. يبدو لي أمرًا غريبًا أن تفكر في أنتونيلا بهذه الطريقة. يبدو لي هذا تفكيرًا منحرفًا قليلًا، حقًا... إنها شخصية رائعة. أعرفها منذ أن كانت في نهاية المدرسة الثانوية. أبوها وأمها معتزان الآن كثيرًا بتفوقها الدراسي. لا تعجبني أبدًا فكرة رجل جالس هناك مستمتعًا بالنظر إلى امرأتين تلعق كل منهما الأخرى. أشعر... يا صْفُوف... بصراحة... أرى هذا أمرًا غبيًا يشبه الأفلام الإباحية. وإذا أردت الصدق، فإن ذلك التلميح إلى الجنس الشرجي...».

يقاطعها رابح وقد أحس فجأة بأنه أحمق تمامًا: «أنا آسف. أنت محقّة، لكنني آسف، أنت محقّة. الأمر سخيف. فلننس كل ما قلته. لا يجوز أن نترك شيئًا كهذا يبعدنا عن مقهى بريوتشي».

لم تتوقف النزعة الرومانسية عند زيادة مكانة العلاقة الجنسية الفردية، بل تابعت الطريق وجعلت أي اهتمام جنسي خارج تلك العلاقة يبدو أمرًا غبيًا، فظًا. لقد أعادت بقوة تعريف معنى الدافع إلى مضاجعة شخص ما بحيث صار ذلك مقتصرًا على الشريك المعتاد. لقد حوّلت كل اهتمام خارج الزواج إلى شيء خطير؛ وكثيرًا ما جعلته شيئًا قريبًا من كارثة عاطفية.

في الخيالات التي في عقل رابح، كان ممكنًا لهذا السيناريو أن يصير عملية لطيفة، سهلة. يذهب إلى المقهى مع كيرستن ويتحدّثان مع أنتونيلا؛ ويصير ثلاثتهم مدركين مقدار ما بينهم من توتّر وتجاذب، فينتهي بهم الأمر سريعًا إلى شقتهما في جادة

نيرتشيستون. تبدأ أنتونيلا وكيرستن معًا وتستمران حينًا من الوقت بينما يكون رابح جالسًا على الكرسي ينظر إليهما. ثم يحل محل كيرستن ويمارس الجنس مع أنتونيلا. من شأن هذا أن يكون دافئًا وحميمًا ولا أثر له على الزواج وعلى حب رابح العميق لكيرستن. وبعد ذلك يوصل رابح أنتونيلا إلى المقهى ولا يعود أحد من الثلاثة أبدًا إلى ذكر تلك اللحظات. لن تكون هناك ميلودراما، ولا ميل إلى التملّك، ولا إحساس بالذنب. وفي عيد الميلاد، من الممكن أن يقدما إليها حلوى البانيتون مع بطاقة جميلة كنوع من الشكر لها على ذلك اللقاء الماجن.

على الرغم من الجو المتحرّر في زماننا، فإن من السذاجة أن يفترض المرء اختفاء التمييز بين ما هو «شاذ» وما هو «طبيعي». يبقى هذا التمييز منيعًا كعهده دائمًا، مستعدًا لإخافة من يشكّكون في الحدود المعيارية للحب والجنس، ولإعادتهم إلى الحضيض. قد يعتبر الآن «طبيعيًا» ارتداء شورت قصير جدًا، وكشف السرّة، والزواج من أيٍّ من الجنسين، ومشاهدة بعض الأفلام الإباحية على سبيل اللهو. إلا أنه يظل «طبيعيًا» على نحو لا مفرّ منه ذلك الاعتقاد بأن الحب الحقيقي يجب أن يكون مقتصرًا على شخص واحد، وأن رغبة المرء ينبغي أن تتركّز على شخص واحد فقط. ومن شأن المجادلة في هذا المبدأ المؤسِّس أن يخاطر المرء بأن يجد نفسه منبوذًا، سرًّا أو علنًا، وبأن يلصَق به ذلك النعت المحزن، الكاوي، المخزي: منحرف.

ليس رابح، على الإطلاق، واحدًا من فئة من يجيدون التواصل مع الآخرين. فعلى الرغم من أن لديه عددًا من الآراء التي يتمسك بها تمسكًا قويًا، فقد اكتشف منذ زمن طويل أن الرحلة في اتجاه التعبير عنها مليئة بالموانع والعقبات. عندما أعلن إيون، مديره في العمل، عن استراتيجية جديدة للشركة قوامها زيادة التركيز على القطاع النفطي والتقليل من العقود الحكومية المحلّية، لم يطلب رابح -مثلما قد يطلب شخص آخر- عقد اجتماع لكي يجلس مع المدير نصف ساعة في غرفة الاجتماعات في الطابق العلوي في كارلتون هيل، لكي يوضح السبب الذي يجعله يرى هذه النقلة في سياسة الشركة شديدة المخاطر، لا نقلة خاطئة فحسب. لكنه ظلّ صامتًا إلى حد كبير، ولم ينطق إلا ببضع عبارات عمومية غامضة متخيّلًا أن الآخرين سوف يستنتجون رأيه منها بطريقة سحرية. وأيضًا، شعر بغضب شديد في داخله عندما انتبه إلى أن جيما (موظفة جديدة في الشركة مهمتها مساعدته في عمله) تخطئ كثيرًا في تسجيل المقاسات والمقادير، لكنه لم يطرح الأمر معها، بل اكتفى بأن ينجز العمل بنفسه، تاركًا تلك الموظّفة الشابة حائرة لقلّة ما هو مطلوب منها فعله في وظيفتها الجديدة. إنه ليس كتومًا، أو متحكّمًا، أو منسحبًا، لأسباب خبيثة؛ لكنه يُسقط الأشخاص الآخرين من حسابه بسهولة غير مفيدة، ويُسقط من حسابه أيضًا قدرتهم على إقناعه بأي شيء.

خلال بقية ذلك النهار، بعد ذهابهما إلى مقهى بريوتشي، وبعد تلك القصّة المخزية عن أنتونيلا، يسود بين رابح وكيرستن ذلك النوع من التوتّر الذي يحدث كثيرًا أن يظهر عندما لا يصل التأهب لممارسة

الجنس إلى منتهاه الطبيعي. وفي مكان ما في عقل رابح، هناك إحساس بالخيبة وبالانزعاج لا يدري كيف يتصرّف تجاهه. ففي آخر المطاف، ليس بالأمر الصائب أن يثير المرء ضجة عندما لا تتحمّس شريكته لفكرة ممارسة الجنس الثلاثية مع خريجة جامعية جديدة تجيد إعداد البيض المقلي، وتبدو جميلة المظهر في مريلة العمل.

إن ما يجعل الناس ماهرين في التواصل هو، في جوهره، قدرتهم على عدم الوقوع في حالة من الاضطراب بسبب الجوانب الإشكالية أو الشاذّة في شخصياتهم. إنهم قادرون على التفكير في غضبهم، وفي ميولهم الجنسية، وفي آرائهم الغريبة، أو غير الشعبية، أو غير الشائعة من غير أن يفقدوا ثقتهم بأنفسهم أو يرتدّوا إلى حالة من التقزّز من الذات. إنهم قادرون على الحديث بوضوح لأنهم نجحوا في تطوير ذلك الإحساس الثمين بأنهم أشخاص يحظون بالقبول. إنهم يحبّون أنفسهم إلى الحدّ الكافي للاعتقاد بأنهم يستحقّون رضا الآخرين، وبأنهم قادرون على الفوز به، شريطة أن تتاح لهم وسيلة للتعبير عن أنفسهم بالقدر اللازم من الصبر وسعة المخيلة.

لا بد أن تكون قد توفّرت لهؤلاء الذين يحسنون التعبير عن أنفسهم، عندما كانوا أطفالًا، نعمة العيش في كنف أشخاص يعرفون كيف يحبون من هم في عهدتهم من غير مطالبتهم بأن يكون كل ما فيهم جيدًا لا عيب فيه. إن أولئك الآباء والأمهات قادرون على العيش مع فكرة أن أطفالهم قد يكونون أحيانًا -لفترة من الزمن، على

الأقل- غريبي الأطوار، أو غاضبين، أو دنيئين، أو ميّالين إلى الحزن، لكنهم يظلّون مستحقين أماكنهم ضمن دائرة الحبّ الأسري. فعلى هذا النحو، يخلق الأهل نبعًا ثمينًا من الشجاعة يستطيع أولئك الأطفال، بعد حين، أن يستمدّوا منه جرأة في مواجهة ما تشتمل عليه حياة الكبار من اعترافات ومن تبادل مباشر للكلام.

كان والد رابح شخصًا صموتًا قاسيًا. فخلال جيل واحد، انتقل من الفقر الشديد والعمل الزراعي الشاق في قرية صغيرة في بعلبك إلى حياة مختلفة. صحيح أنه كان أول فرد في أسرته يتمكّن من الإفلات ويذهب إلى الجامعة، لكنه سيظلّ محافظًا على إرث أسلافه القديم المتمثّل في الحذر من أية سلطة. لم يكن الجهر بالكلام وتعبير المرء عن آرائه من بين الأساليب المألوفة في عائلته.

لم يكن ما تعلّمه رابح من أمه في ميدان التواصل والتعبير عن نفسه بأكثر تشجيعًا له مما سبق. لقد أحبّته حبًّا شديد القوة، لكنها كانت تريد منه أن يكون على صورة بعينها. كلما عادت من عملها في الرحلات الجوية إلى زواجها وإلى مناخ بيروت المشبع بالقلق، كان ابنها يرى التعب والإرهاق من حول عينيها فيشعر بأن عليه ألا يزيد مشكلاتها. كان يريد أكثر من أي شيء آخر أن يجعلها مرتاحة، وأن يجعلها تضحك. وكان يخفي عنها كل ما يقلقه، يخفيه على نحو تلقائي. كان يرى أن مهمته هي مساعدتها على البقاء سليمة من غير أي شيء ينغّص حياتها. وما كان قادرًا على إخبارها بالجوانب الكثيرة الشائكة في نفسه، على الرغم من كونها حقيقية.

هكذا كبر رابح وهو يفهم أن حب الآخرين له يأتي بمثابة مكافأة

على كونه شخصًا جيّدًا، لا شخصًا شفافًا يعبّر بوضوح عما في نفسه. ولما صار كبيرًا، وصار زوجًا، ظلّ غير عارف إطلاقًا كيف يصوغ شيئًا منتظمًا من تلك الأجزاء من نفسه التي هي غير متّفقة مع المعايير العامة. لم يكن الغرور، أو أي قرار ناجم عن التفكير، هو ما يجرّد زوجته من الحقّ في معرفة من هو في الحقيقة، وفي معرفة ما يجعله كتومًا أو متردِّدًا، بل كان ذلك ناجمًا عن ذعر حقيقي من إمكانية أن تشتد ميوله إلى كره ذاته، فتبلغ حدًّا لا يستطيع احتماله إن كان هناك شاهد عليها.

لو كان رابح أقل خشية من عقله نفسه، فلربما استطاع مواجهة كيرستن برغباته مثلما يطلب عالم طبيعي من زميل له تفحّص كائنات عجيبة مكتشَفة حديثًا يريدان معًا أن يحاولا فهمها واعتياد وجودها. لكنَّ لديه إحساسًا غريزيًا بأن هناك الكثير من نفسه مما تقتضي الحكمة عدم الكشف عنه أمام أي شخص آخر. إن اعتماده على حب كيرستن أشد من أن يسمح له بأن يبسط أمامها تلك المواضع كلها التي تأخذه إليها شهواته الجنسية عادة. من هنا، فهي لا تعرف شيئًا عن المرأة التي يُعجب بها زوجها كل يوم، تلك التي تكون جالسة خلف صندوق المحاسبة في كشك بيع الصحف في محطة ويفرلي؛ ولا تعرف شيئًا عن فضوله إزاء صديقتها ريتشل ليلة عيد ميلادها، ولا عن الفستان الذي أثاره عندما رآه في متجر في شارع هانوفر، ولا عن بعض الأفكار التي لديه عن الجوارب النسائية، ولا عن تلك الوجوه التي تمر في ذهنه من غير أن يستدعيها عندما يكون في السرير معها.

تمر وتنقضي تلك الفترة المدوّخة الأولى، فترة المغامرة

الجنسية والصدق التام. إن بقاءه جذابًا في نظر كيرستن أهم كثيرًا بالنسبة إليه من أن يكون ناقلًا صادقًا لحقيقة حياته الداخلية.

ليس من يجيدون الاستماع بأقل ندرة أو أهمية ممن يجيدون التواصل أو التعبير عن أنفسهم. فهنا أيضًا يكون مفتاح الأمر كله درجة غير معتادة من الثقة. هذه قدرة لا تنحرف عن وجهتها نتيجة المعلومات التي قد تحمل تحدّيًا عميقًا لبعض الافتراضات الراسخة، ولا تنثني تحت ثقل تلك المعلومات. يحافظ المستمع الجيد على هدوئه إزاء حالة الفوضى والاضطراب التي قد يخلقها الآخرون -حينًا من الزمن- في عقله؛ لقد عرف هذا الأمر من قبل، وهو يعرف الآن أن كل شيء يمكن أن يستقر ويعود إلى مكانه في آخر المطاف.

إلا أن اللوم في هذا غير واقع على رابح وحده. فكيرستن لا تساهم في تشجيع وجود جو مناسب للكشف والإفصاح لأن على طرف لسانها دائمًا كلمات من قبيل «غريب الأطوار» و«منحرف». إلا أنها لا تستخدم هذه الكلمات بدافع من وقاحة أو إحساس بالازدراء، بل لأنها تخشى إمكانية أن تؤدّي موافقتها الضمنية على خيالات رابح إلى إعطاء تلك الخيالات نوعًا من «رخصة» تؤدّي إلى زعزعة حبّهما.

يمكنها بدلًا من ذلك، في حالة مزاجية أخرى -كأنها شخص آخر- أن تقول لزوجها شيئًا يشبه الكلام التالي ردًا على السيناريو الذي سمعته منه: «إن طبيعة حلم اليقظة هذا غريبة وغير مألوفة، وبصراحة أقول لك إنها تثير تقزّزي. لكن هذا لا يعني أنني غير

مهتمة بالاستماع لأن قدرتي على التلاؤم معك أكثر أهمية من شعوري النسبي بالارتياح. فالشخص الذي يفكّر في أنتونيلا في هذه اللحظة، هو نفسه الشخص الذي تزوّجته في إنفرنِس، وهو نفسه الشخص الصغير الذي ينظر إليّ من تلك الصورة التي فوق صندوق الدروج في غرفتنا. إنه شخص أحبّه وأرفض أن تكون عندي فكرة سيئة عنه مهما يمكن أن تكون لديه أحيانًا أفكار تقلقني. أنت صديقي الأول، وأريد أن أعرف عقلك وأن أكون على ألفة معه بكل ما فيه من دروب غريبة. لن أستطيع أبدًا أن أفعل، أو أن أكون، كل ما تريده؛ وأنت لا تستطيع ذلك أيضًا. لكنّي أود التفكير في أننا نستطيع أن نكون ذلك النوع من الأشخاص الذين لديهم جرأة على أن يخبر واحدهم الآخر من يكون حقًّا. فليس البديل عن هذا غير الصمت والكذب اللذين هما عدوًّا الحب الحقيقيين».

أو، بطريقة معاكسة، يمكن أن تكشف له عن الهشاشة التي كانت طيلة الوقت كامنة من خلف سلوكها المنزعج: «ليتني أستطيع أن أكون كل شيء عندك. وأتمنى لو لم يكن لديك احتياج إلى ما هو خارجي، إلى غيري. وبالطبع، لا أرى فعلًا أن أفكارك الخيالية عن أنتونيلا قبيحة. أتمنّى فقط لو لم تكن عندك حاجة إلى تخيّل امرأة غيري. أعرف أن هذا جنون، لكن أكثر شيء أريده هو أن أكون قادرة على إرضائك بنفسي».

في هذه الحالة، لم يتكلّم رابح، ولم تصغ كيرستن. بدلًا من ذلك ذهبا إلى السينما وأمضيا معًا أمسية لطيفة تمامًا. إلا أن مصباح إنذارٍ قد أضاء في «غرفة المحركات» في علاقتهما.

علينا أن نبدأ الإحساس بالقلق تمامًا في تلك اللحظة التي لا

نسمع فيها من الشريك إلا أقل القليل مما يفزعنا أو يصدمنا أو يثير تقزّزنا. وذلك لأن هذا الأمر يمكن أن يكون أصدق علامة على أن الشريك يكذب علينا قليلًا، أو يحجب عنا ما في مخيلته، سواءٌ أكان هذا لطفًا منه أو خشية من خسارته حبنا. قد يعني هذا أننا -على الرغم من أنفسنا- قد صممنا آذاننا عن سماع معلومات تقصر عن آمالنا، تلك الآمال التي تصير نتيجة ذلك واقعة تحت خطر أكبر.

يقبل رابح أن يكون غير مفهوم جزئيًا... وأن يلوم زوجته في لاوعيه على عدم قبولها تلك الجوانب من طبيعته التي ليست لديه جرأة على توضيحها لها. وأما كيرستن، فتقبل من جانبها بألا تجرؤ أبدًا على سؤال زوجها عما هو جارٍ حقًا في عقله الجنسي خارج دورها فيه؛ وهي تختار ألّا تنظر مليًا في السبب الذي يجعلها تخشى معرفة المزيد.

لم يعد الاثنان إلى ذكر اسم الفتاة ذات الشعر الأسود الفاحم التي كانت موضوعًا لما تخيّله رابح. يستمر ذلك زمنًا طويلًا إلى أن تعود كيرستن حاملة أنباء جديدة بعد تناولها القهوة في مقهى بريوتشي. انتقلت أنتونيلا إلى الشمال لكي تعمل موظفة استقبال في فندق فاخر صغير في آرغيل، على الساحل الغربي. وهي واقعة في حب مديرة فندق هناك... شابة هولندية تعتزم الزواج منها (فوجئ رابح كثيرًا بهذا النبأ الذي وجده آخر الأمر سارًّا له) وذلك بعد بضعة شهور في حفل كبير في بلدة آبلدورن. يتلقّى رابح هذه الأنباء بمظهر لا مبالاة تامّة يكاد يكون مقنعًا. إنه يفضل الحب على الشهوات الجنسية التي في مخيلته.

التحويل

تمر سنتان على زواجهما، ويبقى عمل رابح في حالة غير مستقرّة؛ يبقى متأثّرًا بعدم استقرار حجم العمل، وبالتغيرات المفاجئة في ما يطلبه عملاء الشركة. وهذا ما يجعله يشعر بقدر غير قليل من السرور عندما تفوز الشركة، مع بداية شهر كانون الثاني، بعقد ضخم طويل الأمد إلى الناحية الأخرى من الحدود، في إنكلترا، في ساوثشيلدز: بلدة تعاني أوضاعًا صعبة، وتبعد عن إدنبره ساعتين ونصف ساعة بالقطار، إلى جهة الجنوب. تتمثّل مهمّة الشركة في تطوير الواجهة البحرية وتحويل منطقة فيها خليط من سقائف صناعية عتيقة إلى حديقة عامة ومقهى ومتحف من أجل الأثر البحري المحلّي -التاين- الذي هو ثاني أقدم زورق نجاة في بريطانيا. يسأل إيوين رابحًا إن كان راغبًا في تولّي إدارة هذا المشروع. صحيح أن هذا يعني تشريفًا له، لكنه يعني أيضًا أنه سيكون مضطرًّا، على امتداد نصف سنة، إلى قضاء ثلاث ليال في الشهر بعيدًا عن كيرستن. الموازنة شحيحة؛ وهذا ما يجعله يتخذ مقرًّا له في فندق «ساوثشيلدز برينير إن»؛ فندق منخفض التكلفة محصور بين سجن للنساء وفناء لتحميل البضائع. في الأمسيات، يتناول رابح عشاءه وحيدًا في مطعم الفندق الذي يحمل اسم «تايبارنيز» حيث تقبع قطعة لحم كبيرة متعرّقة تحت مصابيح لوح التقطيع.

وخلال زيارته الثانية إلى تلك البلدة، يجد أن المسؤولين المحليين يراوغون في جملة من الأمور. الجميع خائف من اتخاذ قرارات كبيرة: يتأخّرون ويلقون باللائمة على مجموعة كبيرة من الأنظمة غير المفهومة. إن مجرد تمكّنهم من الوصول إلى هذه النقطة يُعتبر أعجوبة. يتوتر عِرقٌ في رقبة رابح بهذه المناسبة. يسير مرتديًا جوربيه على بساط النايلون في غرفته بعد الساعة التاسعة بقليل، ويتّصل مع كيرستن من تلك الغرفة ذات اللونين البني والأرجواني. يحييها: «تيكل... يوم آخر من الاجتماعات التي تخدّر الدماغ، ومن أولئك الأغبياء في مجلس البلدة الذين يثيرون المشكلات من غير أي سبب منطقي. اشتقت إليك كثيرًا. مستعد لدفع الكثير حتى أحتضنك الآن، في هذه اللحظة». صمت قصير (يشعر بأنه قادر على سماع الأميال الكثيرة الفاصلة بينهما)، ثم تجيبه بصوت مُسطَّح قائلة له إن عليه أن يضيف اسمه إلى عقد تأمين السيارة قبل بداية شهر آذار، وتضيف أيضًا أن جارهما يريد أن يتحدّث معه عن مصرف الماء، ذلك الذي من جهة الحديقة. وفي هذه اللحظة، يكرّر رابح -برقّة، لكن بحزم- قوله إنه مشتاق إليها، وإنه يتمنّى لو يكونان معًا في هذه اللحظة. في إدنبره، كيرستن متكوّرة على ناحية من الأريكة، على «ناحيته» من الأريكة، وهي مرتدية كنزته، وفي حجرها طبق فيه شرائح التونة وقطعة خبز. تصمت من جديد؛ وعندما تردّ عليه أخيرًا، يكون صوتها جافًّا، خدِرًا. تقول: «نعم». من المؤسف أنه غير قادر على رؤيتها وهي تحاول منع انهمار دموعها.

ليست هذه أول حادثة من هذا النوع. لقد حدث شيء صقيعي

مماثل عندما كان هناك في المرة الماضية، وكذلك عندما كان في مؤتمر في الدانمارك. يومها، اتهمها بأنها تبدو غريبة على الهاتف. وأما الآن، فلم يتّهمها بشيء... شعر بجرح فقط. لم يفعل شيئًا غير مطالبتها بقدرٍ قليلٍ من الدفء، فبدا له فجأة أنهما في حالة استعصاء. ينظر إلى نوافذ السجن قبالة الفندق. كلما كان بعيدًا عنها، كلما أحسّ أنها تحاول وضع مسافة أخرى بينهما فتضيفها إلى ما يفصلهما من أرض وماء. يتمنّى أن يستطيع العثور على طريقة تسمح له بالوصول إليها، ويتساءل عما يمكن أن يكون السبب الذي جعلها بعيدة هكذا. كيرستن بدورها لا تفهم الأمر تمامًا. تنظر بعينين دامعتين إلى لحاء شجرة عتيقة قريبة من النافذة، وتفكّر بتركيز خاص في ملفٍّ عليها أن تتذكّر أخذه معها إلى المكتب غدًا.

تبدو تركيبة هذا الأمر على النحو التالي: تثيرُ عبارة، أو وضع يبدو عاديًا جدًا، لدى أحد طرفي العلاقة ردة فعل لا تبدو مبرّرة تمامًا لأنها عادة ما تكون مليئة قلقًا أو انزعاجًا، برودًا أو تعسّفًا، ذعرًا أو لومًا. يجد الشخص المتلقّي نفسه في حيرة: لم يكن ذلك إلا مطالبة بسيطة بكلمة وداع مُحِبة، أو لم يكن إلا طبقًا أو طبقين تركهما ولم يغسلهما، أو نكتة صغيرة لأن الطرف الآخر تأخر دقيقتين! فما سبب هذه الاستجابة غير الطبيعية التي تبدو مبالغًا فيها؟

يحاول المرء فهم هذا السلوك بحسب الوضع الحالي فلا يجد له معنى. يبدو الأمر كأن هناك جانبًا من السيناريو الحالي يستمدّ طاقته من مصدر آخر لا علاقة له به، كأنه

يطلق -من غير قصد- نوعًا آخر من السلوك نشأ في الأصل لدى الشخص الآخر منذ زمن بعيد لمواجهة خطر من الأخطار، لكنه يُستحضَر الآن بطريقة لا واعية. يكون صاحب ردة الفعل المبالَغ فيها مسؤولًا -بحسب التعبير الذي يستخدمه علم النفس- عن «تحويل» مشاعر وانفعالات في الماضي إلى شخص في الحاضر قد لا يكون مستحقًّا لها فعلًا.

من الغريب أن عقولنا ليست بارعة دائمًا في معرفة الزمن الذي هي فيه. فهي تقفز بسهولة أكثر مما ينبغي، مثلما يفعل شخص وقع مرّة ضحية عملية سلب فصار يحتفظ بمسدسه إلى جانب سريره ويستيقظ مجفلًا كلما سمع صوتًا.

لكن ما هو أسوأ بالنسبة إلى الحبيب الذي يكون على مقربة فهو أن الشخص الذي يحدث لديه هذا «التحويل» لا تكون سهلة عليه معرفة وفهم ما يحدث له، ناهيك عن قدرته على شرحه بطريقة هادئة. بل إنه يرى، بكل بساطة، أن استجابته ملائمة للمناسبة تمام الملاءمة. لكن شريكه يمكن أن يصل إلى استنتاج مختلف: واضح أن هذا الشخص يتصرّف بطريقة غريبة، بل لعلّه مجنون قليلًا!

لقد رحل والد كيرستن وتركها عندما كانت في السابعة. يترك البيت من غير سابق إنذار، ومن غير أي توضيح. وفي اليوم السابق على رحيله، يلعب معها على أرض غرفة المعيشة لعبة يقوم بدور

جمل ويحملها على ظهره ويدور فيها من حول الأريكة والكنبة. ثم يأتي وقت نومها فيقرأ لها من كتاب فيه قصص شعبية ألمانية، يقرأ لها حكايات عن أطفال يشعرون بالوحدة، وعن زوجات آبائهم الشريرات، وعن السحر، وعن الغياب. يقول لها إن هذه حكايات، لا أكثر. وبعد ذلك يختفي.

من الممكن أن تظهر ردود أفعال متنوّعة كثيرة. وقد كانت ردة فعلها ألا تحسّ شيئًا. لا تستطيع تحمّل ذلك. هي في حالة حسنة... هذا ما يقوله عنها الجميع: المعلّمات، وخالتاها، والاستشاري النفسي الذي كان يراها في ذلك الوقت. والواقع أن أداءها المدرسي يتحسّن فعلًا. لكنها غير قادرة على تقبّل ذلك في داخلها، ولو حتى قليلًا. لا بد للمرء من شيء من القوّة حتى يستطيع أن يبكي؛ لا بد له من ثقة بأنه سوف يتمكّن أخيرًا من إيقاف دموعه. ليست لديها رفاهية الإحساس ولو بقدر قليل من الحزن. هناك خطر في أن تتشظّى فلا تعرف أبدًا كيف تعيد لملمة أجزائها. تكوي جروحها حتى تدرأ عن نفسها هذا الخطر... تكويها بأفضل ما تستطيعه طفلة في السابعة.

تستطيع الآن أن تحب «بطريقتها الخاصّة»؛ لكن ما لا تستطيع أبدًا أن تبيحه لنفسها هو الاشتياق كثيرًا إلى أي إنسان، حتى لو كان شخصًا في بلدة واقعة على مسيرة ساعتين إلى جهة الجنوب، شخصًا من المؤكّد أنه سيعود إلى البيت بعد بضعة أيام بقطار المساء الذي يصل في الساعة السادسة واثنتين وعشرين دقيقة.

وبطبيعة الحال، هي غير قادرة على توضيح هذه العادة التي تكوّنت لديها، بل هي غير قادرة على فهمها فهمًا واضحًا. وهذا

ما يجعل سلوكها غير مرحّب به كثيرًا. ليتها تستطيع أن يكون لديها ملاكٌ حارسٌ له قدرة سحرية على إيقاف ما كان يحدث عندما بدأ الضيق يظهر على رابح حتى يذهب إليه ويحمله من فندقه الرخيص فيعبر به تلك السحب المنخفضة، ويأخذه إلى إنفرنِس قبل ربع قرن حيث يستطيع أن ينظر من نافذة بيت صغير هناك ويرى في غرفة النوم الضيّقة طفلة صغيرة ترتدي بيجاما عليها صورة دب جالسة إلى طاولتها، تلون بدقة منهجية مربعات على ورقة كبيرة، محاولة أن تظلّ متمسّكة بسلامة عقلها الذي جعله فارغًا من كل إحساس حزنٌ طاغٍ إلى حدٍّ يجعلها غير قادرة على الإقرار بوجوده.

لو رأى رابح هذه الصورة لاحتمالِ كيرستن الصابر، لعطف عليها بكل تأكيد. لو رآها لفهم الأسباب المحزنة من خلف تحفّظها، ولأسكت فورًا إحساسه بالجرح حتى يستطيع أن يمنحها طمأنينة وعطفًا رقيقين.

ولكن، بما أن ما من ملاك يقوم بهذه المهمة، وما من حكاية مؤثرة دالّة تساعد في إنارة ماضي كيرستن، فإن رابحًا يظل من غير شيء يعينه على فهم استجابتها التي لا معنى: تحدٍّ يثير في نفسه إغراءً مُتَوقّعًا تصعب مقاومته... إغراء بأن يحكم عليها وبأن يشعر بالإساءة جرّاء سلوكها.

كثيرًا ما يحدث لنا أن نتصرّف انطلاقًا من «ذواتٍ» ولدتها منذ زمن بعيد أزمات لم ينسها إلا ذلك الجزء الذي ندركه من وعينا. نتصرّف تبعًا لمنطق عتيق لم نعد قادرين على تحديده تحديدًا واضحًا، نتتبّع معنى لا نستطيع توضيحه جيّدًا للأشخاص الذين نحن معتمدون عليهم كثيرًا في

حياتنا. قد نجد مشقّة في معرفة الفترة من حياتنا التي نحن فيها الآن، وفي معرفة من نتعامل معهم الآن حقًّا، وفي تحديد السلوك الذي يستحقّه منا الشخص الذي هو أمامنا الآن. أحيانًا، قد يكون وجودنا في الزمن الحاضر أمرًا معقّدًا قليلًا!

ليس رابح مختلفًا كثيرًا عن زوجته. فهو بدوره يفسّر الحاضر دائمًا من خلال تعرّجات ماضيه وتشوّهاته، وتحرّكه بواعث غريبة ودوافع عتيقة لا يستطيع شرحها لنفسه، ولا لكيرستن.

فعلى سبيل المثال، ما الذي يمكن أن تعنيه عودته من المكتب إلى البيت في إدنبره، ليجد في الصالة كومة ملابس كبيرة كانت كيرستن قد أرادت أخذها إلى محل تنظيف الملابس، لكنها نسيت أمرها. وهي تقول الآن إنها ستجد حلًّا للأمر في الأيام القليلة القادمة.

بالنسبة إلى رابح، هناك إجابة سريعة على هذا الأمر: هذه بداية لحالة فوضى تثير في نفسه ذعرًا. ويفكّر في أن من الممكن أن تكون كيرستن قد تعمّدت فعل هذا لكي تزعجه وتجرحه. لا يستطيع قبول نصيحتها بأن يترك كومة الملابس مكانها حتى صباح اليوم التالي، بل يأخذها بنفسه (إنها السابعة ليلًا)؛ ثم يعود ويمضي نصف ساعة في تنظيف بقية الشقّة، وهو يُصدر قدرًا كبيرًا من الضجيج، ويهتم اهتمامًا خاصًّا بترتيب الفوضى التي وجدها في درج أدوات الطعام.

ليست «الفوضى» أمرًا هيّنًا في ذهن رابح. فبسرعة كبيرة جدًّا، يقيم لا وعيُه صلة بين أشياء صغيرة في الحاضر، يرى أنها ليست في أماكنها الصحيحة وبين أمور كبيرة جدًا في الماضي كانت في

وضع غير سليم أبدًا... أشياء من قبيل الهيكل المشوّه لفندق فينيسيا إنتركونتيننتال في بيروت الذي كان يراه من نافذة غرفته، والسفارة الأميركية المنسوفة التي كان يمر بها كل صباح، والكتابات الجدارية المخيفة التي كانت تظهر دائمًا على جدار مدرسته، وما كان يسمعه في ساعات متأخّرة من الليل من صياح بين أبيه وأمه. لا يزال إلى اليوم يرى -بوضوح تام- المعالم العامّة القاتمة لسفينة اللاجئين القبرصية التي أخذته أخيرًا، مع والديه، وأبحرت بهم مبتعدةً عن المدينة في ليلة مظلمة من ليالي شهر كانون الثاني؛ ولا يزال يتذكّر شقّتهم التي سمعوا في وقت لاحق أنها نُهبت ثم صارت مقرًّا لعددٍ من المقاتلين الدروز (قيل إن غرفته صارت مستودعًا للذخيرة). إنّ للتاريخ الماضي نصيبًا كبيرًا في الهستيريا التي تصيبه اليوم.

قد يعيش رابح، في الوقت الحاضر، في جزء من العالم أكثر هدوءًا وأمانًا، ومعه زوجة لطيفة من حيث الجوهر وملتزمة بالوقوف إلى جانبه. لكن بيروت والحرب وأكثر الجوانب بشاعة في الطبيعة البشرية تظلّ في عقله أخطارًا، وإن تكن واقعة خارج مجال رؤيته... تظلّ أخطارًا مستعدّة دائمًا لأن تلوّن تفسيره لمعنى كومة ملابس أو لمعنى «خلل تنظيمي» في دُرج أدوات الطعام.

عندما تكون عقولنا في حالة «التحويل»، فإننا نفقد قدرتنا على منح الناس والأشياء حقَّهم في أن يُفَسَّرَ الشك لصالحهم. ننطلق بسرعة ولهفة إلى أسوأ الاستنتاجات التي أملاها الماضي علينا ذات يوم.

وللأسف، فإن من الممكن أن يبدو مهينًا لنا إن نحن أقرّينا بأننا نعود إلى ما كان في حياتنا من اضطرابات في

زمن مضى لكي نفرض تفسيرًا على ما يحدث الآن: من المؤكّد أننا نعرف الفرق بين زوج وأب مختفٍ، بين تأخّر الزوج قليلًا وهجران الأب الدائم، بين بعض الملابس القذرة وحرب أهلية!

تتجلّى مسألة إعادة المشاعر والانفعالات إلى أماكنها الحقيقية باعتبارها واحدة من أدقّ مهمات الحبّ وأكثرها ضرورة. فقبول مخاطر «التحويل» يعني تفضيل العطف والتفهم على الشعور بالغضب والمَيْل إلى إطلاق الأحكام. يستطيع شخصان التوصّل إلى رؤية أن الانفجارات المفاجئة للقلق، أو للعدوانية، يمكن ألّا تكون ناتجة دائمًا عن أمر يجري بينهما؛ وبالتالي، فمن غير الجائز مقابلتها بالغضب أو بكبرياء جريح. إن التهجم والإدانة قادران على التنحّي جانبًا لكي يحل العطف والتفّهم محلهما.

مع عودة رابح من رحلته إلى إنكلترا، تكون كيرستن قد ارتَدَّت إلى بعض العادات التي نشأت لديها أيام كانت تعيش وحيدة. تشرب البيرة أثناء استحمامها، وتضع حبوب الإفطار في فنجان لكي تتناولها في السرير. إلا أن الرغبة المتبادلة بينهما، وقدرتهما على التقارب، سرعان ما تفرضان نفسيهما، تبدأ المصالحة -كما يحدث أكثر الأحيان- بنكتة صغيرة تكون إشارة إلى ذلك القلق الخبيء.

يقول رابح: «تؤسفني مقاطعتك، يا سيدتي. لكني أظنني كنت أعيش هنا».

«أنت مخطئ بالتأكيد. لا بد أنك تبحث عن الشقة 34 أ، لكن هذه الشقة هي 34ب. هل ترى الآن أن...».

«أظننا تزوجنا ذات يوم. هل تتذكّرين هذا؟ وهذا هو طفلنا دوبي، هناك عند الزاوية. إنه هادئ جدًّا. أظنّه يحب أمّه».

تنتقل كيرستن إلى نبرة جدّية وتقول: «إنني آسفة يا رابح. يصيبني شيء من الجنون عندما تذهب. يبدو لي أنني أحاول أن أعاقبك لأنك تركتني. وهذا سخف مني لأنك تحاول زيادة دخلنا من أجل تسديد أقساط البيت. سامحني. أكون مجنونة قليلًا بعض الأحيان».

يكون لكلمات كيرستن أثر مريح فوري. تفيض نفس رابح حبًا لزوجته التي لا تحسن التعبير عن نفسها، والتي لا تحاول تبرير كل شيء لنفسها. إن عمق بصيرتها أفضل هدية ترحيب بعودته إلى البيت يمكنها تقديمها إليه، وأعظم ضمانة لمتانة الحب الذي بينهما. يقول في نفسه إنها ليست مضطرّة إلى أن تكون كاملة، وإنه ليس مضطرًا إلى أن يكون كاملًا، يكفي أن يعطي أحدهما الآخر إشارة صغيرة لتذكيره بأن العيش معه يمكن أحيانًا أن يكون أمرًا صعبًا.

لسنا في حاجة إلى أن نكون عقلانيين دائمًا حتى تسير علاقاتنا سيرًا حسنًا؛ فكل ما تتعين علينا إجادته هو تلك القدرة -من حين لآخر- على الإقرار عن طيب خاطر بأننا قد نكون مجانين بعض الشيء، في هذا الأمر أو ذاك.

ملامةٌ غير محدّدة

في ذكرى زواجهما السنوية الثالثة، يفاجئ رابح كيرستن برحلة إلى براغ في عطلة نهاية الأسبوع. ينزلان في فندق صغير قريب من كاتدرائية القديسين كيريل وميتودي، ويلتقطان لنفسَيْهما صورًا على جسر تشارلز ويتحدّثان عن حياتهما معًا، ويتأمّلان في سرعة انقضاء السنين، ويزوران قصر ستينبرغ ويلقيان نظرة على الفن الأوروبي المبكر. وهناك، تتوقّف كيرستن أمام لوحة صغيرة للعذراء والطفل من القرن السادس عشر.

تقول متأمّلة: «ما أفظع ما حدث آخر الأمر لطفلها الجميل، كيف يستطيع أي إنسان أن يتجاوز ذلك؟».

يقول رابح في نفسه إن لها طريقتها في التفكير بنفسها من جديد، حتى في أكثر الأشياء أساسية. ففي نظرها، ليست هذه اللوحة موضوعًا للتحليل الأكاديمي المنضبط، بل هي صورة أولية لأسوأ فاجعة يمكن أن تصيب أمًّا. ولأنها كذلك، فهي تفجّر فيها تعاطفًا لا يقل راهنية وحيوية عما يمكن أن تعبّر عنه لشخص فقد لتوّه ابنًا مات في حادث دراجة على طريق فورت ويليام.

كيرستن توّاقة إلى زيارة حديقة براغ. لقد مضى زمن طويل منذ أن أمضى كل منهما وقتًا بالقرب من الحيوانات، اللهم إلا ما يحدث دائمًا من مرور عابرٍ بقطة أو كلب. أول ما يفكران فيه هو أن الحيوانات في تلك الحديقة تبدو غريبة جدًا. الجمل برقبته التي

تشبه حرف U، وسناميه الشبيهين بهرمين من الفراء على ظهره، وأهدابٌ على عينيه اللتين تبدوان كأنهما مغطاتان بالماسكارا، وأسنانه العلوية الصفراء الناتئة. تقدّم إليهما نشرة مجانية بعض المعلومات: تستطيع الجِمال أن تمضي عشرة أيام في الصحراء من غير شرب. أسنامها ليست مليئة بالماء كما يظن الناس عادة، بل بالدهون. وأهدابها مصممة بحيث تحمي عيونها عندما تهب عواصف رملية. وأكبادها وكِلاها قادرة على امتصاص كل قطرة ماء في طعامها مما يجعل روثها قاسيًا وجافًا.

إن كل نوع من الحيوانات متميّز بذاته لأنه نشأ وتطوّر بحيث يعيش في بيئة بذاتها، هذا ما تقوله النشرة. هذا ما يجعل أذني فأر ملاغاشي القافز العملاق كبيرتين هكذا، وما يجعل قائمتيه الخلفيتين قويتين. وهو ما يجعل سمكة القط ذات الذيل الأحمر التي تعيش في الأمازون قادرة على تمويه نفسها بخط على بطنها يبدو له مظهر الرمل.

تقول كيرستن: «بالطبع، لكن هذه التغيّرات غير مفيدة عندما تصير حديقة براغ موطنك الجديد، فأنت تعيش في غرفة فندق أسمنتية تأتيك وجباتك إليها ثلاث مرات في اليوم عن طريق باب منزلق؛ ولا تجد لنفسك من تسلية غير النظر إلى السائحين. تصير سمينًا، سريع الغضب، مثل هذا الأورانج أوتان الحلو المسكين المكتئب، فهو مخلوق للعيش في غابات بورنيو وليس مسرورًا كثيرًا بأن يعيش هنا».

يضيف رابح الذي تزعجه قليلًا شدّة اهتمام زوجته بهذا الكائن الذي يشبه الإنسان، وشدة عطفها عليه: «لكن، قد لا يكون البشر

مختلفين كثيرًا. فلدينا نحن أيضًا دوافع لعلّها كانت معقولة خلال تطوّرنا في سهوب أفريقيا، لكنها لا تفعل الآن غير إزعاجنا».

«مثل ماذا؟».

«مثل أن نكون شديدي الانتباه إلى الأصوات في الليل، فهذا يمنعنا الآن من النوم عندما ينطلق صوت جهاز الإنذار من سيارة في الشارع؛ أو ذلك المَيل إلى محبّة كل ما هو حلو المذاق، فهو يجعلنا نزداد سمنة لأن من حولنا الآن مغريات كثيرة؛ أو ذلك الإحساس بأن المرء شبه مجبَر على النظر إلى سيقان نساء غريبات في شوارع براغ، وهذا ما يزعج زوجاتنا ويؤذيهن...».

«يا سيد رابح!... أنت تستخدم نظرية داروين لكي تجعلني أشعر بالحزن عليك لأنك لست متزوجًا من سبع نساء، ومعهن آيس كريم آخر...».

تحطّ بهما الطائرة آخر الأمر في مطار إدنبره في مساء يوم الأحد. تكون حقيبة كيرستن ثاني حقيبة تظهر على السير المتحرّك. إلا أن حظ رابح ليس مثل حظّها. وأثناء انتظارهما ظهور حقيبته، يجلسان على مقعد قريب من محل مغلق لبيع السندويتشات. الطقس دافئ دفئًا غير معتاد في هذا الوقت من السنة. تتساءل كيرستن بصوت كسول عما سيكون عليه الطقس يوم غد. يخرج رابح هاتفه من جيبه ويتفقّد حالة الطقس. نهار مشمس كلّه، ودرجة حرارة تبلغ 17 مئوية: رائع! في تلك اللحظة تمامًا، يرى حقيبته على السير فينهض ويأتي بها ويضعها على عربتهما. يأخذان الباص إلى مركز المدينة قبيل منتصف الليل. من حولهما مسافرون مرهَقون مثلهما، سارحون في أفكارهم، أو نائمون في مقاعدهم. وفجأة، يتذكّر رابح

أن عليه كتابة رسالة إلى واحد من زملائه في العمل، فيضع يده في جيب سترته الأيمن لكي يتناول الهاتف، ثم يبحث في جيبه الأيسر، ثم ينهض عن الكرسي ويفتش في جيوب بنطلونه.

يسأل كيرستن بنبرة قلقة: «هل هاتفي معك؟».

كيرستن نائمة، تستيقظ مجفلة: «ليس معي، بالطبع، يا عزيزي. لماذا يكون هاتفك معي؟».

يخرج من المقعد ويُنزل حقيبته عن الرف ويبحث في جيوبها الخارجية. حقيقة مؤسفة تتضح له شيئًا فشيئًا. لقد ضاع هاتفه، وضاع معه كل اتصال له بالعالم.

تقول كيرستن: «لا بد أنه سُرق منك في مكان ما في صالة الأمتعة. أو لعلك نسيته في مكان ما. يا مسكين! نستطيع الاتصال بالمطار عندما يأتي الصباح لكي نعرف إن كان أحد قد وجده وسلّمه هناك. لكن شركة التأمين ستدفع لك ثمنه على أية حال. مدهش حقًا أنّ هذا لم يحدث لأي منا من قبل. لكن رابحًا لا يرى أي شيء مدهش في هذا الأمر.

تضيف كيرستن مبتسمة: «يمكنك أن تستخدم هاتفي إن كنت تريد النظر إلى شيء».

رابح في حالة غضب شديد. هذه بداية كابوس إداري. لا بد له الآن من الوقوف في صفوف انتظار طويلة حتى يقدّم بلاغًا عن ضياع هاتفه. وسيكون عليه بعدها أن يقدّم أوراقًا وأن يملأ استمارات كثيرة. لكن أمرًا غريبًا يحدث لأن غضبه ليس منصبًّا على ضياع الهاتف وحده: الظاهر أن قسمًا منه قد بدأ يجد طريقه إلى زوجته. ففي حقيقة الأمر، هي من بدأ يتحدّث عن الطقس، فجعله

هذا يُخرج هاتفه لكي يتفقد حالة الطقس غدًا. وفوق هذا، لم يكن لهدوء كيرستن وتعاطفها من أثر في نفسه غير انتباهه إلى تأكيدها على حسن حظها وخلوّ بالها بالمقارنة معه. ومع مواصلة الباص طريقه متّجهًا إلى جسر ويفرلي، يتّخذ جزء مهم من هذا المنطق مكانه في عقل رابح: على نحو ما، كل ما يحدث من قلق وألم ومشاحنة، كل جزء صغير منه، ليس إلا ذنبها هي. وهي الملومة في كل شيء، بما في ذلك صداعه الذي صار الآن ضاغطًا على صدغيه كأنه ملزمة. يستدير مبتعدًا عنها ويتمتم قائلًا: «كنت أعرف منذ البداية أننا ما كان ينبغي أن نذهب في هذه الرحلة المجنونة التي لا لزوم لها». فيبدو قوله هذا طريقة حزينة أخرى، غير منصفة، في تلخيص نتائج احتفالهما بهذه المناسبة المهمّة، ذكرى زواجهما.

يصعب أن يفهم المرء هذه الصلة التي أقامها رابح؛ ويصعب أن يتعاطف معها. ليس من مهمة كيرستن أبدًا أن تحرس هاتف زوجها. وهي غير مسؤولة عن كل جانب من جوانب حياة هذا الإنسان الناضج. لكن الأمر يتّخذ عند رابح شكلًا منطقيًا. فعلى نحو ما (وهذه ليست بالمرة الأولى)، تكون زوجته مسؤولة عن كل شيء يحدث.

إن من أكثر الافتراضات عن الحب التي تبدو في الظاهر لا عقلانية وغير ناضجة وداعية إلى الأسف، لكنها شائعة جدًا، أنّ الشخص الذي نذَرْنا أنفسنا له لا يكون مجرّد مركز وجودنا العاطفي والانفعالي فحسب، بل يكون أيضًا -نتيجة ذلك، وبطريقة شديدة الغرابة وغير منصفة أبدًا، بل حتى جنونية من الناحية الموضوعية- مسؤولًا

عن كل ما يحدث لنا، بحَسَنه وقبيحه. ها هنا تكمن مزيّة الحب، تلك المزية الغريبة، غير الصحّية.

وعلى مر السنين، كانت «غلطتها أيضًا أنه انزلق فسقط في الثلج، وأنه أضاع مفاتيحه، وأن القطار الذاهب إلى غلاسغو قد تعطّل، وأنه دفع غرامة سير نتيجة السرعة الزائدة، وأن في قميصه الجديد لصاقة تخدش رقبته، وأن الغسالة لا تصرّف الماء جيدًا، وأنه لا يمارس مهنة العمارة على المستوى الذي كان يحلم به، وأن جيرانهم الجدد يشغِّلون الموسيقى بصوت مرتفع في وقت متأخّر من الليل، وأنهما لا يكادان يحظيان بأية أوقات ممتعة. ولا بد من التشديد أيضًا على أن قائمة كيرستن بدورها، ضمن هذه الفئة نفسها، ليست بأقل من قائمته طولًا ولا بأكثر منها منطقيةً: رابح هو السبب في أنها لم تعد ترى أمّها كما ينبغي، وفي أن جواربها تُنسّل دائمًا، وفي أن صديقتها جينا لم تعد تتّصل بها أبدًا، وفي أنها متعَبة طيلة الوقت، وفي أن مقص الأظافر قد ضاع، وفي أنهما لم يعودا يحظيان بأية أوقات ممتعة...

إن العالم يزعجنا، ويخيّب آمالنا، ويصيبنا بالإحباط، ويؤذينا بطرق لا حصر لها في كل خطوة نخطوها. وهو يؤخّرنا، ويرفض محاولاتنا الإبداعية، ويحرمنا من المكافآت، ويكافئ الحمقى، ويسحق طموحاتنا على شواطئه الكالحة التي لا تعرف الرحمة. وعلى نحو يكاد لا يتغيّر، لسنا قادرين على شكاية أيٍّ من هذا كله. من الصعب كثيرًا أن نعرف من ينبغي أن نلومه حقًّا. ثم إن من الخطير كثيرًا أن نتذمّر حتى عندما نعرف المتسبّب بهذا (وإلا طُردنا من العمل، أو صرنا أضحوكة).

لكنّ لدينا شخصًا واحدًا نستطيع أن نكشف أمامه عن كل ما لدينا من مظالم، شخصًا واحدًا يمكن أن يكون متلقّيًا لكل ما يتراكم لدينا من غضب إزاء ما في حياتنا من ظلم ونواقص. وبطبيعة الحال، فإن صبَّ اللوم على هذا الشخص أمر في غاية السخف! لكن قول هذا فيه سوء فهم للقواعد التي يعمل الحب وفقًا لها. فلأننا لا نستطيع الصراخ على القوى التي هي مسؤولة فعلًا، فإننا نغضب على من نكون واثقين من أنه أكثر من يتسامح معنا عندما نلومه. إننا نصبّ غضبنا كلّه على الشخص الأكثر لطفًا وتعاطفًا معنا، والأكثر إخلاصًا وقربًا لنا، على من يكون مستبعَدًا إلى أقصى حد أن يؤذينا، لكن من المرجَّح كثيرًا أن يبقى معنا ونحن منهالون عليه من غير رحمة.

ليس للاتهامات التي نوجّهها إلى من نحب أي معنى بعينه. لا يمكن أن نقول لأي شخص آخر على وجه الأرض تلك الأشياء غير المنصفة التي نقولها لمن نحبه. إلا أن اتهاماتنا الجنونية برهان فريد على الثقة والعلاقة الحميمة؛ وهي عَرَضٌ من أعراض الحب نفسه ـ إنها، بطريقتها الخاصة، إعلان «مُختلّ» عن الالتزام. ففي حين يمكن أن نقول شيئًا منطقيًا ومهذّبًا لأي شخص غريب، فإننا لا نكون مقتنعين من كل قلوبنا بأننا يمكن أن نجرؤ على أن نكون غير منطقيين إلى حدٍّ فظيعٍ، بل من غير أية حدود، إلا أمام الحبيب.

بعد بضعة أسابيع من عودتهم من براغ، تظهر مشكلة جديدة أكبر كثيرًا من كل ما سبق. يدعو إيوين إلى اجتماع لفريق العمل في

الشركة. يكاشفهم الرجل بأن شِحّ العمل قد عاد يصيب الشركة من جديد بعد تسعة شهور طيبة. لن يكون كل من يعمل في الشركة الآن قادرًا على البقاء فيها إلا إذا حصلتْ على مشروع ممتاز في وقت قريب جدًا. وفي الممر، بعد الاجتماع، ينتحي إيوين برابح جانبًا.

يقول له: «سوف تفهم، بالطبع، أن الأمر ليس شخصيًا على الإطلاق. أنت رجل جيد، يا رابح!».

يقول رابح في نفسه متأملًا: إن على من اعتزم صرفك من العمل أن يكون على قدر من اللباقة والجرأة يمنعه من محاولة جعلك تحبه!

يلقي به خطرُ البطالة في حالة من الكآبة والقلق. يعرف أن لا طائل من محاولة العثور على عمل آخر في هذه المدينة. وعلى الأرجح، سوف يكون عليه أن ينتقل. لكن، ماذا ستفعل كيرستن؟ إنه معرّض لخطر الفشل في القيام بأهم مسؤولياته بصفته زوجًا. كم هو جنون منه، طيلة تلك السنين كلها، ظَنُّهُ أنه يستطيع أن يبني لنفسه مسارًا مهنيًا يجمع بين الاستقرار المالي والرضا الإبداعي! لقد كان هذا مزيجًا من الطفولية والمشاكسة، مثلما كان أبوه يقول دائمًا.

في هذا اليوم، تأخذه خطواته في طريق عودته إلى البيت في شارع يمر بكاتدرائية سانت ميري للروم الكاثوليك. لم يدخل هذه الكنيسة من قبل -كانت واجهتها تبدو له دائمًا كئيبة وغير مرحِّبة- إلا أن مزاجه المشوّش الذي استبدّ به الذعر، يجعله يقرِّر أن يلقي نظرة، فينتهي به الأمر إلى ما يشبه محرابًا بالقرب من صحن الكنيسة، حيث يقف أمام لوحة ضخمة لمريم العذراء التي تنظر إليه بعينين حزينتين حانيتين. يرى في تعبير وجهها المتعاطف شيئًا يَمسُّ نفسه، وكأنها

عرفت شيئًا عن إيوين فرانك وعن تراجع عمل الشركة، فأرادت أن تطمئنه إلى أنها لا تزال واثقة به. أحسّ دموعًا تطفر من عينيه أمام هذا التضاد بين الحقائق الصعبة في حياته، وبين اللطف والرقة في تعبير وجه هذه المرأة. يبدو عليها أنها تفهمه، لكنها لا تدينه. تصيبه الدهشة عندما ينظر إلى ساعته ويكتشف أنه واقف هناك منذ ربع ساعة. يقول في نفسه إن من الجنون أن يجد شخص مُلحد ذو منبت إسلامي نفسَه واقفًا في كنيسة تنيرها الشموع، أمام صورة لشخصية مقدّسة أجنبية لكي ترى دموعه وحيرته. لكن خياراته قليلة، فليس هناك أشخاص كثيرون باقون على إيمانهم به. لقد صار ثقل المسؤولية الأكبر واقعًا على كاهل زوجته، وسوف يعني هذا أنه يطلب الكثير جدًا من إنسانة عادية فانية ليست من القديسين.

كيرستن في البيت. إنها تُعدّ طعام العشاء: كوسا بالطريقة التي تعلّمتها من رابح، ومعها سلطة جبنة فيتا مع الحبق. تريد معرفة كل ما لديه من تفاصيل عن أزمة الشركة. متى أخبرهم إيوين بهذا؟ وبأية طريقة عبّر عنه؟ وكيف كانت استجابات الآخرين؟ هل سيُعقد اجتماع آخر عما قريب؟ يبدأ رابح الإجابة عن أسئلتها، لكنه لا يلبث أن يقول بنبرة حادّة: «لماذا أنت مهتمة بهذه التفاصيل التي لا قيمة لها؟ إن الأمر مثلما قلت لك: مصيبة كبيرة».

يرمي منديل الطعام، ثم ينهض ويبدأ السير في الغرفة. تريد كيرستن معرفة تفاصيل القصّة كلّها، خطوة بخطوة، لأن هذه طريقتها في التعاطي مع القلق. إنها تتوقّف عند المعلومات كلّها، وترتبها في ذهنها. لا تحب أن تكشف عن شدّة قلقها. التحفّظ والتركيز على الجانب الإداري هو أسلوبها في التعامل مع هذه

الأمور. رابح لديه رغبة في الصراخ وفي تحطيم شيء ما. ينظر إلى زوجته الجميلة، اللطيفة التي صار عبئًا عليها. تمرّ بهما في السنة الواحدة، ثماني مرات على الأقل، مواقف تشبه قليلًا ما هم فيه الآن... تقع الكوارث في العالم فيأتي بها رابح إلى البيت ويضعها كومة متشابكة أمام كيرستن.

تأتي إلى حيث يقف عند الموقد، وتضم كفّه بين كفَّيْها، وتقول له بنبرة مخلصة دافئة: «سيكون كل شيء على ما يرام». يعرف كل منهما أن هذا قد لا يكون بالضرورة صحيحًا.

نحن نلقي مطالب كثيرة جدًا على كاهل شركائنا، ونصير غير منطقيين في علاقتنا بهم، لأن لدينا ثقة بأن شخصًا يفهم الجوانب الغامضة فينا ويخلّصنا وجوده من كثير جدًا من محَننا، لا بد أن يكون قادرًا أيضًا، بطريقته، على إيجاد حلولٍ لكل شيء في حياتنا. إننا نبالغ في قدرات الشخص الآخر بنوعٍ عجيب من الإجلال ـ قد يمكن تعقُّب هذا الأمر في حياة الشخص البالغ رجوعًا إلى طفولته، أي إلى ما يبدو للطفل قدرات عجائبية مَهولة عند أبيه وأمه.

في عين رابح الطفل البالغ ست سنين، كانت أمه تبدو كأنها من الآلهة: كانت قادرة على العثور على دُبّه عندما يضيع، وتحرص دائمًا على أن يكون الحليب بالشوكولاته الذي يحبّه جاهزًا في البراد، وتُلبسه ثيابًا نظيفة كل صباح، وتستلقي معه في السرير فتشرح له سبب غضب أبيه وصراخه... كانت تعرف كيف تُبقي الأرض دائرةً حول محورها الصحيح.

تعلّم كل من رابح وكيرستن كيف يُهدِئ كل منهما مخاوف الطفل المختبئ داخل شريكه الراشد. ولهذا يحب كل منهما الآخر. لكنهما ورثا في مجرى هذه العملية، من غير أن يعرفا، شيئًا من تلك الثقة الخطيرة، غير المنصفة، شيئًا من الثقة الساذجة سذاجةً حلوة التي يضعها الأطفال في آبائهم وأمهاتهم. هناك جزء بدائي في كيرستن ورابح الكبيرين، يظلّ مصرًا على أن الحبيب لا بد أن يكون قادرًا على التحكّم بالعالم والتأثير فيه أكثر مما يستطيعه أيُّ بشري آخر. وهذا ما يولّد ذلك الغضب كلّه، وذلك الإحباط كلّه عندما تظهر المشكلات على الرغم من تلك القدرة العجيبة.

تضمه كيرستن بين ذراعيها. تقول له: «لو كنت قادرة على فعل أي شيء لفعلته». يجيبها رابح بنظرة حزينة لطيفة مدركًا تلك العزلة التي تواجهه -وكأنه يدرك هذا أول مرة- تلك العزلة التي لا قِبل للحب نفسه باختراقها. ليس غاضبًا منها؛ بل هو مذعور، محطَّم، نتيجة ما حدث. يعرف أن عليه، حتى يكون زوجًا أفضل، أن يتعلّم كيف يقلل تلك الآمال الخاطئة والهدّامة التي يعلّقها على زوجته التي تحبّه. ويعرف أن عليه أيضًا أن يكون أكثر استعدادًا لتوقُّع أن يكون وحيدًا تمامًا حيث يلزم هذا.

مكتبة
t.me/t_pdf

تعليم وتعلُّم

يظلّ رابح في عمله مع أن الأمان الحقيقي يظل أمرًا بعيد المتناول. يتزوج القسم الأكبر من أصدقائه وأصدقاء كيرستن ويبدأون إنجاب الأطفال، وهذا ما يجعل حياتهما الاجتماعية تصير أكثر تركيزًا على أولئك الأصدقاء المتزوجين. لديهما خمسة أو ستة أزواج ممن يرياهما على نحو منتظم، وعادة ما يكون هذا في بيتهما أو في بيوت الآخرين عندما يلتقون على العشاء أو الغداء (مع وجود الأطفال الرّضّع) في عطلات نهاية الأسبوع.

إن في هذه العلاقات دفئًا وروحًا رفاقية، لكن فيها أيضًا -تحت السطح- قدرًا لا يستهان به من المباهاة والمقارنة. وكثيرًا ما تكون فيها إلماحات ذات نكهة تنافسية... إلماحات إلى الأعمال والعطلات وخطط تحسين البيوت وما يحقّقه الأطفال من تقدّم.

يتخذ رابح موقف عدم الاكتراث في ما يخص تلك المنافسة والحرص على استعراض الإنجازات. يُقرّ لكيرستن صراحة بأنهما ليسا بالزوجين الأعلى منزلة، لكنه يضيف سريعًا إن هذا أمر لا أهمية له على الإطلاق: ينبغي أن يكونا مسرورين بما لديهما. ليسا مقيمَين في قرية صغيرة كلها نمائم!... إنهما قادران على أن يعيشا بالطريقة التي تعجبهما.

في يوم سبت، تقارب الساعة الواحدة صباحًا وهما لا يزالان في المطبخ يغسلان الأطباق. تقول كيرستن، أثناء تناول البودينغ،

بأن كلير وزوجها كريستوفر سوف يستأجران بيتًا في اليونان لقضاء الصيف هناك. فيلا فيها بركة سباحة وحديقة فيها بستان زيتون. سوف تكون مقيمة هناك طيلة تلك الفترة في حين يأتي زوجها ويذهب. تقول إن هذا يبدو شيئًا كأنه من خارج هذا العالم؛ لكن من المؤكّد أن تكلفته كبيرة جدًا... حقًا، يجني الجرّاحون هذه الأيام مالًا كثيرًا إلى حدٍّ مدهش.

يثير هذا الكلام انزعاج رابح. لماذا تهتم زوجته بهذه الأمور؟ ولماذا لا تكون عطلاتهما التي يمضيانها في بيت صغير في الجزر الغربية أمرًا كافيًا؟ كيف يمكن أن يستطيعا تحمُّل حتى جزء بسيط من تكلفة استئجار فيلا اعتمادًا على راتبيهما؟ ليس هذه أول مرة يسمع منها كلامًا من هذا القبيل. منذ أسبوع، أو نحو ذلك، كان هناك كلام عن معطف جديد وجدتْ نفسها مضطرة إلى صرف النظر عن شرائه؛ وأيضًا عبارات إعجاب قالتها عن عطلة نهاية أسبوع أمضتها ميري في روما بدعوة من جيمس. ويوم أمس فقط، خبر مَهول عن صديق وصديقة يرسلان أطفالهما إلى مدرسة خاصة!

يتمنّى رابح أن تتخلّى زوجته عن هذه الميول. ويريدها أن تكون معتزة بنفسها من غير النظر إلى موقعها في هذا النظام من المقارنات التي لا معنى لها. وأن تقدّر الغنى غير المادي الذي يملأ حياتهما المشتركة. يتمنى أن تُقدّر ما لديها بدلًا من أن تتألم توقًا إلى ما ينقصها. لكن، وبما أن الوقت متأخر كثيرًا عن موعد النوم المعتاد، ولأن هذا موضوع شائك لديه -في ما يتعلق به- الكثير مما يقلقه، فإنه يجيبها بطريقة أقل إقناعًا مما يحب أن تكون.

«حسنًا، يا حبيبتي، يؤسفني كثيرًا أنني لست جرّاحًا مهمًّا لديه

فيلّا...». يسمع نبرة التهكم التي في صوته ويعرف على الفور الأثر الذي سيكون لها، لكنه لا يستطيع كبح نفسه... «من المؤسف أنك عالقة معي هنا في هذه الأحياء الفقيرة».

تجيبه كيرستن: «لماذا تهاجمني هكذا؟... في هذا الوقت المتأخّر! لم أقل إلا أنهما ذاهبان في عطلة، يا مجنون. لكنك تهاجمني على الفور، من غير سبب، في منتصف الليل، كأنك كنت تنتظر فرصة لكي تنقضَّ علي! أتذكّر زمنًا لم يكن لديك هذا الميل إلى مهاجمة كل ما أقوله».

«لست أنتقدك. إنني حريص عليك، فقط».

إن فكرة محاولة «تعليم» الحبيب بعض الأشياء تثير، في حدّ ذاتها، إحساسًا بممارسة نوع من رعاية متعالية، رعاية في غير محلها، بل هي منذرة بالشؤم أيضًا. إذا كنا نحب شخصًا حبًا حقيقيًا، فلا محل أبدًا للرغبة في أن يتغيّر. المذهب الرومانسي واضح في هذا الشأن: ينبغي أن ينطوي الحب الحقيقي على قبول وجود الشريك بكليّته. هذا الالتزام الأساسي بالقبول اللطيف والحسن هو ما يجعل شهور الحب الأولى عاطفية جدًا. ففي إطار علاقة جديدة، تلقى نواحي هشاشتنا وضعفنا تعاملًا كريمًا. فحياؤنا، وارتباكنا، وخراقتنا، تكون كلّها مثيرةً للحب والإعجاب (مثلما كانت في طفولتنا) بدلًا من أن تكون سببًا للسخرية أو الشكوى. لا تُفسّر جوانبنا الأكثر «صعوبة» إلا من خلال التعاطف معنا والترفّق بنا.

تنشأ من هذه اللحظات قناعة جميلة، لكنها خطيرة، بل

حتى متهوّرة: إذا كنت محبوبًا على الوجه الصحيح فهذا يعني أنك مقبول دائمًا بكل ما فيك.

يمنح الزواج رابحًا وكيرستن فرصة لأن يدرس كل منهما شخصية الآخر دراسة تفصيلية إلى حدٍّ استثنائي. ليس متاحًا لأحد في حياتهما بعد أن كبرا هذا الوقت كلّه لتفحّص سلوكهما ضمن هذا المجال الضيّق مكانيًا، وتحت تأثير ظروف كثيرة متغيّرة مشبعة بالمتطلبات: في وقت متأخر من الليل؛ وفي الصباح لحظة الاستيقاظ؛ في حالات القلق والذعر في ما يتصل بالعمل؛ وعندما يخيب أمل المرء في الأصدقاء؛ وفي لحظات الغضب لضياع شيء من لوازم البيت.

وانطلاقًا من هذه المعرفة المتكوّنة، يصير لدى كل منهما طموح في ما يتّصل بمقدّرات الآخر. يستطيعان أن يريا عن قرب الخصال المهمّة المفقودة، تلك الخصال التي يعتقد الواحد منهما بأن من الممكن تطوّرها لدى الآخر إذا ما جرت الإشارة إليها. يعرف كل منهما ما هو خاطئ لدى الآخر أكثر مما يعرفه أي شخص آخر، ويعرف أيضًا كيف يمكن أن يتغيّر. إن في علاقاتهما مشروع تطوّر وتحسّن... مشروع سرّي، لكنه موجود عند كل منهما.

على العكس مما تشير إليه المظاهر، يحاول رابح مخلصًا (بعد انتهاء دعوة العشاء) أن يُحدث ارتقاءً في شخصية زوجته التي يحبّها. لكن الأسلوب الذي اختاره متميز حقًا: يصف كيرستن بأنها مادّية ويصرخ عليها، ثم يصفق الباب بعنف مرتين.

يقول بنبرة مرارة مخاطبًا كيرستن الواقفة الآن عند المغسلة تنظف أسنانها: «كل ما يبدو أنك مهتمة به هو كم يكسب أصدقاؤنا

من مال، وكم هو قليل ما نكسبه. عند سماعك تتكلّمين، يمكن لأي شخص أن يظنّك تعيشين في زريبة وتلبسين جلود الحيوانات. لا أريد أن يكون لديك بعد الآن هذا القلق الشديد في ما يخص المال. لقد صرتِ مادّية إلى حدٍّ يسبب الجنون».

يلقي رابح «درسه» باهتياج كبير (الحقيقة أنه صفق الباب بقوة شديدة جدًا)، لا لأنه وحش (مع أنه لن يكون مفاجئًا أبدًا إذا توصّل مراقب خارجي غير متحيّز إلى نتيجة من هذا النوع في تلك اللحظة)، بل لأن لديه إحساسًا بالذعر وبالتقصير: الذعر لأن زوجته التي هي أول أصدقائه في هذا العالم تبدو غير قادرة على فهم نقطة جوهرية في ما يتعلّق بالمال، وغير قادرة على فهم إحساسه بالرضا، وبالتقصير لأنه غير قادر على أن يوفّر لكيرستن ما يبدو الآن أنها شديدة الرغبة فيه (يؤمن في أعماقه بأن رغبتها محقة).

يودّ كثيرًا جدًا أن ترى زوجته الأمور كما يراها هو؛ لكن الحقيقة هي أنه يخسر أية قدرة على جعلها تفعل ذلك.

نعرف عند تعليم التلاميذ، أن ما من شيء يحقّق النجاح غير الصبر والعناية الشديدين. لا يجوز أبدًا أن نرفع أصواتنا، وعلينا أن نكون في غاية البراعة واللباقة. وينبغي أن نتيح قدرًا كافيًا من الوقت لكي يستقر كل درس في أذهان التلاميذ، وينبغي أن نحرص أيضًا على أن تكون كل ملاحظة سلبية نبديها برفق ونعومة مغلفةً بما لا يقل عن عشرة مدائح. وفوق هذا كله، علينا أن نظل هادئين. إلا أن أقوى ضمانة للهدوء هي أن تكون لدى المعلم لا مبالاة نسبية بنجاح درسه أو فشله. من الطبيعي أن يكون

المعلم المخلص راغبًا في أن تسير الأمور سيرًا حسنًا. لكن، إذا ظل تلميذ مصرًا على الإخفاق، في دروس المثلثات مثلًا، فإن هذه مشكلة التلميذ في جوهر الأمر. ينبغي أن تظلّ حالة المعلم المزاجية تحت السيطرة لأن التلاميذ لا يمتلكون سلطة على حياة المعلمين. إنهم غير متحكّمين بكمالهم، وليسوا المحدِّد الأول لإحساسهم بالرضا. إن القدرة على عدم المبالغة في الاهتمام جانب جوهري من جوانب التعليم الناجح المستقر.

إلا أن الهدوء هو -تحديدًا- ما يكون غائبًا عن «غرفة صف» الحب. فبكل بساطة، هناك الكثير مما هو على المحكّ. ليس «التلميذ» مجرّد شخصية عابرة، بل هو (أو هي) التزام طيلة الحياة. ومن شأن الفشل أن يدمّر الوجود كلّه. فلا عجب في أن نكون ميّالين إلى فقدان السيطرة على أعصابنا، وإلى قول أمور خرقاء متعجّلة توحي بقلة الإيمان بمشروعية السعي إلى تقديم النصح، بل حتى بنبل ذلك المسعى.

ولا عجب أيضًا إذا انتهى بنا الأمر إلى ما يخالف أهدافنا مخالفة تامّة؛ وذلك لأن المستويات المتزايدة من الغضب والإهانة والتهديد نادرًا ما تكون عاملًا مفيدًا في تعجيل تطوّر أي شخص. ومن المستبعد أن يصير أي شخص منا أرجح عقلًا أو أفضل إدراكًا لشخصيته نتيجة الانتقاص من شأنه، ولو قليلًا: تصاب كرامتنا بالجرح، ويخضع تقديرنا لذاتنا إلى سلسلة من الإهانات الجارحة. لا نستطيع إلا أن نصاب بالهشاشة والضعف، وأن نتخذ

موقفًا دفاعيًا في مواجهة الهجمات التي تبدو لنا غير منصفة، وفي مواجهة إهانات خرقاء تستهدف طبيعتنا نفسها، بدلًا من محاولات حانية لمعالجة الجوانب المضطربة في شخصيتنا.

لو استخدم رابح أسلوبًا تعليميًا أفضل، فلربما حقّق «درسه» نتيجة مختلفة جدًا. فعلى سبيل البداية، كان عليه أولًا أن يحرص على ذهابهما إلى السرير مباشرة، وعلى أن ينالا قسطًا من الراحة قبل محاولة تناول أي موضوع.

وفي الصباح التالي، يمكن أن يقترح عليها الخروج في نزهة (قد يذهبان إلى حديقة الملك جورج) بعد أن يشتريا قهوة ومعجّنات يتناولانها على مقعد في الحديقة. ينظران إلى أشجار البلوط الضخمة، ويمتدح العشاء الذي أعدته كيرستن. يمتدح أيضًا أمرًا أو أمرين آخرين... مهارتها في التعامل مع تفاصيل سياسات العمل في مكتبها، أو لطفها معه عندما ذهبت بدلًا منه لإرسال ذلك الطرد بالبريد يوم أمس. ثم، بدلًا من أن يوجّه إليها اتهامًا، يتظاهر بذلك السلوك الذي يريد الحديث عنه معها. يمكن أن يبدأ بالقول: «عزيزتي، إنني أجد في نفسي غيرة من بعض الأشخاص الذين نعرفهم. لو لم أدرس العمارة، لكنا قادرين على أن تكون لنا فيلا صيفية، ولأعجبني ذلك من نواحٍ كثيرة. أنا أول من يحبّ الشمس والبحر المتوسط. أحلم بأرضيات رخامية لطيفة البرودة، وبرائحة الياسمين والزعتر في الحديقة. يؤسفني كثيرًا أنني خذلتك وخذلت نفسي». وبعد ذلك، مثلما يفعل الطبيب عندما يهدئ من روع المريض ويلهيه قبل أن يغرس الحقنة في جلده: «لكنّي أريد أيضًا

قول أمرٍ لعلّه يكون درسًا لنا، نحن الاثنين: فنحن محظوظان كثيرًا من عدة نواحٍ أخرى علينا ألّا ننساها أبدًا. نحن محظوظان لأننا معًا، ولأننا عادةً ما نكون مستمتعَيْن بعملنا، ولأننا نعرف كيف نمضي أوقاتًا ممتعة جدًا في عطلاتنا الصيفية المَطيرة في الجزر الغربية في بيت المزرعة الصغير الذي لا يخلو من رائحة روث الحيوانات. أما من ناحيتي، وبصراحة تامة، فسوف أكون سعيدًا حتى بالعيش على هذا المقعد شرط أن تكوني معي».

لكن المشكلة غير مقتصرة على أن رابحًا معلّم فاشل! فكيرستن بدورها ليست تلميذة لامعة. على امتداد تاريخ علاقتهما، فشل كلٌّ منهما فشلًا شاملًا في المهمّتين معًا، التعليم والتعلّم. فعند ظهور أول ما يشير إلى أن أحدهما يتخذ نبرة تعليمية، يفترض الآخر أنه يهاجمه، مما يجعله يُصمّ أذنيه عن سماع «الدرس» ويردّ على ما يسمعه بطريقة عدوانية متهكّمة. وهذا ما يولد بدوره مزيدًا من الشعور بالضيق والتعب في ذهن «المعلم» الذي هو في حالة هشّة أصلًا.

تجيبه كيرستن (هي في السرير، وهي مرهقة أكثر من ذي قبل): «يا رابح، لم يحدث أبدًا في حياتي كلّها أن قال لي أحد إنني ماديّة. والواقع أن أمي قالت لي على الهاتف يوم أمس إنها لا تعرف أحدًا مثلي من حيث تواضعي وقلة اهتمامي بالمال». لقد شعرتْ كيرستن بإساءة كبيرة عند إشارته إلى أنها مهتمة بنمط حياة صديقيهما، وبأنها تحسدهما على تلك الحياة.

«لكن هذا أمر مختلف قليلًا، يا تيكل. أعرف أنها لا تقول لك هذا إلا لأنها تحبّك وترى أنك لا يمكن أبدًا أن تفعلي أي شيء خاطئ».

«أنت تقول هذا فيبدو كأنه مشكلة! لماذا لا تكون أعمى مثلها إن كنت تحبني؟».

«لأنني أحبك بطريقة مختلفة».

«وما تلك الطريقة المختلفة؟».

«إنها الطريقة التي تجعلني راغبًا في مساعدتك حتى تواجهي بعض المشكلات».

«طريقةٌ تعني أنك ستكون كريهًا مزعجًا!».

يعرف رابح أن مسار هذا الحديث قد ابتعد عما كان يريده ابتعادًا هائلًا.

يقول لها: «أنا أحبك فعلًا، إنني أحبك كثيرًا».

«تحبني كثيرًا، إلى درجة تجعلك دائم الرغبة في تغييري. يا رابح، أتمنى أن أفهم...».

إن الدروس المقدّمة بطريقة قاسية تسمح للتلاميذ بأن يرتدّوا إلى فكرة مريحة مفادها أن من يعلّمهم ليس أكثر من شخص مجنون أو مزعج. وبالتالي فهم يستدلّون منطقيًا على أنهم ينبغي أن يكونوا خارج أي انتقاد. عندما نسمع حكمًا قاسيًا قسوة غير معقولة، فقد يجعلنا هذا نشعر (على نحو يمنحنا شيئًا من السلوى والمواساة) بأن شريكنا لا يمكن أن يكون، في الوقت نفسه، شديد القسوة علينا ومحقًا... ولو قليلًا جدًا.

ومن الناحية العاطفية، نقارن بين سلبية الزوج أو الزوجة، والنغمة التشجيعية التي نسمعها من أصدقائنا أو أقربائنا

ممن لم يسبق لهم أبدًا أن وجدوا أنفسهم أمام متطلّبات تشبه ما هو أمامنا.

إن هناك طرقًا أخرى للنظر إلى الحب. يقدم اليونانيون القدامى في فلسفتهم نظرة لا تتمتّع بشعبية كبيرة (وهذا أمر مفيد) إلى العلاقة بين الحب والتعليم. فالحب في رأيهم، أولًا وقبل كل شيء، هو شعور بالإعجاب متّجهٌ إلى الجوانب الأفضل لدى بشري آخر. فالحب هو حالة من الإثارة الناتجة عن المقابلة المباشرة لتلك الصفات الرفيعة.

ينتج عن هذا أن تعمّق الحب يكون مشتملًا دائمًا على رغبة في تعليم (وكذلك في تعلّم) طرق تجعل المرء أفضل من ذي قبل: كيف يصير أقل غضبًا، أو أكثر رحمة، أو أكثر حبًا للتعلّم، أو أكثر جرأة. لا يمكن للمحبّين المخلصين أن يقنعوا بأن يتقبّل أحدهم الآخر على حاله؛ فهذا ما يرقى إلى سوية الخيانة الجبانة الكسول لغاية العلاقة كلّها. سيكون هناك دائمًا شيءٌ من الممكن تطويره في أنفسنا، ومن الممكن جعل الآخرين يتعلمونه.

إذا نظرنا بعيون اليونانيين القدامى إلى المحبين وهم يشيرون إلى ما قد يكون مؤسفًا أو مزعجًا في شخصيات محبّيهم، فليس لنا أن نعتبرهم متخلّين عن روح الحب. علينا أن نهنئهم لأنهم يحاولون فعل شيء شديد الانسجام مع جوهر الحب: مساعدة شركائهم في التطوّر وتجاوز أنفسهم.

في عالم أكثر ارتقاء وأكثر اقترابًا من المثَل اليوناني

للحب، قد نصير عارفين كيف نكون أقل خراقة وذعرًا وعدوانية (ولو قليلًا) عندما نرغب في الإشارة إلى أمر من الأمور، وكيف نكون أقل حساسية وميلًا إلى القتال عندما نتلقّى بعض الملاحظات. بهذا، تفقد فكرة التعليم والتعلّم ضمن علاقة الحب بعض ما لها من دلالات غريبة سلبية لا لزوم لها. سنقبل فكرة أن المشروعين كليهما- أن يعلِّم المرء ويُعلَّم، ويلفت نظر الآخر إلى أغلاطه، ويقبل النقد الموجّه إليه- يمكن أن يكونا مخلصين لهدف الحب الحقيقي، إن كانا في أيدٍ أمينة.

لا يفلح رابح أبدًا في التحكّم بنفسه إلى حدٍّ يسمح له بالتعبير جيدًا عن فكرته. وسوف يمر زمن طويل، وسنوات كثيرة من المحاولات، قبل أن يصل إلى إتقان جيّد لفن التعليم والتعلّم.

لكن الانتقادات التي يوجّهها إلى زوجته في ما يخصّ «ميلها المادي» تفقد قسمًا كبيرًا من أهمّيتها نتيجة تطوّر ضخم مزلزِل. فبعد مرور خمس سنوات على زواجهما، وفي لحظة ميمونة من لحظات سوق العقارات، تنجح كيرستن في بيع شقتهما وفي تأمين قرض جديد لشراء بيت مريح مشمس -بثمن مناسب كثيرًا- في منطقة نيوباتل تيراس غير بعيد كثيرًا عن شقتهما الحالية. تُظهر هذه المناورة قدراتها الكبيرة في مجال التفاوض المالي. يتابعها رابح ويراها تسهر الليل وهي تتابع تغيّرات الأسعار، وتستيقظ في الصباح الباكر وتبدو صلبة عندما تتحدّث بالهاتف مع الوكلاء العقاريين، فيستنتج أنه صاحب حظٍّ استثنائي لأنه تزوج امرأة شديدة البراعة في الأمور المالية.

وإلى جانب هذا، يلاحظ أيضًا أمرًا آخر. لعل في كيرستن جانبًا شديد الانتباه إلى الأداء المالي لدى الأشخاص الآخرين، جانبًا طامحًا إلى سوية بعينها من الرخاء المادي. قد يمكن اعتبار هذا الأمر ضعفًا؛ لكن، إذا أمكن اعتباره ضعفًا (ليس رابح واثقًا من أنه كذلك)، فهو ضعف على صلة وثيقة بالقوة. وأما الثمن الذي يتعيّن على رابح دفعه لقاء الاتكال على موهبة زوجته المالية، فهو اضطراره إلى تحمّل بعض الجوانب السلبية المرتبطة بذلك. فالخصال نفسها التي تجعلها مفاوِضةً وضابطة مالية عظيمة يمكن أيضًا أن تجعلها -أحيانًا، وخاصّة عندما ينتابه قلق على عمله- رفيقة مزعجة قادرة على إثارة جنونه عندما يتأمّلان معًا الإنجازات التي يحقّقها أشخاص آخرون. وفي الحالتين، هناك ذلك التعلّق نفسه بالكمال، وكذلك عدم الاستعداد للتخلّي عن المعايير المادّية في قياس النجاح، وذلك الاهتمام الذكي نفسه بتكلفة هذا الشيء أو ذاك. إن هذه الخصال نفسها قادرة على إنتاج صفقات عقارية مدهشة وحالات من القلق وافتقاد الأمان فيما يتصل بالمكانة الاجتماعية. ففي الاهتمام الذي تظهره أحيانًا بالثراء النسبي لأصدقائهما، تُظهِر كيرستن ـ هذا ما صار رابح قادرًا على رؤيته -نقاط الضعف في جوانبها القوية-، لا أكثر ولا أقل.

وفي ما سيأتي، بعد أن ينتقلا إلى بيتهما الجديد، سيعمل رابح دائمًا على أن يظلّ منتبهًا إلى جوانب القوة تلك، حتى خلال اللحظات التي تبرز فيها بروزًا خاصًّا نقاطُ الضعف التي يمكن أن تسبّبها تلك القوة.

الأطفال

دروس الحب

يتخيلان دائمًا أنهما سينجبان أطفالًا ذات يوم. وهكذا، بعد أربع سنين من زواجهما، يقرّران أن يكفّا عن منع ذلك الاحتمال. وبعد سبعة شهور، يتلقّيان النبأ عند المغسلة التي في الحمام، وذلك على هيئة شريط أزرق باهت ضمن ثقب مبطن بالقطن على شريحة بلاستيكية. لا تبدو هذه وسيلة ملائمة تمامًا للإعلان عن وصول واحد جديد من بني البشر، كائن لعله سيظل موجودًا بعد خمسة وتسعين عامًا من الآن، ويشير إلى الشخصين الواقفَين الآن في الحمام بملابسهما الداخلية، بهاتين الكلمتين اللتين لا تزالان غير قابلتين للتصديق: «أبي وأمي».

وعلى امتداد الشهور الطويلة لهذه الحرب غير الحقيقية، يتساءلان عما يجب أن يفعلاه على وجه التحديد. إنهما على علم بالصعوبات التي في حياتهما، لكنّهما ينظران إلى هذا الأمر فيريان فيه فرصة لإصلاح كل شيء، من البداية نفسها، بدءًا بالتفاصيل. ينصح ملحق نسخة يوم الأحد من الصحيفة بالإكثار من تناول قشور البطاطس، والزبيب، وأسماك الرنجة، وزيت الجوز، فتلتزم كيرستن بذلك كله التزامًا حماسيًا يدرأ عنها بعض الخوف الذي يعتريها لعجزها عن السيطرة على كل ما يجري في داخلها. عندما تكون في اجتماع، أو في الباص، أو في حفلة، أو عندما تغسل الملابس في البيت، تعرف أن، خلف سُرّتها بميليمترات معدودة،

تتشكّل الآن صمامات، وتمتد أعصاب، ويقرّر الـDNA أين ستكون ذقن الجنين، وكيف ستكون عيناه، وأية عناصر من أسلافه ستكوّن خطوط شخصيته. ليس غريبًا أنها صارت تذهب إلى النوم في وقت مبكر. لم يكن لديها من قبل هذا الاهتمام كلّه بأي شيء في حياتها كلها.

كثيرًا ما يضع رابح يده على بطنها بحركة حمائية. ما يحدث داخلها أذكى كثيرًا منهما. يعرفان معًا كيف يُعدّان الموازنات، وكيف يحسبان مخططات حركة السير، وكيف يصمّمان مخططات البيوت؛ لكن ما في داخلها يعرف كيف يصنع لنفسه جمجمة، ومضخّة للدم ستظل تعمل قرابة قرن كامل من غير أن ترتاح لحظة واحدة.

وفي الأسابيع الأخيرة، يحسدان ذلك المخلوق الغريب على لحظاته الأخيرة من الوحدة والفهم التامَّيْن. يتخيّلان أنه، في حياة لاحقة، ربما في غرفة فندق أجنبي بعد رحلة طويلة بالطائرة، سيحاول تخفيف الصوت المنبعث من مكيف الهواء، وتقليل التشوّش الناجم عن فرق التوقيت بعد رحلته بأن يتكوّر على نفسه في الوضع الجنيني الذي كان له في الأصل، ملتمسًا ذلك السلام الذي كان ينعم به في رحم أمه ثم فقده منذ زمن بعيد.

عندما تظهر المولودة آخر الأمر بعد عناء شاقّ استمرّ سبع ساعات، يسميانها إيثر (اسم واحدة من جدات والدة أمها)، وكاترين (اسم والدة رابح). لا يستطيعان الكف عن النظر إليها. تبدو كاملة من كل ناحية، أجمل مخلوق يريانه في حياتهما... تنظر إلى كلٍّ منهما بعينين كبيرتين تبدو فيهما حكمة لا نهاية لها،

كأنها أمضت حياتها السابقة كلَّها في استيعاب كل ما في العالم من كتب الحكمة. تلك الجبهة العريضة، وتلك الأصابع المتقَنة، وتلك القدمان الناعمتان نعومة الأجفان اللتان ستلعبان في وقت لاحق -خلال ليالي الأرق الطويلة- دورًا كبير الأهمية في تهدئة الأعصاب عندما ينذر العويل بأن يكون امتحانًا صعبًا لسلامة عقل الوالدين.

وعلى الفور، يبدأ قلقهما من هذا الكوكب الذي أتيا به إليه. جدران المستشفى خضراء خضرة سقيمة؛ وممرِّضةٌ تحملها بطريقة خرقاء؛ وطبيب يدسّ في فمها ملعقة، وصراخ وضجيج مسموعان من الأجنحة المجاورة؛ وحرارتها زائدة الارتفاع أو زائدة الانخفاض، على التناوب. وفي غمرة إرهاق الساعات الأولى وفوضاها، لا يبدو عليها أنها تجد شيئًا باقيًا لها غير أن تبكي من غير انقطاع. يخترق بكاؤها قلبَي أبوَيها المشفقين، اللذين لا يستطيعان العثور على قاموس يترجم لهما أوامرها الغاضبة. أيدٍ عملاقة تمسّد رأسها، وأصوات تواصل الدمدمة بأشياء لا تفهم معناها. المصابيح التي في السقف تصدر ضوءًا أبيض ضاريًا، ولم تمتلك بعد أجفانها الرقيقة دقة الورق قدرة على مقاومتها. ومهمّة الإطباق على الحلمة أشبه بمحاولة التمسك بطوق، طلبًا للنجاة في خضمّ عاصفة بحرية غاضبة. أقل ما يقال أنها غير مرتاحة أبدًا. وبعد صراع هائل، تسقط آخر الأمر نائمة على السطح الخارجي لبيتها السابق... تنام مكسورة القلب لأنها خرجت ولم تأخذ المفتاح معها. لكن ما يريحها قليلًا هو ذلك الصعود والهبوط لحركة التنفس التي أَلِفتْها منذ زمن بعيد.

لم يعرفا قبل الآن أبدًا هذا الاهتمام الشديد الشامل بأي شيء من

الأشياء. يغيّر قدومها كل ما يعرفانه عن الحب. يدركان الآن كم كان محدودًا فهمهما السابق لما قد يكون على المحك.

يعني النضج إقرارًا بأن الحب الرومانسي قد لا يشكل أكثر من جانب ضيّق (لعله جانب غير لطيف تمامًا) من جوانب الحياة العاطفية... جانب ينصبّ أكثر تركيزه على تلقّي الحب، لا على منحه... على أن يُحَب المرء، لا أن يُحِب.
قد يبلغ الأمر بالأطفال بأن يصيروا معلمين غير متوقَّعين لأشخاص أكبر منهم مرات كثيرة، فهم يقدّمون إليهم -من خلال اعتمادهم المرهق على غيرهم، وأنانيتهم، وضعفهم- تعريفًا متقدّمًا عن الحب. تعريفٌ جديدٌ كل الجدّة. إنه حب خالٍ تمامًا من المطالبة الغيور بالتبادلية ومن الاستياء لغيابها؛ حب ليس طموحه الحقيقي بأقل من تجاوز المرء نفسَه من أجل غيره.

صبيحة اليوم التالي بعد الولادة، تُخرِج الممرضات الأسرة الجديدة من المستشفى من غير إرشادات أو توجيهات، ما عدى نشرة واحدة عن المغص وأخرى عن اللقاحات. تأتي مع الأجهزة المنزلية تعليمات تفصيلية أكثر مما يأتي مع طفل ولد حديثًا! إن لدى المجتمع إصرارًا كبيرًا على قناعة لافتة مفادها أن ما من شيء كثير يستطيع أي جيل قوله عن الحياة للجيل الذي بعده.

يعلّمنا الأطفال أن الحب -في أنقى حالاته- هو نوع من الخدمة. لقد صارت كلمة «خدمة» محمَّلة بدلالات

سلبية كثيرة. ليس سهلًا على ثقافة فردانية راضية عن نفسها أن تساوي بين رضا المرء وكونه في خدمة إنسان آخر. نحن معتادون أن نحبّ الآخر مقابل ما يستطيع فعله من أجلنا. مقابل تسليتنا، أو سحرنا، أو تهدئتنا. إلا أن الأطفال غير قادرين على فعل أي شيء أبدًا. أحيانًا، يتوصّل أطفال أكبر قليلًا إلى استنتاج مفاده -يجعلهم هذا يشعرون بانزعاج حقيقي- أنهم لا «معنى» لهم. الحقيقة هي أن هذا هو معناهم بالضبط! إنهم يعلّموننا أن نعطي من غير أي شيء في المقابل، بل لمجرد أنهم في حاجة ماسّة لعوننا ـ ولأننا في موقع يسمح لنا بتقديم هذا العون إليهم. يعلّموننا حبًا غير قائم على الإعجاب بالقوة بل على العطف على الضعيف. إن قابلية «الإصابة» بهذا النوع من الحب موجودة لدى كل فرد من أفراد جنسنا، فهو حب نعيشه عند مجيئنا إلى العالم، ثم نعيشه مرة أخرى بعد ذلك. وبما أن الإفراط في التأكيد على الاستقلالية أمر مغرٍ دائمًا، فإن هذه المخلوقات العاجزة موجودة هنا لكي تذكّرنا بأنه -في آخر المطاف- ما من أحد صنع نفسه بنفسه. فنحن جميعًا مدينون كثيرًا لأشخاص كثيرين. ندرك أن الحياة معتمدة ـ بالمعنى الحرفي للكلمة ـ على القدرة على الحب.

نتعلّم أيضًا أن كون المرء خادمًا لدى غيره ليس أمرًا مهينًا، بل على العكس تمامًا لأن هذا يحرّرنا من مسؤولية مرهقة هي مسؤولية التلبية المتواصلة لرغائب طبيعتنا المعوجّة التي لا تعرف الشبع. نتعلّم مقدار ما يوفّره من

راحة وشعور بالامتياز ميلُ المرء إلى أن يجد لنفسه شيئًا يعيش من أجله ويراه أهم من نفسه.

يمسحان مؤخرتها الصغيرة مرة بعد مرة ـ ويَعجبان كيف أنهما لم يفهما بوضوح قبل ذلك أن هذا ما ينبغي حقًا أن يفعله البشري لبشريٍّ آخر يحبه. يدفئان الزجاجات من أجلها في منتصف الليل، ويغمرهما الارتياح إذا نامت أكثر من ساعة متصلة، وينتابهما القلق ويتجادلان في توقيت تجشوئها. سوف تنسى هذا كله في ما بعد، وسوف يكونان غير قادرين ـ-أو غير راغبين- في إخبارها به. لن يأتيهما الاعتراف بجميلهما إلا عن طريق غير مباشر، إلا بمعرفتهما بأنه سيكون لديها هي نفسها، في يومٍ من الأيام، إحساسٌ وافٍ بالراحة والسعادة الداخليين يجعلها راغبة في تكرار فعل هذا من أجل شخص آخر.

يثير عجزُها التام الرهبة في نفسَيهما. لا بد لها من تعلّم كل شيء: كيف تطوّق الفنجان بأصابعها، وكيف تبتلع قضمة موز، وكيف تحرِّك يدها على السجادة لكي تلتقط مفتاحًا. لا شيء يأتيها سهلًا. قد يشتمل عمل النهار كلّه على بناء مكعّبات، ثم هدمها؛ وعلى النقر بالشوكة على الطاولة؛ وعلى إلقاء حجارة في بركة ماء؛ وعلى سحب كتاب عن «عوارض المعابد الهندوسية» موضوعٍ على الرفِّ. وعلى تذوق إصبع ماما لمعرفة طعمها. يكون كل شيء مدهشًا جدًا، مرةً في العمر.

لم يعرف رابح وكيرستن في حياتهما هذا المزيج العجيب من الحب والضجر. لقد اعتادا أن تكون صداقتهما قائمة على طبائع واهتمامات مشتركة. لكن مما يحيرهما أن إيثر هي، في وقت واحد،

أكثر من يعرفانه إثارة للضجر، وأكثر من يجدان نفسيهما واقعَيْن في حبه. نادرًا ما يقع هذا التباعد بين الحب والتوافق النفسي. لكن هذا لا أهمية له على الإطلاق. ولعل ذلك التأكيد كلّه على «ضرورة وجود شيء مشترك» مع الآخرين أمر مبالغ فيه: صار لدى رابح وكيرستن فهم جديد لمدى ضآلة ما هو لازم -في حقيقة الأمر- من أجل تكوين رابطة مع بشريٍّ آخر. فبحسب كتاب الحب الحقيقي، يستحق كل من يحتاج إلينا حاجة ماسّة أن يكون صديقنا.

نادرًا ما يسكن الأدب طويلًا في الحضانة أو في أماكن لعب الأطفال؛ ولعل لهذا سببًا وجيهًا؛ ففي الروايات الأقدم عهدًا، نرى مربّيات ابتلّت ثيابهن تخرجن سريعًا لإبعاد الأطفال الصغار عن المشهد حتى يصير استمراره ممكنًا. وفي غرفة المعيشة في ذلك البيت في نيوباتل تيراس، وعلى امتداد شهور كثيرة، لا يحدث شيء بالمعنى الظاهري للكلمة. تبدو الساعات كأنها فارغة؛ لكن الحقيقة هي أن كل شيء موجود فيها. سوف تنسى إيثر تفاصيل هذه الشهور نسيانًا تامًا عندما يصير عندها وعيٌ متكامل، وعندما تستيقظ آخر الأمر من ليل الطفولة المبكرة الطويل. لكن الإرث الباقي من هذه الأيام سيكون إحساسًا أساسيًا باليُسر في هذا العالم وبالثقة فيه. وسوف يتم حفظ أساسيات طفولة إيثر على شكل ذكريات حسّية، لا على شكل حوادث: إحساسها بأن تكون محضونة إلى صدر شخص آخر، وإحساسها باختلاف ميل أشعة الشمس مع اختلاف أوقات النهار، وإحساسها باختلاف الروائح وأشكال البسكويت، وإحساسها بنسيج السجادة، وبصوتي والديها البعيدين، صوتيهما المُهدهِدين غير المفهومين عند السفر بالسيارة زمنًا طويلًا في

الليل. وكذلك إحساسها من وراء ذلك كلّه بأن لها الحق في الوجود وبأن لديها أسبابًا تدعوها إلى الأمل دائمًا.

إن الطفل يعلّم الكبير شيئًا آخر عن الحب: يعلّمه أن الحب الحقيقي لا بد أن يكون مشتملًا على محاولة لسعي دائم إلى تفسير كل ما قد يحدث بأقصى حدٍّ من الكرم والسماحة، في كل وقت، وإن اتخذ حدوثه شكل سلوك معقّد أو منفّر.

إن على الأبوين أن يخمّنا السبب الحقيقي الكامن من خلف البكاء، أو الرفس بالقدمين، أو الحزن، أو الغضب. والدافع الخيّر هو العلامة المميزة لـ«مشروع التكشير» هذا -علامة تميِّزه بطريقة شديدة الاختلاف عما يحدث في ميدان العلاقات المعتادة بين الكبار. يكون الوالدان مَيّالَين إلى الانطلاق من افتراض مفاده أن طفلهما شخص جيّد من حيث الجوهر، على الرغم مما قد يسبّبه سلوكه لهما من اضطراب أو ألم: سوف يعود الطفل إلى براءته الأصلية فور التوصّل إلى تحديدٍ صائبٍ لما يضنيه في تلك اللحظة. عندما يبكي الأطفال، لا نتّهمهم بأنهم يتصرّفون انطلاقًا من رداءة طبع أو من إفراط في التركيز على مشكلاتهم وحدها، بل نتساءل عما يزعجهم. نعرف عندما يعضّون أنهم خائفون أو مغتاظون لأمر عابر. ونكون منتبهين دائمًا إلى الآثار الضارّة الخبيثة التي تقع على مزاج الطفل نتيجة جوع أو قلة نوم أو اضطراب هضمي.

فكم نكون كرماء طيبين لو أفلحنا في نقل جزء، وإن

يكن صغيرًا، من هذه الغريزة إلى عالم العلاقات بين الكبار!... إن تمكنّا، هنا أيضًا، من النظر إلى ما هو خلف السخط والخبث لكي نرى ما يكون كامنًا هناك من خوف وارتباك وإرهاق. هذا ما يعنيه أن ننظر إلى بني البشر بعين الحب.

يمضون أول عيد ميلاد في حياة إيثر عند جدّتها. تواصل البكاء طيلة القسم الأكبر من رحلة القطار إلى إنفرنِس. يكون أمها وأبوها شاحبَيْن معذّبين عند الوصول إلى بيت جدتها ذي الشرفة الكبيرة. إن في داخل إيثر ما يؤلمها، لكنها لا تستطيع معرفة طبيعته أو مكانه. يظن من يعتنون بها أنها تشعر بالحر، فيزيحون البطانية عنها ويضعونها تحتها. ثم تأتي أفكار جديدة إلى أذهانهم: قد يكون هذا بفعل الظمأ، أو لعلها الشمس، أو صوت التلفزيون، أو الصابون الذي استخدموه، أو تحسّس من ملاءات الفراش! لكن اللافت في الأمر أنهم لا يذهبون أبدًا إلى افتراض أن الأمر ناتج عن شراسة أو سوء طبع: لا يكون الطفل، في أعماقه، إلا جيّدًا.

لا يستطيعون التوصّل إلى السبب الحقيقي، حتى بعد أن يجرّبوا إعطاءها حليبًا، وتدليك ظهرها، واستخدام بودرة التالك، ومداعبتها، وإبعاد الياقة التي تخدش رقبتها، وإجلاسها، وتمديدها، وتحميمها، وحملها والسير بها صعودًا ونزولًا. وفي النهاية، تتقيأ المسكينة عجينة مخيفة من الموز والأرز البني على فستانها القطني الجديد، أول هدية عيد ميلاد تأتيها، ذلك الفستان الذي طرّزت عليه جدتها اسمها «إيثر»؛ ثم تغفو على الفور. لن تكون هذه آخر مرة تتسبّب فيها بإثارة قلق من حولها لأنهم لم يستطيعوا فهمها.

يصير لدينا أطفال فنتعلّم شيئًا جديدًا عن الحب: كم هي كبيرة السلطة التي تكون لدينا على الأشخاص المعتمدين علينا. وبالتالي، كم هي كبيرة المسؤولية التي تجعلنا في غاية الحذر عندما نقترب ممن هم واقعون تحت رحمتنا! ندرك أن لدينا قدرة لم نكن منتبهين إليها، قدرة على إيقاع الأذى من غير أن نقصد إيقاعه: أن نسبّب الخوف من خلال غرابة سلوكنا أو فجائيته، وأن نثير قلقًا أو غيظًا عابرًا. علينا تدريب أنفسنا لكي نكون مثلما يحتاج الآخرون إلى أن نكونه، لا مثلما قد تمليه علينا ردود أفعالنا الأولى. إن على البربري أن يرغم نفسه على حمل الكُرة الزجاجية برقّة، وعلى إمساكها بين يدين لطيفتين حتى لا تتحطم مثلما تتفتّت أوراق الشجر الجافّة في الخريف.

يحب رابح أن يلعب مع إيثر، ويقوم بأدوار حيوانات كثيرة عندما يرعاها في الفترات الصباحية المبكرة في عطلات نهاية الأسبوع عندما تحاول كيرستن تعويض ما فاتها من نوم. تنقضي فترة قبل أن يدرك رابح كم يمكن أن يبدو شخصًا مخيفًا. لم ينتبه من قبل إلى أنه شخص عملاق، وإلى أن عينيه يمكن أن تظهرا غريبتين أو مخيفتين، وإلى أن صوته يمكن أن يبدو عدوانيًا! يتظاهر بأنه أسد ويجثو على السجادة، على أربع قوائم، فيكتشف مذعورًا أن شريكته الصغيرة في اللعب تصرخ فزعًا، وترفض أن تهدأ على الرغم من محاولته طمأنتها إلى أن الأسد المخيف قد انصرف الآن وعاد بابا فحلّ محلّه. لا تريده أبدًا؛ ولا تريد إلا ماما التي هي أكثر لطفًا وانتباهًا

(صار لا بد من إيقاظها على الفور؛ ولن يجعلها هذا ممتنّةً لرابح).

يدرك كم يتعين عليه أن يظل حذرًا ومنتبهًا عندما يُعرّفها على أوجه العالم الكثيرة. لا يصحّ ذكر الأشباح؛ فلهذه الكلمة نفسها قدرة على أن تجعل الذعر يدبّ في النفس. ولا يجوز قول نكات عن التنانين، في الليل خاصة. وهناك أهمية حقيقية لطريقة وصفه الشرطة لها أول مرة، وكذلك الأحزاب السياسية المختلفة والعلاقات بين المسيحيين والمسلمين... يدرك أنه لن يعرف أبدًا أي شخص عديم الحماية إلى هذا الحد الذي يراه فيها الآن -يدرك هذا بعد رؤيتها تكافح كفاحًا بطوليًا حتى تنقلب على بطنها، وحتى تكتب كلمتها الأولى-. يدرك أن عليه واجبًا جليلًا: واجب الامتناع عن استخدام ضعفها ضدها.

وعلى الرغم من طبيعته الميّالة إلى التشاؤم، يتّخذ رابح الآن جانب الأمل في عرضه العالم أمام عينيها. بالتالي: يحاول السياسيون فعل أفضل ما يستطيعون فعله؛ ويعمل العلماء الآن على شفاء الأمراض؛ وسوف يكون هذا وقتًا مناسبًا جدًّا لإطفاء الراديو. وعندما يعبرون بالسيارة أحياء مهلهلة زرية المظهر، يكون شعوره كأنه مسؤول حكومي يحاول التماس الأعذار وهو ذاهب في جولة مع شخصية أجنبية رفيعة المقام. هذه الكتابات والرسوم على الجدران سوف تُزال سريعًا؛ وهؤلاء الأشخاص الذين غطّوا رؤوسهم يصرخون لأنهم سعداء، والأشجار جميلة في هذا الوقت من السنة... ففي صحبة رفيقته الصغيرة في السيارة، ينتابه خجل شديد مما يفعله أقرانه من الكبار.

وأما طبيعته الشخصية نفسها، فقد صارت بدورها أكثر بساطة

ونظافة. فهو في البيت «بابا»، رجل لا تقلقه مشكلات العمل ولا الصعوبات المالية، رجل يحب الآيس كريم، شخصية بلهاء لا تحب في العالم شيئًا أكثر من حمل الطفلة الصغيرة على الكتفين والدوران بها. يحب إيثر حبًا أكبر كثيرًا من أن يسمح لواقعه المضطرب القلق بأن يؤثّر عليها. يعني حب إيثر أن عليه السعي إلى امتلاك الشجاعة الكافية لأن لا يكون نفسه تمامًا.

وبهذه الطريقة يتّخذ العالم، خلال سنوات إيثر الأولى، هيئة استقرار لا بد أن تشعر الطفلة في مستقبل الأيام بأنها فقدتها ـ لكنها حالة لم تعرفها، في واقع الأمر، إلا بفضل «التعديلات الحكيمة» التي يدخلها والداها على هذا العالم. إن إمكانية استقراره ودوامه أمرٌ لا يصدقه إلا من هو غير قادر بعد على إدراك كم يمكن أن تكون الحياة عشوائية، وكم أن التغيّر والفناء أمران ثابتان لا مهرب منهما. فهذا البيت في نيوباتل تيراس، على سبيل المثال، هو بالنسبة إليها «البيت» بطريقة طبيعية بسيطة، وبكل ما تحمله هذه الكلمة من ارتباطات دائمة، وليس مجرّد بيت عادي وقع الاختيار عليه نتيجة اعتبارات نفعية. إن وجود إيثر نفسه تعبير نهائي عن كثرة الحوادث التي لم تقع. فلو أن حياتَيْ كيرستن ورابح اتخذتا مسارين مختلفين قليلًا، لكان من الممكن أن يصير كل ما يقع تحت اسم ابنتهما من طبائع شخصية وخصائص جسدية (تلك الطباع والخصائص التي تبدو الآن مندمجة كلّها معًا كأنها غير قابلة لأن تنمحي) ملك كيانات مختلفة كل الاختلاف، ملك أشخاص افتراضيين ظلّوا مجمَّدين إلى الأبد باعتبارهم ممكنات لم تتحقّق، أو احتمالات جينية مبعثرة لم يجر استخدامها، وذلك لأن شخصًا اعتذر عن دعوة عشاء، أو

لأن امرأة كان لديها صديق آخر، أو لأن خجلًا شديدًا حال دون طلب معرفة رقم هاتف شخص.

السجّادة في غرفة إيثر، امتداد صوفي بلون بيج تمضي عليه ساعات وهي جالسة تقص أوراقًا فتصنع منها أشكال حيوانات، وتنظر منها إلى السماء عبر نافذتها في الأيام المشمسة... ستظل هذه السجّادة عندها إحساسًا دائمًا بملمس سطحها الذي تعلمت عليه أن تحبو، السجادة التي ستتذكّر طيلة حياتها نسيجها ورائحتها المميزين. وأما في نظر والديها، فيصعب كثيرًا اعتبار السجادة رمزًا ثابتًا للهوية البيتية. الواقع أنهما لم يشترياها إلا قبل ولادة إيثر بأسابيع معدودة؛ اشترياها بنوع من الاستعجال من متجرٍ محليٍّ غير موثوق، واقع في شارع قريب من موقف الباص لم يلبث أن أُغلق بعد ذلك بفترة وجيزة. ينبع قسم من الجانب المطمئِن المريح في كون المرء جديدًا في هذا العالم من عدم قدرته على فهم الطبيعة غير الثابتة في كل شيء فيه.

إن الطفل الذي يحظى بالحب حالةٌ تطرح تحدّيات كثيرة. فحب الوالدين، بطبيعته نفسها، مَيّال إلى إخفاء الجهد المبذول من أجل توليده. إنه يحجب عمن يتلقّاه كل ما في نفس صاحبه من حزن وتعقيدات، يحجب عنه إدراك كثرة ما يضحّي به الوالدان، باسم الحب، من اهتمامات ومصالح وأصدقاء. بسخائه غير المحدود، يضع حب الوالدين هذا الشخص الصغير في مركز الكون نفسه -حينًا من الزمن- لمنحه قوة من أجل ذلك اليوم عندما يكون عليه أو عليها، وبدهشة مؤلمة، أن يدرك الحجم الحقيقي لعالم الكبار ومقدار ما فيه من عزلة خطيرة.

في أمسية عادية في إدنبره، بعد أن يكون رابح وكيرستن قد وضعا إيثر في فراشها، عندما تصير مريلتها المكوية جيدًا، معلّقة تحت ذقنها، عندما تكون في أوفرولها، عندما يقول جهاز المراقبة إن كل شيء هادئ في غرفة نومها، ينسحب هذان الراعيان اللطيفان الصبوران صبرًا لا حدّ له إلى مساحتهما الخاصّة بهما وحدهما، ويهتمان بالتلفزيون أو بالصحف الباقية منذ يوم الأحد، ويعودان سريعًا إلى نمط سلوكي قد يكون من شأنه أن يصدم الطفلة إن تمكنت، بأعجوبة، من مراقبة ما يجري بينهما واستيعابه. فبدلًا من اللغة الرقيقة المتسامحة التي يستخدمها رابح وكيرستن مع طفلتهما على امتداد ساعات طويلة، كثيرًا ما تظهر لغة بديلة كلّها مرارة وانتقاد ولوم. إن الجهد الذي يبذلانه في حبها يستنفدهما، فلا يبقى لدى الواحد منهما ما يقدمه إلى الآخر. يصير الطفل المرهَق الموجود داخل كل منهما محطمًا، يصير غاضبًا لأنه ظلّ مهمَلًا زمنًا طويلًا.

ليس من المفاجئ في شيء أننا، نحن الكبار، عندما نبدأ تكوين علاقاتنا، نكون حريصين على البحث عن شخص يستطيع إعطاءنا ذلك الحب الغامر، الخالي من أية أنانية، الذي عرفناه منذ زمن بعيد، في طفولتنا. وليس مفاجئًا أيضًا أن نشعر بالانزعاج والغضب، بل بمرارة شديدة آخر الأمر، لما يظهر لنا من صعوبة في العثور على ما نبحث عنه، ومن ندرة الأشخاص الذين يعرفون كيف يساعدوننا كما ينبغي. قد يستبد بنا الغضب

ونلوم الآخرين لعجزهم عن حدس حاجاتنا. وقد نتنقّل كثيرًا من علاقة إلى علاقة. وقد ينتهي بنا الأمر إلى إلقاء اللائمة على ضحالة جنس بأسره، إلى أن يأتي يوم نضع فيه نهاية لبحثنا الواهن هذا ونصل إلى ما نعتبره حالة موضوعية ناضجة، ندرك معها أن خلاصنا الوحيد من ذلك التوق قد يكون في الكف عن التماس الحب الكامل وعن الجزَع لغيابه في كل خطوة نخطوها، فنشرع في منح الحب (قد نمنح حبنا شخصًا لا يستحقّه) من غير حرص على حساب فرص مقابلته بمثله.

حلاوة

تكون ولادة ويليام بعد ثلاث سنين من مجيء إيثر. إن له طبيعة محبَّبة ساحرة، منذ البداية. وسوف يظلّ والداه مقتنعين دائمًا بأنه غمز لهما بعينه من مهده -كان واضحًا أنه يعرف ما يفعله- بعد ساعات معدودة من مغادرته رحم أمه. ومع بلوغه سنته الرابعة، صار موضع إعجاب كل من يراه. هناك حلاوة في الأسئلة التي يطرحها، وفي الألعاب التي يلعبها، وفي عروضه المتكرّرة للزواج من شقيقته.

حلاوة الطفولة: الجزء غير الناضج من الطيبة منظورًا إليه من خلال موشور تجارب الكبار، أي من خلال الجانب القصيّ لقدر لا يستهان به من المعاناة وإنكار الذات وضبط النفس.

نطلق كلمة «حلاوة»على ما لدى الأطفال من إظهار صريح للأمل والثقة والتلقائية والعَجَب والبساطة ـ صفات يحيط بها خطر شديد، لكنها تكون محلّ توق شديد خلال المسار المعتاد لحياة الشخص الكبير. تذكّرنا حلاوة الأطفال بحجم التضحيات التي كان علينا أن نُقدِم عليها طيلة سيرنا في درب نضجنا؛ فـ«الحلاوة» جزء جوهري من نفوسنا ـ لكنه في المنفى.

يشتد شوق رابح إلى طفليه عندما يكون في عمله. ففي جَوٍّ يتّسم بتوتر دائم وبمناورات وألاعيب كثيرة، يصير تفكيره في ثقتهما وهشاشتهما شديد الأثر في نفسه. يكاد يحطم قلبه تذكُّر أن هناك مكانًا، غير بعيد عن مكان عمله، يعرف فيه الناس كيف يهتم أحدهم بالآخر كما ينبغي، مكان يمكن فيه أن تكون دموع المرء وحيرته، ناهيك عما يأكله وعن وضعية نومه، موضع اهتمام عميق لدى كائن بشري آخر.

لا يمكن أن تكون مصادفة حقيقة أن حلاوة الأطفال قد صار يسهل كثيرًا الانتباه إليها والولع بها في هذه اللحظة من التاريخ. تصير المجتمعات حسّاسة إزاء الصفات التي تفتقدها. فالعالم الذي يفرض درجة عالية من ضبط النفس والعقلانية والميل إلى التشاؤم ويتسم بحدود قصوى من التنافسية وقلة الإحساس بالأمان، من حقّه أن يرى في الطفولة فضائل وصفات جميلة توازن حالته تلك بعد أن اضطرّ اضطرارًا قطعيًا عنيفًا إلى التخلّي عنها مقابل الحصول على مفاتيح عالم الكبار.

يسَرُّ ويليام كثيرًا بجملة واسعة من أشياء نسي الكبار الذين من حوله أن يجدوا فيها أي شيء عجيب: أعشاش النمل، والبالونات، وأقلام التلوين السائلة، والحلزونات، وأوساخ الأذنين، وهدير الطائرات عند إقلاعها، والغوص تحت الماء في الحمام... إنه شديد الحماسة لأشياء غير معقّدة صار الكبار يرونها -من غير إنصاف- مضجرة؛ فمثلما يفعل فنان عظيم، يبرع ويليام في إنعاش إعجاب من هم حوله بما يُسمى «الجوانب الثانوية في الحياة».

ومن الأمثلة على ذلك حماسته الكبيرة عند «القفز على السرير». وهو يشرح قائلًا: عليك أن تجري مسافة طويلة، ومن الأفضل أن تبدأ من الممر، إذا استطعت، وأن تكون على السرير كومة كبيرة من الوسائد ومن مساند الأريكة التي في الطابق السفلي. ومن المهم كثيرًا أن ترفع ذراعيك في الهواء عندما تجري في اتجاه الهدف. عندما تجرب ماما، أو بابا، فعل ذلك، فكثيرًا ما يكونان ميالَيْن إلى التردّد ولا يرفعان أذرعهما، أو يرفعانها قليلًا -من غير حماسة- ويُطبقان أيديهما عند الصدر. إن ما يفعلانه يقلّل كثيرًا من متعة اللعبة.

وهناك أيضًا تلك الأسئلة الكثيرة التي لا بد من طرحها على امتداد اليوم كلّه: «ما سبب وجود الغبار؟»، «إذا حلقنا شعر غوريلا رضيع، فهل يصير شبيهًا بطفل بشري رضيع»، «إلى متى سأظلّ طفلًا؟»... يمكن لأي شيء أن يصير نقطة بدء مناسبة لانفجار الفضول وحب المعرفة قبل أن يصل المرء إلى تلك المرحلة الخانقة، المرحلة التي يُفترض فيها أن تعرف اهتماماتك الحقيقية.

لا يقلقه أن يبدو شخصًا غريبًا أو مختل العقل، فهذه الفئة من الصفات غير موجودة بعد في مخيلته، لحسن الحظ! تظلّ مشاعره منطلقة دائمًا من غير رقابة عليها؛ وهو، إلى الآن، لا يخشى أن يصيبه خزي من شيء ما. لا يعرف شيئًا عن فكرة المسؤولية أو الذكاء أو الرجولة، تلك المُثبّطات الفظيعة للروح والموهبة. طفولته الباكرة أشبه بمختبر لما قد يعجب البشرية عامّة لو لم تكن لديها أشياء من قبيل التهكم والسخرية من الناس.

يحبّ أحيانًا، عندما يكون في مزاجٍ مواتٍ لذلك، أن ينتعل حذاء

أمه ذا الكعب المرتفع وحمالة صدرها، ويرغب في أن يخاطبه الآخرون بلقب «السيدة ويليام». يعجبه شعر آرجون، زميله في الصف، ويقول لكيرستن ذات مساء بقدر ملحوظ من الحماسة، إنه يحب كثيرًا أن يلعب بشعره. يضيف قائلًا إن آرجون يمكن أن يكون زوجًا لطيفًا له.

تضيف رسوماته إلى حلاوته حلاوةً يعود جزء منها إلى تفاؤله الباهر. الشمس مشرقة دائمًا، والناس باسمون. ما من محاولة للنظر إلى ما تحت السطح لاكتشاف الاختلالات أو التنازلات. لا يعتبر والداه هذه البهجة كلّها أمر قليل الشأن أبدًا: الأمل إنجاز؛ وولدهما الصغير بطل في ميدان الأمل. ثمة سحر في لا مبالاته بأن يرسم المشاهد رسمًا صحيحًا. سيتعلم قواعد الرسم لاحقًا عندما تبدأ دروس الرسم في المدرسة. وسيقال له أن ينتبه إلى ما هو أمام عينيه. وأما الآن، فهو غير مضطر إلى إشغال ذهنه بكيفية اتصال الغصن بجذع الشجرة، ولا بالشكل الحقيقي لسيقان الناس وأيديهم. إنه غير مهتم، لشدة بهجته، بالمعلومات الصحيحة -المضجرة أكثر الأحيان- عن الكون الذي من حوله. لا يبالي إلا بما يحسّه وبما يبدو له ممتعًا في هذه اللحظة بعينها. يُذكّرُ سلوكه والديه بأن من الممكن أن يكون لفرط التركيز على الذات جانبه الحسن.

ثم إن مخاوف ويليام وإيثر نفسها حلوة أيضًا لأن تبديدها سهل كثيرًا، ولأنها لا صلة لها بما ينبغي الخوف منه فعلًا في هذا العالم. إنها مخاوف من الذئاب والوحوش والملاريا وأسماك القرش. إن الأطفال محقّون عندما يخافون -بالطبع هم محقّون- لكن ما ينبغي الخوف منه حقًّا لا يزال غير موجود في أذهانهم حتى الآن.

لا يخبرهم الآن أحدٌ شيئًا عن الأهوال التي تنتظرهم عندما يكبرون: الاستغلال، والغش، وكوارث الوظيفة، والحسد، والهجران، وسوء الأخلاق. تظلّ مخاوف الأطفال كلها إدراكًا غير واعٍ للأهوال الحقيقية التي يواجهها الناس في أواسط العمر. فتلك مخاوف لا يجد العالم أصحابها «الكبار» جذّابين كثيرًا، ولا مناسبين كثيرًا لأن يحتضنهم ويشيع الطمأنينة في نفوسهم.

تأتي إيثر دائمًا إلى غرفة نوم رابح وكيرستن في حدود الساعة الثانية بعد منتصف الليل. تأتي حاملة دوبي معها وتقول إنها ترى أحلامًا مخيفة عن التنين. تستلقي بين والديها، وتضع يدًا على كل واحد منهما، وتمسّ ساقاها النحيلتان سيقانهما. يُشعرهما ضعفُها بالقوة، فهما قادران تمامًا على إعطائها الراحة التي تنشدها. سوف يقتلان ذلك التنّين السخيف إذا واتته الجرأة على دخول هذه الغرفة. ينظران إليها وهي تغفو من جديد وترتعش أجفانها قليلًا. دوبي في الفراش، إلى جوارها. يظلّان برهة مستيقظين، ويظلّان متأثّرين لأنهما يعرفان أن ابنتهما الصغيرة سوف تكبر آخر الأمر، وسوف تتركهما وتعاني وتواجه الرفض وينكسر قلبها. سوف تخرج إلى العالم وتشتاق إلى الطمأنينة، لكنها ستكون بعيدة عنهما. وسوف تواجه، في نهاية المطاف، بضعة تنانين حقيقية يكون بابا وماما عاجزين كل العجز عن إبعادها عنها.

ليس الأطفال وحدهم طفوليين. فالكبار يكونون أحيانًا -من خلف تبجُّحهم- سخيفين وضعيفين وواهنين وهستيريين ومذعورين وبائسين يبحثون عن السلوى وعن الغفران.

ونحن ميالون جميعًا إلى رؤية الحلاوة والضعف في الأطفال، وإلى تقديم العون إليهم ومساعدتهم بما يلزمهم. عندما نكون معهم، نعرف كيف نُنَحّي جانبًا أسوأ ما فينا من دوافع وغضب وحب انتقام. نكون قادرين على إعادة النظر في ما نتوقّعه منهم، وتصير متطلباتنا أقلّ مما تكون عادة. يأتي غضبنا أبطأ مما يأتي في الأحوال العادية، ونصير أكثر انتباهًا إلى الاحتمالات غير المتحقّقة. نصير مستعدين لمعاملة الأطفال بدرجة من اللطف نادرًا ما نبذلها مع أقراننا، بل نتردّد تردّدًا فظيعًا قبل إظهارها لهم.

ما أروع أن نعيش في عالم يحتوي على هذه الكثرة كلّها من بشر لطيفين مع الأطفال! وسوف يكون الأمر أفضل كثيرًا إذا عاش الواحد منا في عالم نكون فيه أكثر لطفًا -ولو قليلًا- مع الجوانب الطفولية عند الآخرين.

حدود الحب

أولى أولويات رابح وكيرستن مع إيثر وويليام هي أن يكونا لطيفين -بل هي أولويّة متقدّمة كثيرًا جدًا على أية أولوية أخرى. وهذا لأنهما مقتنعان بأنهما يريان في كل ما حولهما أمثلة على ما يحدث عندما يكون الحب قليلًا: انهيارات وضغائن، وإدمان وإحساس بالعار، وحالات نقص مزمنة في الثقة بالنفس، فضلًا عن الفشل في تكوين علاقات سليمة. وفي عيون رابح وكيرستن، يمكن أن يعجز الإنسان تمامًا عن الإحساس باكتمال حياته عندما يعاني نقصًا في رعايته، وعندما يكون والداه بعيدَين ومتسلّطَين، أو مخيفين وغير موثوقين. وهما مقتنعان تمامًا بأن ما من أحد قادر على أن يأمل في أن يكون قويًا إلى الحد الكافي لكي يشقّ طريقه وسط أدغال الوجود الكثيفة من غير أن يكون قد تمتع، ذات مرة، بذلك الإحساس بأن له أهمية غير عادية، أهمّية لا حدود لها في نظر شخص كبير، أو شخصين.

يبلغ إيمانهما بقوة عطف الوالدين أوجَهُ في السنوات الخمس الأولى من حياة إيثر وويليام، في تلك اللحظات خاصة عندما ينام كل منهما آخر الأمر في سريره فيبدو مكشوفًا أمام العالم، من غير دفاع، ويصير تنفّسه هينًا مستقرًا، وتظل أصابعه ذات التكوين الرائع قابضةً على بطانيته المفضلة.

ثم يظهر واقع أكثر تعقيدًا وإثارة للقلق مع بلوغ كل منهما سنته

الخامسة: يفاجأ رابح وكيرستن بأن تنشئتهما كانت فيها حدود عنيدة لعطف الأهل ولطفهم.

وفي عطلة نهاية أسبوع مطيرة في شهر شباط، يشتري رابح لويليام طائرة هليكوبتر برتقالية اللون لها جهاز تحكم عن بعد. وجدها الأب وابنه على الإنترنت منذ بضعة أسابيع، فلم يكد يدور بينهما كلام عن أي شيء آخر منذ ذلك الوقت. يرضخ رابح آخر الأمر على الرغم من عدم وجود عيد ميلاد وشيك، أو أداء مدرسي يستحق هدية. مع ذلك، فمن المؤكّد أن هذه الطائرة قادرة على توفير ساعات من البهجة لهما. لكن ما حدث هو أن مشكلة تطرأ في اللعبة بعد ست دقائق فقط عندما كانت تحلّق فوق طاولة الطعام وكان رابح ممسكًا بجهاز تحكّمها. اضطرب شيء في توجيهها فاصطدمت بالبراد وتحطّمت مروحتها الخلفية. كان واضحًا أن اللوم واقعٌ على من صنعَها، لكن المؤسف أن من صنعَها لم يكن معهما في المطبخ آنذاك! وهكذا يصير رابح على الفور، وليس للمرة الأولى، هدفًا لاستياء ابنه الشديد.

يصيح ويليام الذي تغيبُ عنه الآن حلاوته كلّها: «ماذا فعلت بها؟».

يجيبه رابح: «لم أفعل شيئًا. لكن عطلًا أصابها».

«لم يصبها شيء. أنت فعلت لها شيئًا. عليك أن تصلحها الآن».

«أود أن أفعل ذلك، طبعًا، لكن الأمر معقّد. علينا أن نتصل مع المتجر يوم الاثنين».

«بابا...»، صرخ الصغير بهذه الكلمة.

«يا عزيزي، أعرف أن هذا قد أزعجك، ولكن...».

«إنها غلطتك أنت».

تجري دموع ويليام، ثم يبدأ بعد لحظة محاولة ركل الطيار الفاشل على ساقيه. سلوك الصبي مخيف بالطبع، وهو مفاجئ بعض الشيء (كانت نوايا بابا سليمة تمامًا!)، لكن ما يحدث الآن -وما حدث عدة مرات أخرى- يبرز أيضًا بصفته إثباتًا غريب الشكل لحُسن قيام رابح بدور الأب. لا بد أن يشعر الشخص بقدر من الأمان مع شخص آخر لكي يجرؤ على أن يكون صعبًا معه هكذا. فقبل أن يستطيع الطفل أن ينفجر غاضبًا، لا بد أن يكون الجو المحيط كلّه آمنًا إلى حد كبير. لم يكن رابح نفسه صعبًا هكذا، على الإطلاق، مع أبيه عندما كان صغيرًا. لكنه -مع ذلك- لم يشعر يومًا بأن أباه يحبّه كثيرًا. تلك التأكيدات كلّها التي صدرت عنه وعن كيرستن على مر السنين «سأتخذ جانبك دائمًا»، و«يمكنك إخبارنا بكلّ ما تشعر به، مهما يكن»، كان لها أثر رائع: إنها تشجِّع ويليام وأخته على توجيه غضبهما واستيائهما بقوّة صوب هذين الشخصين المحبّين الكبيرين اللذين يشيران إليهما بأنهما قادران على تحمّل ذلك الغضب، ومستعدان لتلقيه.

خلال مراقبة ثورات طفليهما، تكون لدى رابح وكيرستن فرصة ممتازة لملاحظة مقدار ما لديهما من صبر وقدرة على ضبط النفس... خصلتان تطوّرتا لديهما على مر السنين من غير أن يدركا ذلك إدراكًا تامًا. إن طبعَيْهما اللذين صارا أكثر استقرارًا وهدوءًا ناتجَيْن عن عشرات السنين من خيبات صغيرة وكبيرة؛ فقد صارت «دورات تعليم الصبر» مطبوعةً في عمل عقليهما مثل الوديان التي يحفرها تدفّق الماء المستمر فيها: طبعَتْها الأشياء الكثيرة التي لم

تكن حسنة في حياة كل منهما. لا يثور رابح غاضبًا عندما يخطئ في الكتابة على ورقة يعمل عليها لأنه خسر عمله في الماضي، ولأنه رأى أمه تموت، ولأن أمورًا قاسية كثيرة أخرى مرت به.

إن قيام المرء بدور الوالد الجيّد، أو بدور الوالدة الجيّدة، يحمل معه مهمة ضخمة شائكة جدًا: عليه أن يكون حامل أخبار شديدة السوء. يتعيّن على كل من الوالدَيْن الجيدين أن يكون مدافعًا عن جملة من مصالح الطفل بعيدة المدى؛ وهي مصالح من طبيعة لا يستطيع الطفل أبدًا أن يتصوّرها، فما بالك بأن يستطيع تقبّلها بنفسٍ مبتهجة. فانطلاقًا من الحب، يكون على الأبوين أن يرغما نفسَيهما على الحديث عن الأسنان النظيفة، والواجبات المدرسية، وأوقات النوم، والغرف المرتبة، وكذلك عن الكَرَم، وعن الحدود المسموحة لاستخدام الكمبيوتر. انطلاقًا من الحب، ينبغي أن يكونا شخصين مزعجين وأن تنشأ لديهما تلك العادة البغيضة التي تثير الجنون، عادة الحديث عن حقائق الوجود المنفِّرة تمامًا في اللحظة التي يبدأ عندها الطفل الاستمتاع بها.
ونتيجة أفعال الحب الخفيّة هذه، لا بد أن ينتهي الأمر بالوالدَين -إذا سارت الأمور سيرًا حسنًا- إلى أن يصيرا هدفين لسخط الأطفال واستيائهم الشديد.

مهما تكن المهمة صعبة، فإن رابحًا وكيرستن يباشران التزامهما بإيصال الأخبار السيّئة على نحو لطيف: «بقيتْ خمس دقائق من وقت اللعب؛ وبعد ذلك تنتهي اللعبة»، «حان الآن وقت استحمام

الأميرة إيثر»، «لا بد أن قول هذا يزعجك، إلا أنه لا يجوز لنا أن نضرب من لا يتفق معنا، هل تتذكّر هذا؟». يسعيان إلى استرضاء الطفلين وتملّقهما؛ وأهم من هذا أنهما لا يفرضان قرارًا بالقوة، أو باستخدام الأسلحة النفسية الأساسية من قبيل تذكير الطفلين بأنهما أكبر منهما سنًا وجسدًا، وأوفر مالًا، مع ما ينتج من ذلك من قدرة على اتخاذ القرار في ما يتعلّق بجهاز التحكّم بالتلفزيون وباللابتوب.

«لأنني أمك»، و«لأن أباك يقول هذا»: لقد مرّ زمن كانت فيه لهذين اللقبين، أب وأم، وحدهما قدرة على فرض الطاعة. إلا أن معناهما يتغيّر الآن في «حقبة اللطف» التي نعيشها. لم يعد الأب والأم الآن إلا «شخصين يجعلان حياتي حلوة»، أو «شخصين من الممكن أن آخذ باقتراحاتهما إذا -فقط إذا- رأيت وجاهة فيما يقولانه لي».

على أن هناك أمرًا محزنًا، ألا وهو ظهور حالات لا يكون الإقناع والاسترضاء نافعين فيها ـ ومن الأمثلة على ذلك، تلك المرة عندما بدأت إيثر تزعج ويليام بسبب جسده، ولم تلقِ بالًا إلى التحذيرات اللطيفة التي سمعتْها من أمها. قضيبه «قطعة نقانق بشعة»... هذا ما كانت تصيح به إيثر مرارًا في البيت. ثم راحت -وكان هذا أكثر إزعاجًا- تهمس بهذا التشبيه في آذان بعض رفيقاتها في المدرسة.

حاول والداها العثور على طريقة ناجحة لجعلها تفهم أن مضايقته الآن، تلك المضايقة التي تبلغ حد الإهانة، قد تسبّب صعوبة في علاقاته مع النساء عندما يكبر. لكن من الطبيعي أن

يبدو هذا لشقيقته كلامًا غريبًا جدًا. تجيبهما بأنهما لا يفهمان شيئًا، وأن لدى ويليام قطعة نقانق بشعة جدًّا، وأن هذا ما يجعل الأطفال يسخرون منه في المدرسة.

ليس ذنب ابنتهما أنها لا تزال في التاسعة من عمرها، ولا تستطيع فهم طبيعة قلق أهلها (وضحكهما الذي يخفيانه عنها). لكن مما يثير غضبهما أن إيثر تتهمهما، بمطالبتهما الحازمة لها بالكفّ عن ذلك، بأنهما يتدخلان في حياتها؛ ثم تكتب كلمتي «مفسدَا البهجة» على قصاصات ورق صغيرة توزّعها في أنحاء البيت كلها.

ينتهي هذا النزاع بجولة من الصراخ بين رابح وتلك الطفلة الصغيرة الغاضبة التي ليست لديها بعد، في مكان ما في دماغها، بعض الروابط العصبية التي تمكّنها من استيعاب خطورة الأمر.

يقول لها رابح: «لأنني أقول لك هذا، ولأن عمرك تسع سنين وعمري أكبر من ذلك بكثير، ولأنني أعرف أشياء لا تعرفينها. ثم إنني لن أظلّ واقفًا هكذا ولن أمضي النهار كلّه في المجادلة معك».

تقول إيثر مهدّدة إياه: «هذا ظلم! إذًا، فسوف أواصل الصياح».

«لن تفعلي هذا، يا آنستي الصغيرة. سوف تصعدين إلى غرفتك، وتبقين فيها إلى أن تصيري مستعدّة للنزول من جديد ومشاركتنا طعام العشاء والتصرّف بأسلوب متحضّر يجعلني أرى أنك فتاة مهذّبة».

الحقيقة أن هذا أمر غريب بالنسبة إلى رابح، فهو مَيّال بطبيعته إلى تفادي أي نوع من المواجهات... أمر غريب أن يقول هذا الكلام الذي يبدو خاليًا من الحب لشخص يحبّه من غير حدود.

الحلم المنشود هنا هو توفير الوقت على الطفل؛ وإعطاؤه،

مرةً واحدةً، أفكارًا لا بد له من تجربة طويلة شاقّة حتى يراكمها بنفسه. إلا أن كل منعطف من منعطفات تطوّر بني البشر مزروع بمقاومة أصيلة لاستعجال التوصّل إلى النتائج والدروس يمنعنا من قبول تجارب الآخرين، اهتمام أصيل موجود في نفوسنا بأن نعيد استكشاف فصولٍ كاملة في كتاب حماقات بني جنسنا. نحن ميّالون إلى إهدار قسم لا يُستهان به من حياتنا حتى نكتشف بأنفسنا ما شَقيَ غيرُنا في دراسته دراسة شاملة.

إن في تقاليد المدرسة الرومانسية شكوكٌ في قواعد التربية؛ فهي تعتبرها رياءً لا حاجة إليه يُفرض فرضًا على طيبة الأطفال الطبيعية المحبّبة. إلا أننا قد نغيّر رأينا شيئًا فشيئًا، بعد أن نعرف عن قرب بضعة فتيان وفتيات من لحم ودم، إلى أن نصل إلى نظرة مفادها أن حسن الأدب ليس في الحقيقة إلا دفاعًا لا جدال فيه في مواجهة الخطر الموجود دائمًا، خطر الوقوع في شيء يشبه البربرية. إلا أن حُسن الأدب ليس في حاجة إلى أن يكون طريقًا إلى البرودة والسادية، بل هو سبيلٌ إلى تعليمنا كيفية إبقاء الجزء المتوحّش فينا حبيسًا حتى لا تنقلب وجبة العشاء إلى حالة فوضى شاملة.

يتساءل رابح أحيانًا أين يقودهم ذلك الجهد الشاقّ كثيرًا الذي يبذله مع زوجته؟ ما غاية الساعات التي ينفقانها في أخذ الطفلين إلى المدرسة وإعادتهما منها، والحديث معهما وإقناعهما، ومناقشتهما؟ كان أمله في البداية أن ينشئ مع كيرستنن نسختين عنهما تكونان أفضل منهما -يا له من أمل أناني ساذج!- اقتضى

الأمر زمنًا حتى أدرك أنه يساهم، بدلًا من ذلك، في إنتاج شخصين عندهما اهتمام أصيل بأن يخالفاه، شخصين سوف يوقِعانه في حالات كثيرة متكرّرة من القنوط وخيبة الأمل والحيرة، فضلًا عن جعله يوسّع اهتماماته توسعة مقلقة، جميلة بعض الأحيان، بحيث تتجاوز كل ما كان ممكنًا أن يتخيّله، فتبلغ ميادين كانت غريبة عليه كل الغرابة قبل ذلك... التزلّج على الجليد، وبرامج كوميديا الموقف في التلفزيون، والفساتين الوردية، واستكشاف الفضاء، وترتيب فريق هارتس ضمن فرق الدرجة الأولى لكرة القدم في اسكوتلندا.

وفي مدرسة الطفلين التي هي مؤسسة صغيرة محترمة قريبة من البيت، يقف وينظر -عن بعد- إلى غيره من الآباء والأمهات وهم يوصِلون حمولاتهم الثمينة فيفكّر في أن الحياة لا يمكن أبدًا أن تقدر على تحقيق تلك الآمال العريضة كلّها التي يلقي بها جيلٌ على الكاهلين الضعيفين لجيل آخر. ما من قدر كافٍ من الأقدار والمصائر المجيدة! ثم إن العثرات كثيرة جدًا يسهل الوقوع فيها، حتى إذا حظي المرء في البداية بنجمة ذهبية وتصفيق حار لأنه أجاد -مع زملائه- قراءة قصيدة عن الغربان.

يسقط حجاب العواطف الأبوية الواقي أحيانًا، فيرى رابح أنه قدّم جزءًا كبيرًا جدًّا من أفضل أيام حياته إلى كائنين بشريين اثنين لا يستطيع أبدًا أن يرى فيهما -لو لم يكونا طفليه- أي تميّز مهمّ... وفي الواقع، فإن من الممكن ألا يكون راغبًا حتى في الحديث معهما إن التقاهما في بارٍ بعد ثلاثين سنة من الآن. يا لها من فكرة يصعب احتمالها كثيرًا!

مهما تكن أشكال الإنكار المتواضع الذي يعبر عنه الوالدان، ومهما يمكن أن يقللا ويضبطا تلك الطموحات التي يعبران عنها صراحة أمام الغرباء، فإن إنجاب طفل -في بداية الأمر، على أقل تقدير- ليس إلا وثبة صوب الكمال، محاولة لخلق إنسان لا يكون مجرّد كائن بشري آخر، بل مثالٌ واضحٌ للكمال. لا يمكن أبدًا أن يكون التوسُّط -على الرغم من المعايير الإحصائية المعروفة للجميع- هدفًا يضعه المرء لنفسه عند البداية: إن التضحيات التي لا بد منها لإيصال طفل إلى سن النضج تضحيات عظيمة جدًا.

ويليام في الخارج يلعب كرة القدم مع صديقه بعد ظهر يوم أحد. إيثر بقيت في البيت لكي تُجمّع دارة كهربائية أتتها هدية في عيد ميلادها الذي كان قبل بضعة شهور. تجعل والدها يساعدها، ويجلسان فيراجعان معًا نشرة التعليمات ويعكفان على توصيل المصابيح والمحرّكات الصغيرة، ثم يفرحان كلّما تمكّنا من تشغيل تلك الدارة. يحب رابح القول لابنته إنها ستصير مهندسة كهربائية عظيمة. هو غير قادر على التخلّي عن حلمه بأن يتخيلها امرأة ناضجة قادرة، بطريقة ما، على أن تكون في وقت واحد عملية جدًا وصاحبة حساسية شاعرية في وقت واحد، أي نسخة من كل امرأة أحبّها في حياته. تعبد إيثر اهتمامه بها، وتترقّب دائمًا تلك المناسبات عندما يكون ويليام في الخارج فتحظى بأبيها لنفسها من غير مشاركة. يدعوها «الأفضل». تجلس في حضنه، وتتذمّر عندما يكون قد أهمل حلاقة ذقنه يومًا من أن جلده صار غريبًا،

خشنًا. يمسِّد شعرها، ويغمر جبهتها بالقبلات. تنظر كيرستن إليهما جالسَيْن في الناحية الأخرى من الغرفة. ذات مرة، عندما كانت في الرابعة من عمرها، قالت إيثر لوالدَيْها بطريقة جادّة تمامًا: «أتمنى أن تموت ماما حتى أصير قادرة على الزواج من بابا». تفهم كيرستن هذا الأمر لأنها كانت تتمنّى، هي نفسها، أن يكون لها أب لطيف تستطيع الاعتماد عليه، أب يحتضنها ويجمّع معها دارات كهربائية من غير وجود أحد يكدّر عليهما تلك اللحظات. وهي قادرة على رؤية كم يمكن أن يبدو رابح شخصًا ساحرًا ورائعًا في نظر من لم يبلغ العاشرة من العمر. يسرّه أن يجلس على الأرض ويلعب بدمى إيثر، وأن يأخذها لتسلّق الصخور، ويشتري لها ملابس، ويذهب معها في نزهة على الدراجة، ويحدّثها عن المهندسين اللامعين الذين بنوا قنوات اسكوتلندا وجسورها.

على أن هذه العلاقة تثير في نفسها شيئًا من القلق على مستقبل ابنتها. تتساءل في نفسها كيف يمكن أن يقدر رجال آخرون على مضاهاة مستويات الرقّة والاهتمام التي تعيشها مع أبيها. هل سينتهي الأمر بابنتها «الأفضل» إلى رفض رجال كثيرين لا لسبب إلا لأنهم لا يستطيعون أبدًا أن يمنحوها تلك الصداقة التي تستمتع بها الآن مع رابح. إلا أن ما يزعجها أكثر من أي شيء آخر هو تلك العاطفة التي يظهرها رابح. تعرف أن ما يبديه من لطف ورقّة مع ابنتهما متاح انطلاقًا من دوره الأبوي وحده، لا من دوره زوجًا. إن لها تجارب كثيرة مع التغيّرات العنيفة في نبرة صوته كلما كانا بعيدين عن مسامع طفليهما. إنه يهمس في ذهن إيثر –من غير قصد– بصورة لما يمكن أن يكونه السلوك المثالي لرجل مع امرأة؛ وذلك بصرف النظر عن

أن المثال نفسه لا يعكس أبدًا حقيقة رابح نفسه. هذا يعني أن إيثر قد تطلب، في وقت لاحق من حياتها، من رجل يتصرّف معها بطريقة أنانية، أو قاسية، أو غير مهتمة كثيرًا أن يوضح لها السبب، الذي يجعله غير قادر على أن يكون مثل أبيها، وذلك من غير أن تدرك أنه يُشبهه كثيرًا في واقع الأمر، لكنّه لا يشبه النسخة التي عرفتها في طفولتها.

لعل من المفيد -في هذه الظروف- أن تكون للرقة واللطف حدودهما، وأن يظلّ هذان الوالدان قادرين، على الرغم من كل ما يبذلانه من جهود، على مضايقة طفليهما مضايقة عميقة متكرّرة (مثلما يفعل الأهل جميعًا). يتضح أن إظهار الأهل برودة صريحة، وأن كونهما قاسيَيْن أو مخيفين، هو السبيل الأول من بين سبل كثيرة أخرى لضمان شعور الأطفال بالنفور منهما. وهناك استراتيجية أخرى -فعّالة جدًا- تشتمل على مزيج من الإفراط في الحماية والمبالغة في التدخّل والإسراف في الاحتضان والمعانقة... مزيج ثلاثي من سلوكات عصابية كثيرًا جدًّا يستخدمه رابح وكيرستن. يُظهر رابح -ابن بيروت- قلقًا كبيرًا كلما اجتاز ويليام وإيثر الشارع، ويسعى دائمًا إلى درجة من القرب منهما قد تكون مزعجة. ويُكثر من سؤالهما عما جرى في يومهما. ويطالبهما دائمًا بارتداء طبقة ملابس إضافية. ويبدو له دائمًا أنهما أكثر ضعفًا وهشاشة مما هما عليه في واقع الأمر. هذا من بين الأسباب التي تجعل إيثر تصرخ وتقول له: «دعني وشأني!». إنه يقدّم لها سببًا وجيهًا لقول هذا.

وأيضًا، ليس أمرًا سهلًا أن تكون كيرستن أمًّا لهما. لأن هذا يعني اضطرارهما إلى إجراء اختبارات إملاء كثيرة، ودفعهما إلى تعلّم

العزف على آلات موسيقية كثيرة، وإسماعهما ملاحظات مستمرة تذكّرهما بأن عليهما أن يتناولا طعامًا صحّيًا. ليست مفاجِئةً هذه المجموعة من الأولويات التي تراها امرأة كانت الطالبة الوحيدة في مدرستها الثانوية التي تذهب إلى الجامعة، ثم صارت واحدة من القلائل غير المعتمدين على المعونة الاجتماعية.

يشفق رابح على الطفلين أحيانًا -في بعض حالات مزاجه- لأن عليهما التعامل مع هذين الوالدين. وهو قادر على فهم تذمّرهما وامتعاضهما من السلطة التي يمارسها عليهما مع كيرستن، ومن أنهما أكبر منهما باثنين وثلاثين عامًا، ومن ذلك الطنين المستمرّ لصوتهما في المطبخ كل صباح. إنه يواجه قدرًا غير قليل من المشقّة في مهمة تحمُّلِه نفسه؛ فلا غرابة في أن يجد نفسه متعاطفًا مع هذين الصغيرين اللذين يعثران دائمًا على سببٍ أو سببين للخلاف معه. وهو مدرك أن لضيقهما هذا دورًا مهمًّا يلعبه في حياتهما: هو ما يضمن أن الطفلين سوف يتركان البيت في يوم من الأيام.

إنْ ازداد لطف الأهل إلى حدٍّ كافٍ، فسوف تراوح البشرية في مكانها، ثم تموت مع مرور الزمن. فبقاء الجنس كلّه متوقّف على أن يضيق الأطفال ذرعًا آخر الأمر، فينطلقوا إلى العالم متسلّحين بالأمل في العثور على منابع للحب والإثارة والاستمتاع بالحياة تكون أكثر إرضاء لهم.

وفي لحظات الدفء والدّعّة، عندما تتكوّم الأسرة كلّها معًا على السرير الكبير، وتخيّم عليها حالة من روح المرح والمزاح والتسامح، يظل رابح منتبهًا إلى أن هذا كلّه لن يلبث أن ينتهي يومًا في مستقبل ليس بعيد جدًا... سينتهي بفعل قانون من قوانين الطبيعة

يجري إنفاذه بوسيلة طبيعية إلى أقصى حدٍّ: إنها فترة المراهقة بكل ما فيها من حنق وثورات غضب. إن استمرار العائلات عبر الأجيال معتمد على أن يفقد الشباب، آخر الأمر، صبرهم على من هم أكبر منهم. ستكون مأساة حقيقية إن ظل هؤلاء الأربعة راغبين في الاستلقاء هنا، متشابكي الأذرع والسيقان على هذا السرير بعد خمس وعشرين سنة من الآن. لا بد أن ينتهي الأمر بإيثر وويليام إلى أن يجداهما، هو وكيرستن، شخصين مضجرين وسخيفين على النمط القديم، فينشأ لديهما دافع قويٌّ يحملهما على الخروج من هذا البيت.

منذ فترة وجيزة، اضطلعت ابنتهما بدور قيادي في مقاومة حكم الوالدين. فمع اقتراب عيد ميلادها الحادي عشر، تبدأ اعتراضاتها الشديدة على ملابس والدها ولكنته وطرقه في إعداد الطعام، وتفتح عينيها على اتساعهما مستغربة اهتمام أمها الزائد بقراءة الأدب الرفيع، وعادتها الغريبة في الاحتفاظ بنصف الليمونة غير المستخدم في البراد بدلًا من رميه من غير اهتمام به. تزداد إيثر قوة وطولًا، فيزداد ضيقها من تصرّفات أبويها وعاداتهما. لا يزال ويليام أصغر سنًا من أن يلقي تلك النظرات الحارقة على من يرعياه. إن الطبيعة رفيقة بالأطفال من هذه الناحية، فهي لا تجعلهم يرون عيوب آبائهم وأمهاتهم دفعة واحدة، ولا تجعلهم يرونها كلّها إلا عندما يكونون قد كبروا إلى عمر يتيح لهم الفرار من تلك العيوب.

يعرف رابح وكيرستن أن عليهما، حتى يتركا الانفصال يتّخذ مجراه الطبيعي، ألّا يبالغا في الصرامة مع طفليهما، أو في الابتعاد عنهما، أو في تخويفهما. فهما مدركان أن من السهل أن يصير لدى

الطفل هاجس يجعله منشغل الذهن بأب أو أم تصعب قراءتهما، أو يبدو عليهما الذعر، أو لا يبدوان له أنهما في حالة طبيعية تمامًا. يكون أولئك الآباء والأمهات أشدّ تمسكًا بأطفالهم من الآباء والأمهات المستقرّين ذوي الاستجابات الطبيعية. لا يريد رابح وكيرستن أن يكونا من ذلك النوع من الأشخاص المتقلّبين، كثيري المخاوف، ممن قد يصير الطفل مهجوسًا بهم طيلة حياته؛ وهذا ما يجعلهما حريصين على البقاء طبيعيين ومنفتحين مع طفليهما، بل حتى أبلهين بطريقة مسرحية بعض الأحيان. يريدان أن يقلّلا ما قد يثيرانه من خوف في نفسي إيثر وويليام إلى أقصى حدٍّ حتى يتمكّن الطفلان من وضعهما جانبًا عندما يأتي وقت ذلك، وحتى يتمكّنا من الانطلاق في حياتهما. فهما يشعران ضمنيًا بأن اعتبارهما «مضمونين دائمًا» هو أفضل مؤشّر ممكن على سوية الحب التي يقدمانها إلى طفليهما.

الجنس والأبوة

تقول كيرستن وهي تضع مواد التجميل في الحمام قبل النزول إلى الطابق السفلي لإعداد الطعام للطفلين: «فلنفعلها الليلة، ما رأيك في ذلك؟».

يجيبها رابح: «فليكن ذلك...»، يقولها مبتسمًا ثم يضيف... «سأسجّل هذا الأمر في مفكّرتي». هذا ليس مزاحًا. إن ليلة الجمعة ليلتهما المفضلة؛ وقد مرّ زمن منذ فعلاها آخر مرة.

وفي طريقه إلى عمله، يفكّر في شعر كيرستن الدافئ الرطب، وفي التصاقه الجميل بجلدها الأبيض عندما تخطو خارجة من الحمام، فيتمهّل لحظة وينتشي بحسن حظه الاستثنائي الذي جعل هذه المرأة الاسكوتلندية القوية الذكية توافق على قضاء بقية حياتها معه.

ثم يكون ذلك اليوم صعبًا، ويكون فيه قدر غير قليل من التوتر، فلا يصل منزله قبل الساعة السابعة مساء. إنه الآن في شوق إلى كيرستن، لكن عليه أن يكون دبلوماسيًا. لا محل لأي تعجّل أبدًا؛ وبالتأكيد، لا محلّ لأيّ إلحاح. سوف يحاول أن يقول لها بصدق تامّ ما يحسّه من خلف الهرج والمرج اليوميين. لا تزال خطته غير واضحة في ذهنه، لكنه متفائل.

الأسرة مجتمعة كلّها في المطبخ، حيث تجري مناقشة حادّة في موضوع الفاكهة. يرفض كل من الطفلين تناول الفاكهة رفضًا تامًا

على الرغم من خروج كيرستن لكي تشتري قليلًا من التوت البرّي من أجلهما تحديدًا. لقد صفّت حبّات التوت في طبق فرسمت بها وجهًا مبتسمًا. يتّهم ويليام أمه بأنها لئيمة، وتقول إيثر إن رائحة التوت البري تصيبها بالغثيان.

يمازحهم رابح قائلًا إنه اشتاق إلى العودة إلى «مستشفى المجانين» بعد نهاره الطويل في المكتب، ثم يداعب شعر ويليام ويقول إن وقت القصص في غرفة النوم قد حان. يتناوب رابح وكيرستن على قراءة القصص لهما في الأمسيات. إنه دور كيرستن في هذه الليلة. وفي غرفة الطفلين، تضعهما قريبين منها، واحدًا إلى كل جانب، ثم تبدأ قراءة قصة مترجمة عن الألمانية تتحدّث عن أرنب يلاحقه الصيادون في الغابة. تُذكّره رؤيتهما ملتصقين بها كيف كان يلتصق بأمه في طفولته. يحب ويليام أن يلعب بشعر أمه ويجذبه إلى الأمام، تمامًا مثلما كان رابح يفعل مع أمه. يطالبانها بالمزيد عندما تنتهي من تلك القصة فتغنّي لهما أغنية أطفال اسكوتلندية قديمة اسمها «غريوغال غريدي»... أغنية تحكي قصّة حزينة عن أرملة شابة ألقى أفراد قبيلتها القبض على زوجها وقتلوه أمامها. يجلس رابح أمام الباب، متأثّرًا، مصغيًا إلى صوت كيرستن، يشعر بنوعٍ من الاعتزاز لأنه رافق تطوّر زوجته لتصير أمًا ذات قدرات استثنائية. وأما هي فليست راغبة في هذه اللحظة إلا في كأس من البيرة.

يذهب رابح ويستلقي على السرير في غرفة النوم، وبعد نصف ساعة يسمع دخول كيرستن إلى الحمام، وعندما تخرج يراها مرتدية ثوبها البيتي المقلّم الموجود لديها منذ أن كانت في الخامسة عشرة؛ ذلك الثوب الذي كانت تستخدمه كثيرًا عندما كان الطفلان

صغيرين جدًّا. وعندها، تتطرّق كيرستن إلى ذكر مكالمة هاتفية تلقّتها بعد الظهر من صديقة لها في الولايات المتحدة كانت زميلة دراسة لها في أبردين. أمّها المسكينة مصابة بسرطان المريء؛ وقد جاء هذا التشخيص مفاجأةً صاعقة. ليست هذه أول مرة يشعر فيها رابح بأن كيرستن صديقة مخلصة جدًا تتعامل تعاملًا عفويًا عميقًا مع احتياجات الآخرين.

ثم تقول كيرستن إنها بدأت تفكّر منذ حين في تعليم الطفلين الجامعي. صحيح أن ذلك الوقت لا يزال بعيدًا، إلا أن هذا بالضبط ما يجعل الحديث عنه الآن أمرًا مهمًّا. فالآن هو الوقت المناسب لوضع بعض المال جانبًا (ليس مالًا كثيرًا، فهما مضغوطان ماديًا). ينبغي أن يكون مبلغًا مناسبًا حتى يتراكم لديهما قدر كافٍ من المال آخر الأمر. يتنحنح رابح، ثم يشعر في مكان ما في داخله بأنه صار قانطًا بعض الشيء.

قد نتخيّل أن الخوف وقلة الإحساس بالأمان عندما يقترب المرء من شخص آخر أمران لا يحدثان إلا مرة واحدة: في بداية العلاقة! وقد نظنّ أن تلك المخاوف لا يمكن أن تستمر بعد أن يُقدِم الشخصان على خطوات تشير إشارات واضحة إلى التزامات كل منهما، كالزواج، والحصول على قرض مشترك، وشراء بيت، وإنجاب أطفال، ووضع كل منهما اسم الآخر في وصيته.

إلا أن قهر المسافات والحصول من الطرف الآخر على تأكيد لحاجته إلينا، ليسا من المهمات التي يقوم بها المرء مرة واحدة: لا بد من تكرار ذلك كلما حدث انقطاع، يوم

من الفراق، أو فترة انشغال كبير، أو أمسية يمضيها المرء في العمل. فلكلّ فترة فاصلة من هذا النوع قدرةٌ على أن تطرح من جديد ذلك السؤال نفسه عما إذا كنا لا نزال موضع رغبة الطرف الآخر.

من هنا، تكون مؤسفة حقًا تلك المشقة التي تعترض سبيل العثور على طريقة ناجحة، لا تجعلنا نشعر بالخجل، للإقرار بما لدينا من حاجة ماسة إلى الاطمئنان على أن الأمر لا يزال مثلما كان. فحتى بعد سنين من العيش المشترك، يظلّ هناك خوف يعوق طلب دليلٍ يثبت استمرار الرغبة. إلا أن في الأمر تعقيدًا مخيفًا آخر: يُزعم الآن أن ما من مشروعية لوجود هذا النوع من القلق. بالتالي فإننا نقع في إغراء التظاهر بأن ذلك التأكيد أو الاطمئنان هو آخر ما يمكن أن يكون في أذهاننا. ومن الغريب أننا قد ندخل مغامرة أو علاقة عاطفية لا تكون بأقل من فعل خيانة لا نريد منه -أكثر الأحيان- إلا أن يكون محاولةً لحفظ ماء الوجه وللتظاهر بأننا لسنا في حاجة إلى أحد. إنه إثبات مرهِق لتلك اللامبالاة التي ندَّخِرُها للشخص الذي نحن مهتمون به حقًا (نوجهها إليه سرًّا)، لكننا مذعورون من إظهار أنه هو من نحتاج إليه حقًّا وأنه جرحَنا من غير أن يريد ذلك.

لا تنفد لدينا أبدًا تلك الحاجة إلى القبول. وهي ليست لعنة مقتصرة على الضعفاء أو على من ينقصهم شيء. فقد يكون الإحساس بقلّة الأمان علامة دالّة على حُسن الحال. تعني هذه العلامة أننا لا نترك أنفسنا تتعامل مع

وجود الطرف الآخر في حياتنا باعتباره أمرًا مضمونًا؛ وتعني أنه لا يزال لدينا من الواقعية قدرٌ كافٍ لرؤية أن الأمور يمكن أن تتّخذ اتجاهًا سيئًا، وأن علينا أن نظل منتبهين إلى هذا الاحتمال.

الآن، صار الوقت متأخّرًا كثيرًا. إن لدى الطفلين تدريب على السباحة في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي. ينتظر رابح إلى أن تنتهي كيرستن من استعراض الأماكن التي قد يذهب إليها إيثر وويليام لمواصلة الدراسة، ثم يمد يده إلى زوجته فيمسك بيدها. تترك يده في مكانها بعض الوقت، ثم تضغط عليها ضغطًا خفيفًا، ثم يبدآن تبادل القبل. يداعب فخذيها. وأثناء ذلك، تشرد عيناه في اتجاه الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير حيث وضعت كيرستن بطاقة صنعها لها ويليام: «عيد ميلاد سعيد يا ماما»؛ هذا ما تقوله البطاقة إلى جانب رسم لشمس لطيفة باسمة. يجعله هذا يتذكّر وجه ويليام المتشاقي، ويتذكّر أيضًا كيف حملته كيرستن على كتفيها وتجوّلت به في المطبخ... كان هذا في الأسبوع الماضي عندما ارتدى ملابس ساحر عند عودته من المدرسة.

إن في جزء من نفس رابح رغبة شديدة في مواصلة إغواء زوجته وإثارتها، فهو مشتاق إلى هذا منذ زمن طويل. لكنّ هناك جانبًا آخر من نفسه ليس واثقًا من أنه في مزاج مناسب الآن، وذلك لأسباب يجد صعوبة في وضع اليد عليها.

هذه نظرية معروفة جيدًا: إن في الأشخاص الذين نشعر بأن هناك ما يجذبنا إليهم عندما نكون كبارًا نقاطَ تشابه واضحة مع أشخاص أحببناهم كثيرًا في طفولتنا. قد

يكون ذلك ميلًا إلى المزاح، أو تعبيرًا يظهر على الوجه، أو طبعًا نحبّه، أو نزعة انفعالية.

إلا أن هناك شيئًا نريد فعله مع الكبار الذين نحبّهم كان غير مقبول أبدًا أن نفعله مع من كانوا يتولّون رعايتنا ويشيعون الطمأنينة في قلوبنا عندما كنا صغارًا: نريد ممارسة الجنس مع أولئك الأشخاص أنفسهم الذين يذكّروننا -من نواحٍ مهمة- بالناس الذين كان متوقعًا منا (بكل قوة) ألا نمارس الجنس معهم. ينتج عن هذا أن نجاح الاتصال الجنسي معتمد على قدرتنا على «إغلاق» التداعيات الحيّة كثيرًا التي تقيمها أذهاننا بين شركائنا العاطفيين و«صورهم الأصلية» الموجودة لدينا، صور أهلنا. نكون في حاجة -لفترة وجيزة- إلى أن نحرص على ألا تصير مشاعرنا الجنسية مع من نهواهم مشوّشة على نحو غير ملائم.

على أن هذه المهمة تصير أكثر صعوبة بعد مجيء الأطفال لأن حضورهم يستدعي مباشرة حضور الجوانب الوالدية (تحديدًا) لدى شركائنا. قد نكون مدركين، على مستوى وعينا، أن الشريك ليس والدًا أو والدة، أنه ليس محرَّمًا علينا من الناحية الجنسية، وأن ذلك الشريك هو الشخص نفسه الذي كانه على الدوام، الشخص نفسه الذي كنا نلهو معه في شهور العلاقة الأولى، بل كنا نفعل معه أشياء مبالغًا فيها. إلا أن الفكرة نفسها تصير واقعة تحت ضغط أكبر من ذي قبل، مع تزايد اختفاء ذات الشريك الجنسية تحت «الهوية الرعائية» التي لا بد

له من إظهارها طيلة النهار مُعبّرًا عنها باللقبَيْن البهيجين المحتشمين: «ماما» و«بابا». لقبان من الممكن حتى أن نستخدمهما نحن في الإشارة إلى أنفسنا.

في وقت من الأوقات، كان شكل ثديي كيرستن موضوع اهتمام شديد عند رابح. يتذكّر كيف كان يلقي عليهما نظرات سريعة خفية وهما تحت البلوزة السوداء التي ارتدتها يوم أول لقاء بينهما؛ ويتذكّر كيف كان «يدرسهما» من تحت قميصها الأبيض ذي الكمين القصيرين، ذلك القميص الذي كان يوحي بحجمهما المعتدل الساحر، ويتذكّر احتكاكه بهما احتكاكًا بسيطًا جدًّا وقت تلك القبلة الأولى في الحديقة النباتية، قبل أن يذهبا أخيرًا إلى بيتها فيداعبهما بلسانه في مطبخها القديم. كان منشغل الذهن بهما طيلة الوقت في تلك الأيام الأولى. وكان يطلب منها ألا تفك حمالة الثديين أثناء ممارسة الجنس حتى يزيحها بنفسه مرات كثيرة، ثم يعيدها، وذلك لكي يحافظ على أقصى درجة من ذلك التضاد الرائع بين صورتين لهما، صورتهما الكاسية وصورتهما العارية. كان يطلب منها أن تطوّق ثدييها بكفيها وتداعبهما مثلما قد تفعل لو لم يكن معها. وكان يريد أن يلمسهما بكل عضوٍ فيه وكأن كفيه وحدهما غير كافيين، أو كأن هناك حاجة إلى إشارة أكثر تأكيدًا على امتلاكه هذه المنطقة التي كانت حرامًا عليه.

أما الآن، بعد سنين من ذلك، فهما مستلقيان، متجاوران على سرير الزوجية، ولا يزال بينهما ما يكاد يُقارب ذلك الحرج الجنسي المتوتّر، بقدر ما قد يكون بين جد وجدة ذاويين، وهما مستلقيان تحت الشمس على شاطئ من شواطئ العراة على بحر البلطيق.

يبدو أن حالة الإثارة الجنسية ليست، في نهاية المطاف، على ارتباط وثيق بحالة العري؛ إنها تستمد قوتها من احتمالية نيل السماح بامتلاك الآخر، ذلك الامتلاك الذي هو موضع رغبة عميقة وقد صار الآن- بأعجوبة- متاحًا بعد أن كان ممنوعًا. إنها تعبير عن الدهشة المُمْتنّة، دهشة تكاد تقارب عدم القدرة على تصديق أن المعصمين والفخذين والأذنين والكتفين صارت لنا -في عالم من الانقطاع والعزلة- وصرنا قادرين على النظر إليها مثلما نشاء: إنها فكرة استثنائية فائقة نود دائمًا أن نواصل التحقّق منها (ربما نكرّر التحقق كل بضع ساعات) ونود الاستمتاع من جديد باللمس والكشف والإيلاج والتعرية... فنحن في وحدة قاسية، والحبيب يبدو لنا مستقلًا وشديد البعد عنا. إن الرغبة الجنسية مدفوعة دائمًا بتمنّي التأكيد على القُرب، فهي بالتالي مشروطة بإحساس قَبلي بالبعد مما يجعل محاولة جَسر ذلك البعد مصدرًا واضحًا من مصادر المسرّة والإحساس بالارتياح.

ما عاد هناك إلا أقل القليل من البعد بين رابح وكيرستن. فمن الناحية القانونية هما شريكان مدى الحياة؛ وهما يتشاطران غرفة نوم طولها أربعة أمتار وعرضها ثلاثة أمتار يأويان إليها كل ليلة. كثيرًا ما يتحدّثان هاتفيًا عندما يكونان متباعدين؛ وكل منهما رفيق مفترض تلقائي للآخر في كل عطلة نهاية أسبوع؛ ويعرف كل منهما مسبقًا ما يفعله الآخر... يعرفه بالضبط في معظم لحظات الليل والنهار.

وما عاد في وجودهما المشترك الكثير مما تُمكن نسبته «إلى الآخر» على نحو دقيق، وبالتالي، فليس لما يثير الشهوة عادةً الكثير مما يستطيع فعله لجَسر تلك المسافة بينهما.

تصل أيام كثيرة إلى ختامها، فتكون كيرستن غير راغبة حتى في أن يمسّها رابح، لا لأنها لم تعد مهتمة به، بل لإحساسها بأنه لم يتبقَ منها ما يكفي لأن تخاطر بتقديمه إلى أحد غيره. لا بد للمرء من قدر من الاستقلالية الذاتية قبل أن يصير قادرًا على أن يجد متعةً في قيام شخص آخر بخلع ملابسه عنه. لكنها أجابت اليوم عن أسئلة كثيرة جدًّا، وألبست الطفلين حذاءيهما مرات كثيرة جدًّا، ورجتهما ولاطفتهما حتى اكتفت... وصارت لمسة رابح تبدو كأنها عقبة جديدة تعترض سبيل اتحادها مع ذاتها الداخلية التي أُجبرت على تجاهلها، ذلك الاتحاد الذي أُجّل كثيرًا. تود أن تلتصق بنفسها بقوة وهدوء لا أن تتبعثر ذاتُها من جديد، فتتشتت تحت وطأة مزيد من المطالب. إن كل محاولة للتقرب منها الآن تهديدٌ بتمزيق الغلاف الرقيق المحيط بكينونتها الخاصّة بها. وإلى أن تسنح لها فرصة كافية لكي تسكُن إلى أفكارها، ستظلّ غير قادرة حتى على بدء الاستمتاع بأن تمنح أحدًا آخر ذاتها.

بالإضافة إلى ذلك كلّه، من الممكن أن نشعر بالحرج، وبأننا نكشف انكشافًا يصعب علينا احتماله، عندما نطلب الجنس من شريك، أو شريكة، نحن معتمدون عليه اعتمادًا عميقًا من نواحٍ كثيرة جدًا لا علاقة لها بالجنس. فقد يكون الجنس إفراطًا «بالغًا» في الحميمية إن أتى من بعد مناقشات حادة في ما ينبغي فعله بأحوالنا

المالية، وبمشكلة تغيّب الطفل عن المدرسة، وبالمكان الذي سنذهب إليه في العطلة، وبنوع الكرسي الذي نودّ شراءه. سيكون إفراطًا في الحميمية من جانب الشريك أن ينظر إلى اهتماماتنا الجنسية نظرة عطف وتفهمّ: إلى رغبتنا في أن يرتدي قطعة ملابس بعينها، أو في أن يأخذ دورًا في سيناريو فاحش نتخيّله أو نتوق إليه، أو في أن يتّخذ وضعية بعينها على الفراش. قد لا نكون راغبين في النزول إلى دَرَك التوسّل، أو في إهدار رأس مال عاطفي ثمين من أجل أمرٍ لا يتعدّى صورة مثيرة نتخيّلها. وقد نفضّل ألا نكشف عن خيالات نعرف أنها يمكن أن تجعلنا نبدو مضحكين، أو منحرفين، في نظر الشخص الذي لا بد لنا من المحافظة أمامه، قبل ذلك وبعده، على توازننا وهيبتنا اللتين تفرضهما مناقشاتنا اليومية ومواقف الحياة الزوجية كلّها. وقد نجد أن من الأسهل لنا كثيرًا أن نفكّر في شخص غريب تمامًا بدلًا من ذلك العناء كلّه.

في الأسبوع الماضي، كيرستن وحدها في البيت، في الطابق العلوي، في غرفة النوم، أول العصر. وعلى التلفزيون برنامج عن أسطول صيد الأسماك في بحر الشمال في بلدة كينلوتشبيرغي في شمال شرقي البلاد. يلتقي الصيادين، ونسمع عن استخدامهم تكنولوجيا جديدة للسونار، ونعرف بأن هناك تراجعًا مقلقًا في كميات عدة أنواع من الأسماك. إلا أنه لا تزال هناك كميات من الرنجة، كما أن موسم أسماك القد ليس سيئًا هذا العام. صياد اسمه كلايد يقود زورق صيد يدعى لوتش دافان. يخرج إلى أعالي

البحار، كل أسبوع، وكثيرًا ما يبلغ أطراف آيسلاند أو غرينلاند. له هيئة فظّة متغطرسة، وحنك حاد المظهر، وعينان غاضبتان. لن يعود الطفلان من بيت أصدقائهما قبل ساعة من الآن. تنهض كيرستن وتغلق باب غرفة النوم قبل أن تخلع بنطلونها وتستلقي على السرير. إنها الآن على متن لوتش دافان في كابينة ضيّقة إلى جوار غرفة القيادة. في الخارج ريح عنيفة تهز القارب كأنه لعبة. لكنها تسمع عبر زئير الريح صوت نقرات على باب الكابينة. إنه كلايد؛ لا بد أن هناك حالة طارئة في غرفة القيادة. ثم يتّضح لها أن الأمر غير ذلك. ينتزع عنها رداءها المشمّع ويأخذها مُسندًا إياها إلى جدار الكابينة من غير أن ينطق أيٌّ منهما بأية كلمة. شعرات ذقنه النابتة تحرق جلدها. إنه رجل شبه أميّ، جلف إلى أقصى حد، لا يكاد يحسن الكلام، ولا قيمة له عندها مثلما لا قيمة لها عنده. يبدو هذا التفكير في الجنس أمرًا فظًّا، مستعجلًا، لا معنى له ـ لكنه الآن أشد إثارة بكثير من ممارسة الحب في المساء مع الشخص الذي تحبّه فعلًا ويهمها أمره كثيرًا.

لا مكان منطقيًا في إيديولوجيا الرومانسية لفكرة أن يأتي الحبيب في المقام الثاني في الخيالات الاستمنائية بعد شخص غريب منتقى انتقاء عشوائيًا. وأما في المراكز العملية، فإن الفصل المنطقي بين الحب والجنس هو، على وجه التحديد، ما قد يكون لازمًا لتصحيح العلاقة الحميمة وجعلها تتخفّف من أعبائها التي تثقل عليها. ففي الإقدام على استخدام شخص غريب تجاوزٌ لمشاعر الاستياء، ولنقاط الهشاشة الانفعالية، ولأي

إحساس بالواجب يستتبع ضرورة الاهتمام باحتياجات الطرف الآخر. نستطيع أن نكون أنانيين وغريبي الأطوار مثلما نريد من غير خشية من حُكمٍ علينا أو من عواقب تنتظرنا. تبقى العواطف كلّها في مكانها، وتظلّ آمنة على نحو رائع؛ وما من أدنى رغبة في أن يفهمنا الآخر الذي هو غريب عنّا، بالتالي، ما من مخاطرة أيضًا في أن يسيء فهمنا فيجعلنا نشعر بمرارة أو إحباط. فعلى الأقل، نستطيع أن تكون لدينا رغبة من غير أن نجلب معنا إلى الفراش بقية نواحي حياتنا المثقلة إلى حدِّ الإعياء.

ليست كيرستن وحدها من تجد أمانًا أكبر في فصل بعض جوانب حياتها الجنسية عن بقية أجزاء حياتها. فعلى نحو متكرّر، يفعل رابح شيئًا يشبه ذلك كثيرًا. يتأكّد في هذه الليلة من أن زوجته قد نامت. يهمس باسمها آملًا ألا يتلقّى إجابة. ثم يسير على أطراف أصابعه بعد أن يتأكّد من عمق نومها، (يقول في نفسه إنه يصلح لأن يكون قاتلًا جيدًا)، ثم ينزل إلى الطابق السفلي مارًا بغرفة الطفلين (يرى ابنه النائم متمسّكًا بدبه المفضل جيفري). يصل حيّزًا صغيرًا ملحقًا بالمطبخ ويجلس إلى الكمبيوتر ويدخل غرفةَ محادثةٍ تعجبه. يكاد الليل ينتصف.

هنا أيضًا، تكون الأمور أسهل كثيرًا على رابح مما هي مع زوجته. لا حاجة إلى التساؤل عما إذا كان الشخص الآخر في حالة مزاجية مناسبة: ما على المرء إلا أن ينقر على اسم الشخص المطلوب متخيلًا أنه سيكون طريدةً له بالنظر إلى موقعه الجغرافي الذي يُظهره الإنترنت.

وفي هذا الوسط، لا يكون عليه أيضًا أن يشغل باله بأن يبدو شخصًا طبيعيًا. فهذه ليست هي نسخةُ نفسهِ التي تأخذ الطفلين إلى المدرسة في الصباح، أو تلقّي كلمة في العمل، أو تستضيف دعوة عشاء تحضرها زوجته وبضعة محامين ومعلّمة في حضانة الأطفال.

ليس عليه أن يكون لطيفًا، ولا مباليًا بالآخرين: ليس عليه حتى أن يكون منتميًا إلى جنسه. يستطيع هنا أن يجرّب القيام بدور امرأةٍ مِثلية من غلاسغو، امرأة خجول لكنها مقنِعة إلى حد مدهش، امرأة تسير خطوات أولى متردّدة صوب استيقاظها على ميولها الجنسية الحقيقية.

ولحظة انتهائه، يستطيع إغلاق الكمبيوتر والعودة إلى كونه الشخص الذي يعتمد عليه أشخاص آخرون كثيرون، طفلاه وزوجته وزملاؤه في العمل. يعود إلى كونه الشخص الذي هم على ثقة من أنه سيكونه دائمًا.

من ناحية أولى، قد يبدو أمرًا محزنًا أن يجد المرء نفسه في حاجة إلى اختراع خيالات بدلًا من محاولة بناء حياة يمكن فيها لأحلام اليقظة أن تصير واقعًا حقيقيًا. لكن الخيالات كثيرًا ما تكون أفضل ما نستطيع فعله إزاء رغائبنا الكثيرة المتعارضة؛ فهي تسمح لنا بأن نعيش واقعًا نشتهيه من غير إلحاق الضرر بواقع آخر. إن الخيالات تُعفي من يهمنا أمرُهم من الغرابة المخيفة في نزواتنا، ومما يعتري تلك النزوات من انعدام تام للمسؤولية. فهي -بطريقتها الخاصة- إنجاز من إنجازات المدنية الحديثة، بل سمة من سماتها. وهي أيضًا عمل من أعمال الرحمة والإحسان.

ليست الحادثتان المتخيلتان على مركب الصيد وفي غرفة المحادثة دليلًا على أن الحب لم يعد موجودًا بين رابح وكيرستن؛ بل هما إشارة إلى أن كلًّا من الزوجين منغمسٌ كثيرًا في حياة الآخر بحيث لا يجد في نفسه، بعض الأحيان، تلك الحرية الداخلية التي تسمح له بممارسة الحب من غير إفراط في الانتباه إلى ما في نفسه، أو من غير ذلك الشعور المُثبّط للمسؤولية.

أهمية غسل الملابس

هما زوجان عصريان. وهذا يعني أنهما يتقاسمان المهمّات وفق ترتيب معقّد بينهما. يذهب رابح إلى عمله خمسة أيام في الأسبوع، لكنه يعود مبكرًا بعد ظهر أيام الجمعة لكي يرعى الطفلين. وهذا ما يكون مسؤولًا عنه أيضًا في صباح كل سبت وبعد ظهر كل أحد. تعمل كيرستن حتى الساعة الثانية أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء؛ وتكون مع الطفلين بعد ظهر كل سبت وصبيحة كل أحد. يتولّى رابح مسؤولية حمّام الطفلين يوم الجمعة، ويتولى إعداد العشاء أربع ليالٍ في الأسبوع. تشتري كيرستن المواد الغذائية ومستلزمات البيت، في حين يهتم رابح بإفراغ القمامة وبالسيارة.

إنها السابعة وبضع دقائق من مساء يوم خميس. منذ صباح هذا اليوم، حضِر رابح أربعة اجتماعات، وتابع أمر واحد من المورّدين كان متأخّرًا عن موعد تسليم كمية من البلاط، وحلّ مشكلة (يأمل أن يكون قد حلّها فعلًا) سوء تفاهم متصل بتخفيضات ضريبية، وحاول إطلاع المدير التنفيذي الجديد على خطة لعقد اجتماع مع العملاء يمكن أن يكون له أثر عظيم على أداء الشركة في الربع الثالث من السنة المالية (أو يمكن أن يوقِعَها في عدد من المشكلات). وجد نفسه مضطرًا إلى الوقوف في ممر باص مزدحم مدة نصف ساعة، في طريق الذهاب وفي طريق العودة؛ وهو الآن سائر تحت المطر من موقف الباص إلى البيت. يفكّر في أنه سيكون

أمرًا عظيمًا أن يصل الآن إلى البيت، ويسكب لنفسه كأس نبيذ، ويقرأ للطفلين قصة «المشاهير الخمسة»، ويقبلهما متمنّيًا لهما ليلة طيبة، ويجلس لتناول العشاء وتبادل أحاديث لطيفة مع زوجته التي هي أعز أصدقائه وأقرب حلفائه. لقد بلغ احتماله أقصاه، وبدأ يميل إلى الإحساس بالإشفاق على نفسه. (إحساس محق طبعًا).

وفي هذا اليوم، ظلّت كيرستن في البيت طيلة النهار تقريبًا. فعقِب إيصالها الطفلين إلى المدرسة (جرت بينهما مشاجرة بشعة من أجل علبة أقلام)، رفعت الأطباق ونظفت الطاولة بعد الإفطار، ثم رتّبت الأسرّة، وتلقّت ثلاث مكالمات هاتفية لها صلة بالعمل (الظاهر أن زملاءها يجدون صعوبة في تذكّر أنها لا تكون في المكتب يومي الخميس والجمعة)، ونظّفت الحمامين، وكنست البيت كله، ورتّبت الملابس الصيفية لأفراد الأسرة جميعًا. اتّفقت مع السبّاك على موعد لكي يأتي ويفحص صنابير المياه، وجلبت الملابس من محل التنظيف، وأوصلت إلى الورشة كرسيًا في حاجة إلى إعادة تنجيد، وحجزت موعدًا من أجل فحص أسنان ويليام، وأعادت الطفلين من المدرسة، وأعدّت لهما وجبة خفيفة (صحية) وأطعمتهما، وشجعتهما على الجلوس وأداء واجباتهما المدرسية، وأعدّت طعام العشاء، واستحمّت، وأزالت عددًا من بقع الحبر عن أرضية غرفة المعيشة.

تقول في نفسها الآن إنه سيكون أمرًا عظيمًا أن يعود رابح إلى البيت ويتولّى الأمور بدلًا منها حتى تسكب لنفسها كأس نبيذ، وتقرأ للطفلين قصة «المشاهير الخمسة»، ثم تقبّلهما متمنية لهما ليلة طيبة، وتجلس لتناول العشاء وتبادل أحاديث لطيفة مع زوجها

الذي هو أعز أصدقائها وأقرب حلفائها. لقد بلغ احتمالها أقصاه، وبدأت تميل إلى الإحساس بالإشفاق على نفسها. (إحساس محقّ طبعًا).

وعندما يصيران وحيدين في سريرهما آخر الأمر، ويقرأ كلٌّ منهما في كتاب يعجبه، لا تجد كيرستن نفسها راغبة في التسبب في أي إزعاج. لكن في ذهنها بضعة أشياء تريد قولها.

تسأله من غير أن ترفع عينيها عن كتابها: «هل ستتذكّر أن تكوي أغلفة اللحف غدًا؟».

تتقلّص معدته. يحاول جاهدًا أن يحافظ على صبره. يقول لها: «إنه يوم الجمعة. كنت أظنك قادرة على إنجاز هذا الأمر في يوم جمعة».

ترفع الآن عينيها عن الكتاب. نظرتها باردة. تقول له: «فهمت. فهمت. الأعمال المنزلية. إنها مهمتي. لا أهمية للأمر. آسفة لأنني طلبت منك هذا». تعود إلى كتابها.

هذه المواجهات التي تشبه احتكاكًا مزعجًا ذا صرير بين جسمين خشنين يمكن أن تكون أكثر إرهاقًا للنفس من حالة انفجار صريح للغضب.

هو يفكّر هكذا: أكسب الآن ثلثي دخلنا، بل ربما أكثر من ثلثيه (هذا معتمد على طريقة حساب المجموع)، لكن الظاهر أنني أقوم أيضًا بما يتجاوز نصيبي العادل من كل شيء آخر. يجعلني هذا أحسّ وكأن ذهابي إلى العمل ليس شيئًا أفعله إلا لنفسي. لكن الحقيقة أنه عمل مرهق دائمًا ونادرًا ما يجعلني أشعر بالرضا. لا يجوز أن يكون متوقّعًا مني، فوق هذا كله، أن أهتم بكيّ تلك الأغلفة. إنني أؤدّي

نصيبي من العمل: أخذت الطفلين من أجل السباحة في الأسبوع الماضي، وقد وضعت الأطباق كلّها في الآلة لغسلها منذ قليل فقط. أتمنّى، في أعماقي، أن أتلقّى شيئًا من الرعاية والحماية. ما أشد غضبي!

تفكّر كيرستن على النحو التالي: يبدو لي أنه يظنني أبقى في البيت هذين اليومين «لكي أسترخي». وبأنني محظوظة كثيرًا بأن أحظى بهذا الوقت لنفسي. لكن هذه الأسرة لن تكون قادرة على الاستمرار خمس دقائق من غير الأشياء التي أنجزها من غير أن ينتبه إليها أحد. أنا مسؤولة عن كل شيء. أتمنّى أن أحظى باستراحة. لكن، كلما ذكرتُ له مهمة أتمنى أن أتخفّف منها، كلما جعلني أشعر بأنني غير منصفة -في آخر المطاف-، يبدو لي أن من الأكثر سهولة أن أظلّ صامتة. لقد تكرّر ظهور تلك المشكلة في الإنارة، وسأجد نفسي غدًا مضطرّة إلى البحث عن كهربائي لإصلاحها. أتمنّى، في أعماقي، أن أتلقّى شيئًا من الرعاية والحماية. ما أشدّ غضبي!

نحن نفترض في عصرنا الحديث هذا أن تكون هناك مساواة بين الزوجين في كل شيء. وهذا ما يعني، في جوهره، مساواة في المعاناة. إلا أن قياس المعاناة على نحو يضمن توزيعها توزيعًا متساويًا ليس بالمهمة السهلة على الإطلاق؛ فالتعاسة إحساس ذاتي، وهناك دائمًا إغراءٌ يتعرّض له كل طرف بأن يصوغ في ذهنه قناعة مخلِصة (لكنها في منافسة مع قناعة الطرف الآخر) بأن حياته -أو حياتها- أكثر سوءًا... لكن الشريك يكون غير معترف بذلك، أو غير ميّال إلى التعويض عنه أو التخفيف

من آثاره. لا بد من حكمة تفوق قدرة البشر حتى يفلح المرء في تفادي الوقوع في النتيجة (التي تواسيه) القائلة بأن حياته أكثر قسوة من حياة الآخر.

تذهب كيرستن إلى العمل عددًا من الساعات في الأسبوع، وتكسب قدرًا من المال كافيًا لجعلها تشعر بأنها غير متّكلة كثيرًا على رابح... شعور يعفيها من أن تكون ممتنة لدخله الذي يفوق دخلها قليلًا. وفي الوقت نفسه، يتولّى رابح قسمًا من الأعباء المنزلية، فضلًا عن تولّيه مسؤولية البيت في عدد من الأمسيات كافٍ لأن يعفيه من الإحساس بقدر زائد من الامتنان تجاه كيرستن لمجرّد أنها تبذل جهدًا أكبر مع الأطفال. يتحمّل كل منهما نصيبًا من المهمات «الأولية» للشخص الآخر، يكفي لأن يجد نفسه غير مضطرٍّ إلى الشعور بامتنان صِرْف تجاه الآخر.

إن من الممكن رد جزء من الصعوبات التي يواجهها الشريكان في العصر الحديث إلى أسلوب «توزيع المكانة». لا يكون الشريكان محاصَرين بفعل المتطلّبات العملية لكل ساعة فحسب، بل يكونان ميالين أيضًا إلى اعتبار هذه المتطلّبات مُهينة أو تافهة أو عديمة المعنى. وهذا ما يجعل كلٌّ منهما أكثر ميلًا إلى تجنّب الشعور بالشفقة على الآخر أو تقدير الجهد الذي يبذله في تحمّل تلك الأعباء. تبدو كلمة «مكانة» غير مناسبة أبدًا عند إطلاقها على أخذ الأطفال إلى المدرسة أو على تنظيف الملابس، وذلك لأننا نشأنا على فكرة «مؤذية» مفادها أن المكانة، بطبيعتها، منتمية إلى مجالات أخرى... إلى

مجالات السياسات العليا أو البحوث العلمية أو السينما أو الأزياء. وأما إذا جرّدنا المكانة من هذه المعاني، فسوف نجد أنها تشير إلى كل ما هو أكثر أهمية ونبلًا في الحياة.

نبدو كأننا غير مستعدّين للقبول بإمكانية أن يكون مجدُ بني جنسنا غير مقتصرٍ على إطلاق الأقمار الصناعية وإقامة الشركات الكبرى وتصنيع أنصاف نواقل فائقة الرقّة، بل ممتدٌ أيضًا إلى القدرة على حمل ملاعق اللبن الرائب إلى الأفواه الصغيرة -حتى إذا كانت هذه الفكرة موزعة بين ملايين الناس- والعثور على فردات الجوارب الضائعة، وتنظيف المراحيض، وتدبُّر نوبات الغضب، ومسح الطاولة لإزالة بقايا الطعام عنها. ففي هذه الأمور أيضًا جوانب تستحقّ ألا نقلل من شأنها، أو نرفض تفهمها أو نسخر منها، بل أن نضفي عليها قدرًا من البريق والجاذبية بحيث نستطيع أن نؤدّيها بقدر أكبر من الحماسة والإقدام.

إن قسمًا من معاناة رابح وكيرستن نابعٌ من أنهما نادرًا جدًّا ما يعتبران تلك المهمات الكثيرة التي يبذلان الجهد في أدائها انعكاسًا لما لديهما من قدرة ومهارة، بل يميلان إلى التقليل من شأنها واستسخافها بطريقة صبيانية. إنهما غير قادرين على أن يكونا معجبين ببسالتهما في محاولة تعليم طفل نافد الصبر لغةً أجنبية، أو في تزرير المعاطف وإعادة تزريرها مرة بعد مرة، أو في الانتباه الدائم إلى القبّعات، أو في تنظيف البيت وصيانته على نحو جيد،

أو في التعامل مع حالات القنوط والمزاج السيئ، أو في متابعة مشروعهما الأسري المعقّد على الرغم من تواضعه، وذلك في كل يوم جديد. لن يكونا أبدًا شخصين متميزين كثيرًا، ولن يجنيا مالًا كثيرًا، وسوف يموتان شخصين مجهولين من غير أن يقدّم المجتمع إليهما أكاليل الغار. لكن استمرار المدنيّة وحسن حالها معتمدان، على الرغم من ذلك كلّه، اعتمادًا مهمًا، وإن يكن صغيرًا، على كدحهما الصامت الذي لا يلفت النظر.

لو استطاع رابح وكيرستن أن يقرأا رواية فيجدا نفسيهما شخصيتين فيها، فقد ينتابهما (إن كان لدى الكاتب أدنى قدر من الموهبة) إحساس عابر، لكنّه مفيد، بالشفقة على معاناتهما التي هي ليست قليلة القيمة؛ وقد يتعلّمان من ذلك كيف يجدان حلولًا لتلك التوتّرات التي تنشأ في الأمسيات عندما يتحدثان بعد أن ينام الطفلان في أمورٍ قد تبدو محبطة لكنها كبيرة وعميقة الأهمية، وذلك من قبيل الحديث عن كيّ تلك الأغلفة.

مكتبة
t.me/t_pdf

الخيانة الزوجية

جرذ الحب

رابح مدعوٌّ إلى برلين لكي يلقي كلمة عن «الحيِّز العام» في مؤتمر عن التطوير الحضري. يسافر بالطائرة إلى لندن، ومنها بطائرة أخرى إلى برلين؛ ويمضي الوقت في تصفّح عدد من المجلّات أثناء طيرانه فوق ألمانيا. وفي الأسفل، تمتد أراضي بروسيا السهلية الواسعة راقدة تحت غطاء خفيف من ثلوج شهر تشرين الثاني.

ينعقد المؤتمر في مكان يقع إلى الناحية الشرقية من المدينة، في مركز للمؤتمرات له فندق ملحق به. غرفته التي في الطابق العشرين بيضاء نظيفة كأنها عيادة طبية؛ تطلّ على قناة مائية وصفُوف من المساكن. في الليل، الذي يحلّ في ساعة مبكرة، يرى محطةً لتوليد الطاقة، وصفًّا من أبراج ضخمة ممتدّة في البعيد، في اتجاه الحدود البولندية.

وفي حفلة المشروبات الترحيبية في صالة الاحتفالات لا يعرف أحدًا من الحاضرين، فيتظاهر بأنه ينتظر زميلًا له. يتّصل بالبيت عندما يعود إلى غرفته. لقد انتهى الطفلان من الاستحمام.

تقول له إيثر: «يعجبني أن تكون مسافرًا. ماما تسمح لنا بأن نتابع فيلمًا، وبأن نأكل البيتزا».

ينظر رابح إلى طائرة بمحرّكٍ واحدٍ تحوم عاليًا فوق الحقول المتجمّدة من خلف ساحة وقوف السيارات التابعة للفندق. وأثناء حديث إيثر، يستطيع سماع غناء ويليام الذي يعبّر عن قلة اهتمامه

بهذا الأب الذي بلغت به قلّة الذوق أن يسافر ويتركه في البيت. يبدو صوتاهما في الهاتف أصغر من سنّهما. سوف يستغربان كثيرًا إذا عرفا كم هو مشتاق إليهما.

يأكل سندويتشًا مزدوجًا وهو يتابع قناة إخبارية تعرض على الشاشة سلسلة حوادث مأساوية تبدو متماثلة تماثلًا شديدًا ولا تفلح في إثارة اهتمامه.

في فجر اليوم التالي يصحو باكرًا ليتمرَّن على إلقاء كلمته وهو واقف أمام مرآة الحمام. موعد إلقائها الفعلي هو الساعة الحادية عشرة في القاعة الرئيسية. يعرض أفكاره بحماسة وبمعرفة عميقة بالموضوع. مهمّة حياته هي الإشادة بفضائل الحيّز المشترك ذي التصميم الحسن الذي يساهم في التقارب بين أفراد المجتمع في المنطقة المعنيّة. يأتيه بضعة أشخاص مهنّئين بعد أن ينتهي من تقديم مساهمته. وعند الغداء، يجلس إلى طاولة عليها أشخاص جاؤوا ضمن وفود من أنحاء العالم. لقد مرّ زمن طويل منذ أن كان في هذا الجو الكوزموبوليتي. يَجري حديث فيه انتقاد لأميركا. يوجّه باكستاني يعمل في قطَر انتقادات شديدة إلى أثر القوانين الأميركية الخاصّة بتصنيف المناطق المدينية على حركة السير؛ ويزعم شخص هولندي أن لدى النخب الوطنية قدرًا كبيرًا من اللامبالاة بالمصلحة العامة؛ ويشبّه موفد من فنلندا اعتماد مواطنيه على الوقود الأحفوري بعلاقة المدن بالمخدرات.

وفي آخر الطاولة امرأة تميل برأسها جانبًا وعلى وجهها ابتسامة متسامحة، ساخرة.

تقول المرأة آخر الأمر: «أعرف أن من الأفضل ألا أحاول الدفاع

عن بلدي عندما أكون في الخارج. بطبيعة الحال، أنا خائبة الأمل في أميركا، مثلكم. إلا أن لديَّ، على الرغم من ذلك، إحساسًا عميقًا بالولاء لها، تمامًا مثلما قد يكون لديَّ إحساس بالولاء لعمّة مجنونة مدمنة على الكحول يجعلني أدافع عنها إذا سمعت الآخرين يتحدّثون عنها من خلف ظهرها».

تعيش لورين في لوس أنجلوس وتعمل في جامعة كاليفورنيا حيث تدرس آثار الهجرة في وادي سان برناردينو. شعرها بنّي طويل حتى كتفيها، وعيناها رماديتان ضاربتان إلى الخضرة. إنها في الحادية والثلاثين. يحاول رابح ألّا تكون نظراته إليها مباشرة أكثر مما ينبغي. إن لديها ذلك النوع من الجمال الذي يحسّ رابح نفسه غير قادر على مواجهته في الظروف الحالية.

بقيت ساعة واحدة قبل بداية الجلسة التالية. يقرّر رابح أن يمشي قليلًا في الخارج، في منطقة يمكن اعتبارها حديقة. ستقلع طائرته عائدة به في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي. وسوف يكون هناك مشروع جديد في انتظاره على مكتبه عندما يعود إلى إدنبره. لم يفعل ثوب لورين الداكن الأنيق أي شيء لكي يجتذب انتباهه، لكنه يتذكّر كل تفصيل من تفاصيله. يفكّر أيضًا في مجموعة الأساور التي في ذراعها اليسرى. يكاد يحسّ نفسه قادرًا على رؤية وشمٍ تحت تلك الأساور، على باطن معصمها. وشمُها تذكرة محزنة، غير مقصودة، بأن هناك جيلًا يفصل بينهما.

وفي ساعة متأخّرة من بعد الظهر، في الممر المفضي إلى المصاعد، يكون رابح واقفًا ينظر إلى بعض النشرات عندما تمرّ به لورين. يبتسم لها ابتسامة مرتبكة، وينتابه الأسى لأنه لن يصير

على معرفة بها، ولأن هويتها العميقة (ترمز إليها حقيبتها الأرجوانية القماشية المتدلية من كتفها) ستظلّ إلى الأبد مجهولة له... ينتابه الأسى لأن ليست له إلا حياةٌ واحدة يعيشها. لكن لورين تقول له إنها تشعر بالجوع، وتقترح عليه أن يرافقها لتناول فنجان شاي في بارٍ جدرانه من الخشب إلى جانب مركز الأعمال في الطابق الأول. تضيف قائلة إنها تناولت إفطارها هناك في ذلك الصباح. يجلسان على مقعد جلدي طويل عند الموقد. هناك زهرة أوركيد بيضاء خلف لورين. يطرح رابح معظم الأسئلة، فيعرف شذرات عن حياتها: شقّتها في فينيس بيتش، وعملها السابق في جامعة أريزونا، وعائلتها في البوكركي، ومحبتها أفلام ديفيد ليتش، ومشاركتها في منظمات اجتماعية. يعرف أيضًا أنها يهودية، وأن لديها خشيةً كبيرة من الموظفين الألمان، خشيةً تجعلها خائفة حتى من عامل البار البدين ذي الرقبة الغليظة... هو شخص غنيّ بالقدرات الكوميدية، تعطيه لورين اسمًا مستعارًا من عندها «ليخمان». يتنقّل انتباه رابح جيئة وذهابًا بين تفاصيل ما تقوله له وما تمثّله. إنها، في وقت واحد، هي نفسها وكل النساء اللواتي وجد نفسه معجبًا بهنّ، لكنه تعلّم ألّا يبدي اهتمامًا بهنّ منذ يوم زفافه.

يتغضّن الجلد حول عينيها عندما تنظر إلى عامل البار وتضحك. تقول هامسة: «لن تتمكّن أبدًا من تحويل هذا الخَلّ إلى مربّى، يا سيدي!»، فيجد رابح صعوبة في التنفّس أمام سحرها. يشعر بأنه عاد فتى في الخامسة عشرة، وأن هذه الجالسة معه هي أليس ساور.

لقد حطّت بها الطائرة في مطار فرانكفورت يوم أمس، ثم تابعت سفرها بالقطار. تقول له إنها تجد قطارات أوروبا مناسبة جدًا

للاستغراق في التفكير. ينتبه رابح إلى أن وقت استحمام طفليه في البيت قد اقترب. كم هو سهل أن ينسُف حياته كلّها بمجرّد تحريك يده عشرة سنتيمترات إلى اليسار.

تقول له: «أخبرني عن نفسك». حسنًا... لقد درس، ثم سافر إلى إدنبره. منشغل في عمله دائمًا مع أنه يحب أن يسافر كلما استطاع. نعم، إنه لا يحب الجو الغائم، لكن من الممكن أن يكون عدم إشغال الذهن بحالة الطقس تمرينًا مفيدًا للمرء. تأتيه النسخة المُنقّحة من كلامه (النسخة الأخرى) بسهولة لم يتوقّعها: يسمع طفليه يسألانه: «ماذا فعلت اليوم، يا بابا؟». ألقى بابا كلمة أمام جمع كبير من الناس، ثم قرأ في هذا الكتاب فترة، ثم نام في ساعة مبكرة حتى يتمكّن من العودة مع أول طائرة يوم الغد لكي يرى فتاته الغالية وفتاه المميَّز -الطفلان اللذان يفلِح الآن في نسيانهما كأنهما غير موجودين-.

في الساعة السابعة بعد عودة ليخمان لكي يسألهما إن كانا يودّان تناول كأس كوكتيل، تقول

: «لا أطيق الذهاب إلى عشاء الوفود المشاركة في المؤتمر».

وهكذا، يخرجان من البار معًا. ترتعش يده وهو يضغط على زر طلب المصعد. يسألها عن طابقها، ويقف قبالتها في المصعد الزجاجي الشفاف المنطلق صاعدًا. ضبابٌ يكسو المشهد كلّه.

نادرًا ما تكون الصراحة المباشرة التي يبديها شخص تجاه امرأة ناتجة عن غرور أو عن ثقة بالنفس؛ بل هي نوع من قنوطٍ نافذِ الصبر مُتولّدٍ عن إدراك محزن لحقيقة أن الموت يزداد قربًا.

غرفتها مثل غرفته من حيث شكلها الأساسي، لكنه يفاجأ بأن جوّها يبدو له مختلفًا كل الاختلاف. فستان قرمزي معلّق على واحد من الجدران، ودليل «متحف نيوس» إلى جانب جهاز التلفزيون. لابتوب مفتوح على طاولة المكتب. وبطاقتان بريديتان بالقرب من المرآة على الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير عليهما صورة لـ«غوته». هاتفها موصول إلى ستيريو الفندق. تسأله عن مغنّية... هل سمع بها؟ ثم تنقر على الهاتف بضع نقرات حتى تشغّل أغنية: موسيقى الأغنية بسيطة، بيانو وضربات إيقاع في ما بدا له أشبه بكاتدرائية كبيرة، ثم ينطلق صوت أنثوي قوي آسر وعميق عمقًا غير معتاد، ثم يعلو الصوت فجأة ويبدو هشًّا. تقول لورين: «هذا أكثر جزء أحبه في الأغنية». ثم تغمض عينيها لحظة. يظل واقفًا عند أسفل السرير بينما تكرّر المغنية كلمة «*دائمًا*»، بطبقة صوت تعلو وتعلو كأنها صيحة تنفُذ مباشرة إلى الروح. إنه بعيد عن هذا النوع من الموسيقى منذ ولادة طفليه. لا معنى أبدًا لأن يكون خارج نفسه، مثلما هو الآن، عندما تتطلّب الحدود التي تجري حياته ضمنها عزيمةً وإعراضًا عن المشاعر.

يمضي إليها، ويحيط وجهها بكفيه، ويضع شفتيه على شفتيها. تشدّه إليها، ثم تغمض عينيها. يستمر صوت الأغنية: «سوف أعطيك كل شيء...».

يحدث ذلك على نحو شديد الشبه بكل المرّات التي يتذكّرها من قبل، تلك اللحظات الأولى مع امرأة جديدة. إن استطاع جمع هذه المشاهد من حياته الماضية كلّها بحيث يشكّل منها كلّها مشهدًا واحدًا، فلن يطول ذلك المشهد أكثر من نصف ساعة؛ لكنها ستكون -من نواحٍ كثيرة- أروع اللحظات التي عرفتها حياته.

يحسّ كأنه مُنح حقَّ النفاذ إلى نسخة من نفسه كان يظنّها ماتت منذ أمد بعيد.

أيُّ خطأ يمثّله أولئك الرجال الذين يشعرون بقلة الأمان إلى حد يثير المشاعر، غير الواثقين من قدرتهم على أن يكونوا جذّابين، ممن يرون أنفسهم في حاجة دائمة إلى التحقّق مما إذا كانوا مقبولين في أعين الآخرين.

تخفّف لورين الإنارة في الغرفة. هناك اختلافات كثيرة ضمن العناصر الأساسية نفسها: لسانها أكثر فضولًا ونفاد صبرٍ، وظهرها يتقوّس مع اقترابه من بطنها، وساقاها أكثر توترًا، وفخذاها أقل بياضًا. أي شيء يمكن أن يوقفه الآن؟ لقد انزاحت عنه فكرة أن هذا كلّه خاطئ، وابتعدت إلى مكان ناءٍ فصارت مثل ساعة منبّهة ترن عبر حُجُبِ نوم عميق.

يستلقيان ساكنين في ما بعد؛ وتهدأ أنفاسهما وتتباطأ. الستائر مفتوحة تتيح رؤية محطّة الطاقة بإنارتها الساطعة عبر الضباب.

تسأله مبتسمة: «كيف هي زوجتك؟».

تفسير نبرة صوتها مستحيل. مستحيل أيضًا أن يعرف كيف يجيبها. مشكلاته ومشكلات كيرستن تبدو له مشكلات خاصّة بهما فقط، ولا يصحّ الإفصاح عنها أمام أي شخص آخر... حتى إن كانت تلك المشكلات قد اجتذبت الآن تابعًا جديدًا أكثر براءة وجعلته يجري في مدارها.

يقول متلعثمًا: «إنها... لطيفة».

تظلّ لورين محافظة على تعبير وجهها الذي لا يستطيع قراءته، لكنها لا تلحّ في السؤال. يداعب كتفها؛ ومن خلف الجدار، يسمع

صوت المصعد هابطًا. لا يستطيع الزعم بأنه ضَجِرٌ في البيت. وليست المسألة هي أنه لا يحترم زوجته، ولا حتى أنه ما عاد قادرًا على أن يكون راغبًا فيها، فحقيقة وضعه أكثر غرابة، وأكثر خُزيًا له. إنه يحب امرأة يبدو له في أحيان كثيرة جدًّا أنها غير محتاجة إلى الحبّ أبدًا؛ مقاتلة قديرة وقوية إلى حدٍّ لا يتيح له إلا فرصًا قليلة جدًّا للحُنوِّ عليها؛ امرأة تكون علاقتُها إشكالية بكل من يميل إلى مساعدتها، بل تبدو أحيانًا أكثر ارتياحًا عندما تشعر بخيبة أمل تجاه من ائتمنتهم على نفسها. يبدو له أن السبب الذي جعله يمارس الجنس مع لورين ليس أكثر من أنه وزوجته صارا في الآونة الأخيرة يجدان صعوبة قصوى حتى في أن يتعانقا... وأنه، في مكانٍ في أعماقه، ومن غير إنصاف، يشعر بأن هذه الحقيقة تجرحه وتثير جنون غضبه.

من النادر أن يمكن العثور على مغامرة عاطفية ناجمة عن لا مبالاة تجاه الزوجة أو الزوج. فلا بد عادة من أن يكون المرء مباليًا كثيرًا بشريكه حتى يجد نفسه مهتمًا بأن يخون ثقته.

يضيف أخيرًا: «أظن أنها ستعجبكِ، إن رأيتِها».

تجيبه بنبرة هادئة: «أنا واثقة من هذا». الآن، صار تعبير وجهها متشاقيًا.

يطلبان خدمة الغرف. تريد باستا بالليمون مع قليل من جبن البارميزان إلى جانبها. يبدو أنها قد اعتادت شرح طلبات من هذا النوع شرحًا دقيقًا للأشخاص الذين سيهتمون بتلبيتها. يثير إحساسُها باستحقاقها هذه الخدمة إعجابَ رابح الذي يصيبه الخجل بسهولة

عندما تُقدَّم إليه الخدمات. يرن هاتفها: مكالمة من زميلة لها في لوس أنجلوس حيث لا يزال الوقت صباحًا.

لعل في الأمر ما يتجاوز الجنس في حدّ ذاته: الألفة والحميمية الممكنتان في أعقابه هما ما يجذبانه. نزوعٌ غريب باقٍ من زمن كانت الطريقة الأكثر سهولة فيه لبدء صداقة مع شخص من الأشخاص هي، عامة، مطالبته بأن يتعرّى. كلٌّ منهما دافئ حيال الآخر، مراعٍ له. ولن تكون لأي منهما فرصة لأن يخذل الآخر. يستطيعان، كلاهما، أن يبدوان قادرين، سخيين، جديرين بالثقة، وبالتصديق، مثلما يستطيع هذا أي غريبين. تضحك لنكاته. تقول له إن لكنته جذّابة تصعب مقاومتها. يجعله يشعر بشيء من الوحدة إدراكُه كم هو سهل أن يكون موضع إعجاب شخص لا فكرة لديه عمن هو.

يتحدّثان حتى ينتصف الليل، ثم ينامان متباعدَيْن، كلٌّ على ناحية من السرير. وفي الصباح، يذهبان معًا إلى المطار ويشربان القهوة في ردهة المسافرين.

«اتصل بي... قدر ما تستطيع». تبتسم... «أنت واحد من الرجال الجيدين».

يتعانقان عناقًا وثيقًا، ويعبّران عن عاطفة صِرف غير متاحة إلا لشخصين لا مكان لأيٍّ منهما في مخططات الآخر في المستقبل. قلة الوقت المتاح لها مزيّة أيضًا. ففي ظلّها، يستطيع كل منهما أن يظلّ، إلى الأبد، شخصًا مثيرًا للإعجاب في عين الآخر. يحسّ بدموعه موشكة على الجريان، فيتمالك نفسه متظاهرًا بالنظر إلى إعلان عن ساعةٍ في يد طيار حربي. سوف يفصل بينهما محيط وقارّة. هذا ما يجعله يشعر بحرية في التعبير عن توْقه إلى القرب.

يستطيع كل منهما أن يشعر بوجع الرغبة في التقارب الحميم، وأن يظل محميًا من أي عاقبة من عواقبه. لن يكون عليهما أبدًا أن يضيق أحد منهما بالآخر؛ ولكلٍّ منهما أن يواصل إعجابه بالآخر مثلما لا يستطيعه إلا من هم من غير مستقبل مشتَرك.

حججٌ مؤيّدة

يصل البيت في ساعة مبكرة من بعد ظهرِ يوم السبت. يفاجأ بأن العالم لا يبدو أكثر انتباهًا إليه من سابق عهده. لا يحدّق أحد فيه في المطار، ولا في الباص. إدنبره لا تزال كما تركها. ولا يزال مفتاح باب البيت صالحًا. كيرستن في غرفة المكتب تساعد ويليام في واجبه المدرسي. هذه المرأة القديرة البارعة الذكية التي تحمل شهادة الدرجة الأولى من جامعة آبردين، العضو في الفرع الاسكوتلندي للجمعية الملكية للمسّاحين المُجازين التي تدير في كل يوم موازنات بالملايين... هي نفسها المرأة التي أمَرها بالجلوس على الأرض صبيٌّ يبلغ من العمر سبع سنين ونصف سنة يمارس عليها سلطة لا نظير لها ويستحثّها الآن -نافد الصبر- على تلوين بعض القناطر في نسخته الخاصّة من لوحة «معركة فلودن فيلد».

لدى رابح هدايا للجميع (اشترى هذه الهدايا من الناحية الأخرى من نقطة التحقّق من جوازات السفر من المطار). يقول لكيرستن إنه يستطيع أن يتولّى أمر الطفلين وحمّامهما وأن يُعِدَّ العشاء. يعرف أنها مستنفدة القوى. إن الضمير غير المرتاح عامل مفيد في جعل الشخص أكثر لطفًا.

يذهب رابح وكيرستن إلى فراشهما أبكر من المعتاد. إنها -منذ زمن بعيد- أولُ من يفضي رابح إليه بأي خبر جديد سواء أكان

خطيرًا أو قليل الأهمية. فكم يبدو الآن غريبًا أن يكون لديه خبر كبير الأهمية لكنه شديد التمنُّع إزاء مبادئ الإفصاح المعتادة بينهما.

من شأنه أن يبدو أمرًا يكاد يكون طبيعيًا أن يبدأ بأن يشرح لها كم كان غريبًا أن يصادف لورين عند المصاعد. فقد كان مقرّرًا أن يكون في ذلك الوقت جالسًا يستمع إلى إحدى الكلمات. وكم وجد الأمر مؤثّرًا عندما حكت له ببطء وتردّد، بعد ممارستهما الحب، عن مرض وموت جدتها التي كانت قريبة منها كثيرًا في طفولتها. من الممكن أن يستخدما الآن ذلك الأسلوب الهيّن المسهب الذي يميلان إليه عندما يحلّلان شخصيات الأشخاص الذين يلتقيانهم في الحفلات، أو الأشخاص الذين يكونون في أفلام يشاهدانها معًا: قد يستعرضان كم كان مؤثرًا وحزينًا بالنسبة إلى رابح أن يودع لورين في مطار تيغيل، وكم كان أمرًا مثيرًا ومخيفًا (قليلًا) أن يتلقّى منها رسالة نصّية عند نزوله من الطائرة. ما من أحد مؤهَّل لأن يناقش معه أشياء من هذا القبيل أكثر من شريكته في استكشاف الوجود، زوجته الفطنة، المدقّقة، الظريفة، دقيقة الملاحظة.

من هنا، فإن عليه مهمّة ليست هيّنة: مهمة تذكير نفسه دائمًا بأنه قريب جدًّا من لحظة إطلاق مأساة. الظاهر أن لدى إيثر موعدًا في صباح اليوم التالي للعب مع صديقها في حلبة تزلج مغلقة. إنه المكان الذي يمكن أن تصل فيه قصتهما إلى نهاية حاسمة، ويبدأ الغضب والجنون. عليهم أن يخرجوا من البيت في التاسعة حتى يصلوا إلى ذلك المكان في العاشرة إلا ربعًا، وهو مدرك أن الأمر لن يتطلّب أكثر من جملة واحدة حتى ينتهي كل ما هو مستقرٌّ ومنسجمٌ في حياته الحالية: إن في عقله معلومة لا تتجاوز ست

كلمات، أو نحو ذلك، لكنّها قادرة تمامًا على نسف الأسرة كلّها. سوف تكون ابنته في حاجة إلى قفازيها اللذين هما في عليّة البيت في علبة مكتوب عليها ملابس شتوية.

يعجَب لقدرة العقل على عدم السماح بتسرّب إشارة واحدة إلى الديناميت الذي فيه. على الرغم من هذا، لديه رغبة في دخول الحمام لكي يتأكّد، في المرآة، من أن ما من شيء يتسرّب منه. هو مدرك أن ما فعله خاطئ، لأن المجتمع جعل صدى هذه الفكرة يتردّد في رأسه منذ سن مبكرة. بل هو أمر خاطئ جدًّا! إنه «حثالة»، بحسب لغة صحف الفضائح... إنه جُرذ الحب المخادع الغشاش. ومع هذا، يدرك أيضًا أن الطبيعة المحدّدة للشر الذي ارتكبه ليست واضحة له تمام الوضوح في حقيقة الأمر. يساوره شيء من القلق، لكنه قلَقٌ من باب الحيطة (أسباب ثانوية)، لأنه يريد أن يسير يوم غدٍ على ما يرام، وأن تسير الأيام والسنين التي بعده مثل سيره. إلا أنه يظلّ في أعماقه غير قادرٍ على تصديق أن ما حدث في غرفة الفندق في برلين أمر سيئ حقًّا في حدّ ذاته. ثم يتساءل في نفسه: أوليست هذه هي حجة جرذ الحب الدائمة؟

ترى الفلسفة الرومانسية، ببساطة تامّة، أن ما من خيانة أعظم من هذه. وحتى في نظر من هم مستعدون للتسامح إزاء أنواع السلوك الأخرى كلّها تقريبًا، تظلّ الخيانة الزوجية الإثم المزلزل المخيف الذي ينتهك سلسلة من أكثر الافتراضات التي يقوم عليها الحب قدسية.

وأول افتراض في هذه السلسلة هو أن الإنسان الفرد لا يمكن أن يزعم حب إنسان آخر، ولا أن يزعم، بأي

شكل من الأشكال، أنه يرى قيمة في حياتهما معًا، ثم يزلق ويمارس الجنس مع شخص آخر. وإذا كان لهذه الكارثة أن تقع، فلا معنى لذلك سوى أنه لم يكن هناك حب أصلًا.

كيرستن غارقة في النوم. يزيح خصلة شعر عن جبهتها. يتذكّر كم كانت مختلفة استجابة أذنَيْ لورين وبطنها، حتى من فوق ثوبها. عندما كانا معًا في البار، بدا له أن شيئًا سوف يحدث بينهما؛ ثم صار ذلك مؤكّدًا لحظة سألته إن كان يأتي كثيرًا إلى هذه المؤتمرات، وأجابها بأنه يحسّ هذا المؤتمر غير معتاد أبدًا. عندها، ابتسمت له ابتسامة دافئة. لقد كان سحرها قائمًا على أسلوبها المباشر. «هذا أمر حلو»... التفتت إليه وقالت هذه الكلمات عندما كانا في السرير وكأنها تقولها بعد تجربة طبق جديد في أحد المطاعم. لكن في العقل حُجرات كثيرة، وله قدرة مدهشة على بناء الجدران الواقية. ففي منطقة أخرى، بل في مجرّة أخرى، ظل على حاله حبُّه لأسلوب كيرستن في قول نكات غير مهذبة في الحفلات، ولمخزونها المدهش من قصائد الشعر التي تحفظها غيبًا (أشعار كولريدج وبيرنز)، ولعادتها في الملاءمة بين تنوراتها وجواربها وحذائها الرياضي، ولمهارتها في فتح المغسلة المسدودة، ولمعرفتها بما يحدث تحت غطاء محرّك السيارة (تلك الأنواع من الأشياء التي يبدو أن النساء اللواتي خذلهنّ آباؤهنّ في سن مبكرة تعرفنها معرفة جيدة). ما من أحد على وجه الأرض يفضِّل رابحٌ تناول طعام العشاء معه أكثر من زوجته التي هي أيضًا أقرب صديق له. على أن هذا لم يحُلْ أبدًا بينه وبين إقدامه على ما يمكن أن يدمّر حياتها.

افتراضٌ ثانٍ: ليست الخيانة الزوجية مجرّد نوع من أنواع الغدر القديمة المعروفة. فالعالم يقول إن الإثم المشتمل على عُري واقع ضمن فئة مختلفة تمامًا. إنها خيانة من نوع كارثي ولا سبيل إلى مقارنتها بغيرها. ليست ممارسة الجنس مع أشخاص متعدّدين شيئًا سيّئًا فحسب، بل هي أسوأ شيء يمكن أن يفعله شخص بشخص آخر يزعم، أو تزعم، أنه يحبه.

من الواضح أن هذا أمر مختلف كل الاختلاف عما وضعت كيرستن ماكليلاند توقيعها عليه، منذ سنين كثيرة مضت، في مكتب السجلات ذي اللون الوردي الداكن في إنفرنِس. ومن ناحية أخرى، كان في سياق زواجهما عدد من الأمور التي لم يتوقّعها رابح خان أبدًا. ومن تلك الأمور اعتراض زوجته الشديد على عودته إلى مهنة العمارة حيث كان السببُ الأول في ذلك الاعتراض أنها لم ترِد أن ينقص دخلهما، ولو بضعة شهور؛ وكذلك قطعُ صلته بكثير من أصدقائه لأنها وجدتْهم «مضجرين»؛ وميلُها إلى استخدامه موضوعًا لنكاتها عندما يكونان مع أشخاص آخرين؛ والملامة التي تقع على كاهله عندما تسوء الأمور في عملها؛ والقلق المضني الذي تعانيه في ما يتّصل بكل جانب من جوانب دراسة الطفلين... هذه هي القصص التي يحكيها لنفسه، ومسارات المناقشة التي هي أكثر بساطة من جعله يتساءل عما إذا كان هو من قرر (في حقيقة الأمر) النكوص عن مساره المهني في العمارة، أو عما إذا كان أصدقاؤه... أشخاص ليسوا في حقيقة الأمر مسلّين مثلما اعتاد أن يراهم عندما كان في الثانية والعشرين من عمره.

على الرغم من هذا، فإن أسئلة رابح عما إذا كان لنصف الساعة ذاك أن يقلُب الحساب الأخلاقي كلّه فيجعله في غير صالحه تظلّ تنهش عقله... فهل تكون تلك اللحظات التي لم تطُل أبدًا هي في حد ذاتها ما يجعله مستحقًّا لعنة أبدية؟ إن لديها خيانات لا تقل عما فعله أذًى (وإن يكن أذاها أقل ظهورًا)، مع أن خياناتها ليست لها القدرة نفسها على إثارة الغضب المباشر: عادة عدم الإصغاء، وعدم الصفح، والملامة غير المنصفة، وتقليلها من شأنه بعض الأحيان، وتلك الفترات من اللامبالاة. ليس راغبًا في إطالة هذه القائمة، لكنه غيرُ مقتنع بأنه يستحق، بهذه السهولة والقطعية الكبيرتين، اعتباره الطرف الشرير في الأمر كله نتيجة فعلته التي هو مُقرٌّ فعلًا بأنها جارحة كثيرًا.

افتراض ثالث: الالتزام بالزواج الأحادي نتيجة عظيمة من نتائج الحب نابعة من كَرَم عميق واهتمام كبير بنجاح الآخر وازدهاره وحسن حاله. فالسعي إلى الزواج الأحادي مؤشّر أكيد على أن الشريك يضع مصلحة شريكه قبل كل شيء.

بحسب طريقة رابح الجديدة في التفكير، يبدو بعيدًا كل البعد عن اللطف أو مراعاة المشاعر ذلك الإلحاح على وجوب عودة الزوج وحيدًا إلى غرفته لكي يتابع قناة «سي إن إن» ويأكل سندويتشًا وهو جاثم على حافة السرير، في حين لا يكون باقيًا أمامه–ربما– إلا بضعة عقود من سنين يعيشها على هذا الكوكب، وجسدٌ يزداد تداعيًا، وسجلٌّ متقطّع (في أحسن الأحوال) مع الجنس الآخر، وشابةٌ من كاليفورنيا واقفة أمامه... امرأة لديها رغبة صادقة صريحة في خلع فستانها من أجله.

إن كان ممكنًا تعريف الحب بأنه اهتمام أصيل بحُسن حال الشخص الآخر، فمن الضروري اعتباره منسجمًا مع جواز السماح لزوج يتعرّض لمضايقات كثيرة (بل يسمع أيضًا كلمات قاسية تجعل الرهبة تدبّ في قلبه) بأن يخرج من المصعد في الطابق الثامن عشر حتى يستمتع بعشر دقائق من الجنس المنعش مع امرأة لا يكاد يعرفها. إن لم يكن الأمر هكذا، فقد يبدو لنا أن ما نتعامل معه هنا ليس حبًا على الإطلاق، بل نوعٌ مُراءٍ وضيّق الأفق من أنواع الامتلاك، ورغبةٌ في أن يكون الشريك سعيدًا إذا -فقط إذا- شملت تلك السعادة شريكه.

تجاوزت الساعة منتصف الليل، ولا يزال رابح سارحًا في أفكاره، عارفًا أن من الممكن وجود اعتراضات عليها، لكنه يتفادى تلك الاعتراضات مكتسِبًا في مجرى تلك العملية إحساسًا بسلامة موقفه لا ينفك يزداد هشاشة.

افتراض رابع: الزواج الأحادي هو الحالة الطبيعية للحب. لا يستطيع شخص سليم العقل أن يكون راغبًا في حب أكثر من شخص واحد. فالزواج الأحادي هو الدليل الأول على الصحة العاطفية.

يتساءل رابح في نفسه: أليست هناك مثالية طفولية في رغبتنا في العثور على كل شيء في شخص واحد، شخص يستطيع أن يكون، في الوقت نفسه، الصديق والحبيب والشريك في إنجاب الأطفال وتنشئتهم وشريك قيادة السيارة وشريك العمل؟ أليست هذه الفكرة وصفة تُفضي إلى المرارة وخيبة الأمل، وصفة تنهار بسببها ملايين الزيجات التي لا عيب فيها؟

أيُّ أمرٍ يمكن أن يكون طبيعيًا أكثر من الإحساس برغبة عارضة في شخص آخر؟ وكيف يصح توقُّع أن ينشأ شخص في جوٍّ اجتماعي متحرّرٍ باحثٍ عن الملذات، وأن يعرف عرق النوادي الليلية والحدائق الصيفية وإثارتها، وأن يستمع إلى أغانٍ كلّها توقّع وشهوة، ثم يضع توقيعه على ورقة فينكر من فوره كل اهتمام جنسي خارجي آخر، لا باسم ربٍّ يعبده، ولا باسم واجبٍ أكثرَ سُموًّا، بل انطلاقًا من افتراضٍ غامضٍ بأن ذلك أمر خاطئ جدًا؟ أوليس في الكائن البشري شيء «خاطئ»، في حقيقة الأمر، عندما يفشل في الوقوع في الإغراء، وعندما يفشل في إدراك كم إننا جميعًا في ضيقٍ من وقتنا، وكم ينبغي لنا أن نكون راغبين أشد الرغبة في استكشاف الفردانية الجسدية التي لا تتكرّر لدى أكثر من شخص واحد ممن يعيشون معنا على هذه الأرض؟ إن إطلاق المواعظ في مواجهة الخيانة الزوجية إنكارٌ لمشروعية جملةٍ من أكثر الأشياء الحسّية متعة -هنا يتذكّر رابح كتفَي لورين- لا تقل جدارة بالإجلال من أشياء أكثر تمتّعًا بالقبول العام، أشياء من قبيل اللحظات الأخيرة من أغنية «هاي جود» لفرقة بيتلز، أو سقوف قصر الحمراء. أوليس رفض فرصة الخيانة الزوجية أمرًا يرقى إلى الكُفر بغنى الحياة نفسها؟ فلنقلب المعادلة رأسًا على عقب: أيكون أمرًا عقلانيًا أن نثق بأي شخص لم يكن -في ظل ظروف بعينها- مهتمًا اهتمامًا كبيرًا بأن يكون غير مخلص لزواجه؟

حجج مضادة

كانت الرسائل عادية تمامًا في البداية، وما كان فيها شيء أكثر مما يمكن أن يكون بين شخصين تعارفا تعارفًا عاديًا. هل وصل إلى بيته؟ كيف كان أثر اختلاف التوقيت عليه؟ تعرّضت الرسائل أيضًا إلى ذكر عدد من الأمور المهنيّة: هل تلقّى الرسالة الإخبارية بعد اختتام المؤتمر؟ هل يعرف شيئًا عن أعمال اختصاصي التصميم الحضري جان ديهل؟ ثم يشعر باهتزاز هاتفه عند الساعة الحادية عشرة ليلًا، فيذهب إلى الحمام. تكتب له من لوس أنجلوس أنها -لا بد من قول الحقيقة- تجد صعوبة في نسيان قضيبه.

يحذف الرسالة فورًا، ويخرج بطاقة SIM منه ويخفيها في كيس الغسيل، ويدس الهاتف تحت بدلته الرياضية، ثم يعود إلى الفراش. تمد كيرستن إليه ذراعيها. يعيد تجميع هاتفه في اليوم التالي، ويكتب للورين رسالة جوابية وهو واقف في خزانة تحت السلّم: «أشكرك على الليلة الرائعة السخيّة الاستثنائية. لن أندم عليها أبدًا. وأنا أيضًا أفكر في...». لأسباب كثيرة، يحذف الجملة الأخيرة قبل أن يضغط على مفتاح الإرسال.

حقيقة الأمر هي أن مسألة عدم الندم أبدًا بدأت تبدو له أكثر تعقيدًا وهو واقف في تلك الخزانة محاطًا بالمناشف.

وفي يوم السبت التالي، في متجر للألعاب في وسط المدينة

ذهب إليه مع ويليام لكي يشتري له سفينة صغيرة، وصلته رسالة بريد إلكتروني معها ملف ملحق بها. قرأ وهو واقف إلى جانب رفٍّ مزدحم بالأشرعة الصغيرة: «أحب اسمك، رابح خان. كلما قلته لنفسي بصوت مسموع، كلما أحسست به يُشبعني. لكنه يجعلني حزينة أيضًا لأنه يذكّرني بأنني أنفقت وقتًا طويلًا جدًّا مع رجال ليس لديهم ما يشبه طبيعتك العاطفية والأصيلة، رجال لم يكونوا قادرين على فهم تلك الأجزاء مني التي أريد أن أعثر على من يفهمها. أتمنى أن تعجبك الصورة التي ألحقتها بهذه الرسالة، صورتي مع الحذاء والجوارب المفضّلة عندي. إنها أنا الحقيقية التي تثيرني معرفتي أنك رأيتها، وأنك قد تراها مجدّدًا قبل انقضاء وقت طويل».

يجذبه ويليام من سترته. الخيبة واضحة في صوته. إن ثمن السفينة الذي ظلّ يحلم به طيلة الشهر أغلى كثيرًا مما ظنه. يشعر رابح أن لونه قد شحب. تظهر لورين في الصورة التي التقطتها لنفسها واقفةً في الحمام أمام مرآة طويلة، وقد مالت برأسها جانبًا وليس عليها من الملابس شيء غير حذاء مزركش وزوج من الجوارب مخطط بالأصفر والأسود يبلغ ركبتيها. يقترحُ على ويليام أن يشتري له حاملة طائرات بدلًا من تلك السفينة.

تظل رسالتها من غير إجابة طيلة ما بقي من عطلة نهاية الأسبوع. لا يسنح له وقت، ولا فرصة، للعودة إليها إلى أن جاءت ليلة الاثنين وذهبت كيرستن إلى نادي الكتب.

يفتح بريده الإلكتروني لكي يردّ على الرسالة، فيرى أن لورين قد سبقته: «أعرف أنك في وضع صعب؛ ولا أريد أن أفعل أي شيء يعرّضك للخطر، لكنّي كنت أشعر في تلك الليلة بأنني ضعيفة

وسخيفة، لا أرسل عادةً صوري العارية إلى رجال لا أعرفهم. جرحني قليلًا أنك لم ترد على رسالتي. أغفر لي قولي هذا -أعرف أنه ليس من حقّي- لكنّي أفكّر دائمًا في وجهك الحلو اللطيف. أنت رجل جيد، يا رابح. لا تدع أحدًا يقول لك غير هذا. تعجبني أكثر مما ينبغي لي. أريدك داخلي الآن».

أما الرجل صاحب الوجه الحلو، فهو يحسّ بأن الأمور بدأت تزداد تعقيدًا.

يصير رابح، على نحو متزايد، أكثر انتباهًا إلى أن زوجته امرأة جيّدة. لعل هذا ليس مصادفة! يلاحظ مقدار ما تبذله من جهد في كل ما تفعله، تقريبًا. إنها تمضي ساعات من كل ليلة في مساعدة الطفلين في أداء واجباتهما المدرسية؛ وتتذكّر مواعيد اختبارات الإملاء؛ وتراجع معهما مقاطع من مسرحيات مدرسية؛ وتخيط رقعًا على بنطلوناتهما. وهي تكفل يتيمًا ذا شفة مشوّهة في مالاوي. يظهر تقرّح في فم رابح، على وجنته من الداخل، فتشتري زوجته «مرهمًا شافيًا» (من غير أن يطلب منها) وتوصله إليه في مكتبه. إنها تؤدّي أمورًا كثيرة تثبت له أنها ألطف منه وأحسن منه كثيرًا؛ وهذا ما هو ممتنٌّ له أقصى امتنان، لكنه، على مستوى آخر، يثير حنقه إلى أقصى حد.

يحسّ كأن سخاءها يكشف مدى نقصه ويصير في كل يوم أقل قابلية لأن يحتمله. يتراجع سلوكه. يرفع صوته عليها أمام الأطفال. يتباطأ في رمي القمامة، وفي طي الملاءات المغسولة، ويتمنّى لو أنها سيئة قليلًا معه حتى يصير تقييمها له أكثر انسجامًا مع إحساسه بقيمته الذاتية.

يبلغ انزعاجه أقصى حدوده في ساعة متأخّرة من إحدى الأمسيات، بعد أن يصيرا في الفراش وتبدأ كيرستن إخباره شيئًا عن خدمة الصيانة السنوية للسيارة.

تقول له من غير أن ترفع رأسها عما تقرأه: «آه، لقد جعلتهم يضبطون توازن الإطارات، الظاهر أن هذا أمر ضروري كل ستة أشهر، تقريبًا».

«كيرستن، لماذا تهتمين بهذا أصلًا؟»

«حسنًا... قد يكون أمرًا مهمًا، وقد يكون أمرًا خطيرًا ألّا يحرص المرء على ذلك. هذا ما قاله الميكانيكي».

«أنت مخيفة، هل تعرفين هذا؟».

«مخيفة!؟».

«أعني طريقتك في... أنت منظمة جدًا. تخطّطين لكل شيء، عقلانية في كل شيء، إلى حد فظيع».

«عقلانية؟».

«كل شيء هنا عقلاني ومنطقي، ومرتّب ومراقَب إلى أقصى حد، وكأن هناك جدولًا زمنيًا موضوعًا لنا منذ الآن حتى موتنا».

تقول كيرستن: «لا أفهم هذا...»، على وجهها تعبير موحٍ بدهشة تامة... «مراقَب؟ لقد ذهبت من أجل صيانة السيارة. وعلى الفور، أصير شريرة بموجب تلك القصص التي في رأسك عن حياتنا، القصص المعادية للحياة البرجوازية!».

«نعم، أنت محقّة. أنت محقّة دائمًا. أتساءل فقط عما يجعلك عبقرية إلى هذا الحد في جعلي أشعر بأنني شخص فظيع، مجنون. كل ما أستطيع قوله هو إن كل شيء موجود هنا منظَّم كثيرًا».

«كنت أظنك شخصًا يحب النظام».

«كنت أظن هذا أيضًا».

«كنتَ تظن! تقولها بصفة الماضي!».

«يمكن للنظام أن يوحي بأنه ميت، بل إنه مضجر»... إنه غير قادر على إيقاف نفسه. هناك ما يدفعه إلى قول أسوأ الأشياء، وإلى محاولة تحطيم العلاقة لكي يرى إن كانت حقيقية وإن كانت جديرة بالثقة.

«أنت لا تعبّر عن هذا بطريقة لطيفة على الإطلاق. وأنا لا أظن أن أي شيء هنا قد صار مضجرًا. ليته يصير مضجرًا».

«بل هو مضجر. أنا صرتُ مضجرًا. وأنتِ صرتِ مضجرةً أيضًا... لا أعرف إن كنت تلاحظين هذا».

نظرة كيرستن متّجهة أمامها مباشرة، وعيناها أكثر اتساعًا من المعتاد. تنهض عن السرير بكبرياء صامت. إصبعها لا تزال داخل الكتاب، عند الصفحة التي تقرأ. تسير خارجة من الغرفة. يسمعها تنزل إلى الطابق السفلي، ثم تغلق باب غرفة المعيشة من خلفها.

يصيح في إثرها: «لماذا تكون لديك هذه الموهبة كلّها في جعلي أشعر بأنني مذنب ملعون في كلّ شيء أفعله، أيتها القديسة اللعينة كيرستن؟». يضرب الأرض بقدمه ضربة قوية قوة كفيلة بأن توقظ ابنته لحظة وجيزة في الغرفة الواقعة تحته.

وبعد عشرين دقيقة من اجترار أفكاره، يلحق بكيرستن إلى الأسفل. إنها جالسة على الكنبة، إلى جانب المصباح، وقد لفَّت كتفيها ببطانية. لا ترفع رأسها حتى تنظر إليه عندما يدخل الغرفة.

يجلس على الأريكة ويضع رأسه بين كفيه. وفي المطبخ، يرتجف البرّاد ارتجافًا مسموعًا عندما يشغّلُ الثرموستات محركَه.

تقول له آخر الأمر من غير أن تنظر إليه: «أتظن أنني أجد متعة في هذا كلّه؟ في التخلّي عن الأجزاء الأفضل من حياتي المهنية لكي أرعى طفلين جميلين يستنفدان طاقتي ويثيران جنوني طيلة الوقت، ومعهما زوج، ما أروع هذا- على حافة انهيار عصبي؟ أتظنّ أن هذا ما حلمت به عندما كنت في الخامسة عشرة من عمري، عندما قرأت كتاب *المرأة المخصيّة* لجيرمين غرير؟ هل تعرف مقدار التوافه والأشياء التي لا معنى لها التي يتعيّن علي أن أملأ رأسي بها كل أيام الأسبوع، حتى تظلّ هذه الأسرة مستمرّة؟ وأما أنت، فكلّ ما تستطيع فعله هو أن تحمل شعورًا غريبًا بالاستياء لأنك تظنني أمنعك من تحقيق طموحك المعماري. لكن الحقيقة هي أن المال يقلقك أكثر مما يقلقني، إلا أنك تجد من المناسب أن تلومني على أفعالك. من الأسهل دائمًا، بل من الأسهل كثيرًا، أن أكون أنا المخطئة. لا أطلب منك إلا شيئًا واحدًا، شيئًا واحدًا فقط، هو أن تعاملني باحترام. لا يهمني ما تفكّر فيه في أحلام اليقظة، ولا ما قد تفعله عندما تذهب هنا وهناك. لكنّي لن أتسامح أبدًا إن كنت فظًا معي. أتظن أنك الشخص الوحيد الذي يصيبه الضجر من وقت لآخر نتيجة هذا كله؟ دعني أقول لك إنني، أنا أيضًا، لا أجد متعة كبيرة فيه. وإذا لم تكن منتبهًا إلى هذا، فإن هناك أوقاتًا أشعر فيها بشيء من الضيق وعدم الرضا، وبالتأكيد، لا أحب أن تمارِس عليّ رقابة بقدر ما لا تحب أن أمارسها عليك».

يحدّق رابح فيها وقد أدهشته جملتها الأخيرة.

يسألها: «رقابة... حقًّا؟ أستغرب اختيارك هذه الكلمة».

«أنت من استخدمها أولًا».

«لم أستخدمها».

«بل استخدمتها، في غرفة النوم. قلت إن كل شيء هنا عقلاني وخاضع للرقابة».

«أنا متأكد من أنني لم أستخدم هذه الكلمة...»، يصمت لحظة... «هل فعلتِ أي شيء يستدعي أن أراقبك؟».

بدت نبضات قلب علاقتهما كأنها قد توقّفت... تلك النبضات التي ظلّت مستمرة من غير انقطاع منذ بعد ظهر ذلك اليوم في الحديقة النباتية.

«أجل، إنني أضاجع الرجال الذين في فريق العمل كلهم... كل واحد منهم. يسعدني أنك سألت أخيرًا. ظننت أنك لن تسألني أبدًا. على الأقل، هم يعرفون كيف يكونون مهذبين معي».

«هل لك علاقة مع أحد منهم؟».

«لا تكن سخيفًا. إنني أتناول الغداء معهم أحيانًا».

«كلهم معًا؟».

«لا، يا حضرة المحقّق. أفضّل أن أخرج مع واحد منهم في كل مرة».

رابح مطرق برأسه فوق الطاولة التي تغطيها دفاتر الطفلين. تمر كيرستن بالخزانة التي عليها صورة كبيرة للأسرة كلها التُقطت في عطلة جميلة جدًا في نورماندي.

«من الذين تتناولين طعام الغداء معهم؟».

«ما الذي يجعل معرفة هذا أمرًا مهمًا؟ لا بأس... بن ماكغواير،

على سبيل المثال، في دودي. إنه شخص هادئ، يحب الخروج في نزهة على الأقدام. ولا يبدو عليه أنه يرى عيبًا مخيفًا في أنني 'منطقية'. على أية حال، إذا عدنا إلى النقطة الأكثر أهمية، كيف يمكن أن أكون أكثر وضوحًا؟ ليس أمرًا مضجرًا أن يكون المرء لطيفًا. إنه إنجاز هائل تعجز نسبة تسعة وتسعين بالمئة من البشرية عن تحقيقه بشكل يومي. إذا كان 'اللطف' مضجِرًا، فإن الحب مضجرًا أيضًا. لا أريد أبدًا أن ترفع صوتك عليّ مثلما فعلت يوم أمس. لا أحب الرجال الذين يصرخون. ما من شيء جذّاب في هذا، على الإطلاق. كنت أظن أن أفضل ما فيك هو أنك لا ترفع صوتك».

تنهض كيرستن وتذهب لتملأ لنفسها كأس ماء.

بن ماكغواير. يذكّره هذا الاسم بشيء. لقد ذكرتْه أمامه من قبل. ذهبتْ إلى دودي مرةً بعد الظهر. متى كان ذلك؟ قالت إن لديهم نوعًا من اجتماع لأعضاء المجلس. كيف يجرؤ هذا الماكغواير على دعوة زوجته إلى الغداء؟ هل فقد عقله تمامًا؟ يفعل هذا حتى من غير أن يطلب موافقة رابح... الموافقة التي لا يمكن أبدًا أن يمنحه إياها.

وعلى الفور، يبدأ طرح الأسئلة: «كيرستن، هل فعلت شيئًا، أي شيء، مع ماكغواير؟ هل أشار إلى أنه يودّ، على نحو ما، أن يفعل لك شيئًا، أو إلى أنه يود أن يفعل معك شيئًا؟».

«رابح، لا تكلمني بهذه الطريقة الغريبة الباردة، طريقة المحامين. أتظنني أتحدث هكذا معك إن كان لدي ما أخفيه؟ لست واحدة من الأشخاص النرجسيين الذين يشعرون فورًا أنهم مرغمون على التعرّي لمجرد أن هناك أحدًا يجدني جذابةً. لكن، إذا كان هناك

من يرى حقًا أنني رائعة بعض الشيء، وإذا لاحظ أحدٌ قصّة شعري الجديدة أو أبدى إعجابه بما أرتديه، فلست أعتبر هذا تصرفًا مزعجًا من جانبه. المفاجأة هي أنني لست امرأة عذراء، وسوف تكتشف أن العذراوات هذه الأيام لسن إلا أقلية صغيرة من النساء اللواتي في مثل سني. بل حتى يمكن أن يكون الوقت قد حان لأن تقبل حقيقة أن أمك لم تكن المادونا التي لا تزال حيّة في خيالك. ما الذي كانت تفعله بأمسياتها عندما تطير حول العالم؟ أتظنّها كانت تقرأ مقاطع مختارة من الإنجيل في غرفة الفندق؟ كيفما كان الأمر، فإنني آمل أن تكون قد عاشت أوقاتًا جميلة وأن يكون عشّاقُها قد عبدوها ـ ويسعدني أيضًا أنها كانت على قدر من اللباقة يجعلها تتفادى إدخالك في هذا الأمر كلّه. السكينة لروحها! إلا أنها تركت لديك، لا بفعل غلطة من جانبها، بعض الأفكار المعوجّة عن النساء. نعم، إن لدى النساء حاجاتهنّ الخاصّة بهنّ؛ وهنّ يحببن أحيانًا، حتى إذا كان لهنّ أزواج محبوبون، وإذا كنَّ أمهات صالحات، أن يأتي شخص جديد مجهول فيلاحظهنّ ويرغب فيهن رغبة شديدة. لا يعني هذا أنهنّ لا تكنّ -أيضًا- مثالًا للاهتمام العقلاني في كل يوم وألا تفكرنَ في الطعام الصحّي الذي تضعنَه في علب الغداء من أجل أطفالهنّ. تبدو أحيانًا كأنك مقتنع بأنك الشخص الوحيد هنا الذي يمتلك حياة داخلية. إلا أن مشاعرك الرهيفة كلّها ليست، في آخر المطاف، إلا مشاعر عادية جدًا، لا علامة على العبقرية. هذا هو معنى الزواج؛ وهذا ما تعاهدنا عليه، كلانا، مدى الحياة، وبأعين مفتوحة. إنني عازمة على البقاء مخلصة لذلك قدر ما أستطيع، وآمل أن تفعل ذلك أيضًا».

تقول هذا، ثم تصمت. على طاولة المطبخ إلى جانبها عبوة طحين كبيرة اشتروها من المخبز من أجل حلوى ستصنعها مع الطفلين يوم غدٍ. تحدّق كيرستن في تلك العبوة لحظة.

تقول له: «وأما عن تذمّرك من أنني لا أُقدِمُ على فعل أي شيء جنوني...». تطير عبوة الطحين مجتازة الغرفة قبل أن يفلح في قول أية كلمة، فتصطدم بالجدار اصطدامًا عنيفًا يجعلها تنفجر فتنطلق منها سحابة بيضاء تستغرق زمنًا طويلًا إلى حدٍّ مدهشٍ حتى تستقرّ على الكراسي وطاولة الطعام.

«أنت، أيها الرجل القاصِر، المؤذي، الغبي، هل كان هذا جنونًا كافيًا لك؟ ربما يتسنّى لك وقت كافٍ لأن تتذكّر كم تكون الأعمال المنزلية ممتعة وأنت تنظف هذا. ومن فضلك، لا تعد أبدًا، أبدًا، إلى القول إنني مضجرة».

تصعد إلى الطابق العلوي، ويركع رابح على ركبتيه حاملًا الفرشاة وجاروفَ القمامة البلاستيكي. الطحين في كل مكان: يستهلك قرابة لفافة كاملة من المناديل الورقية، بعد أن يرطبها بعناية، حتى يزيل الطحين عن الطاولة والكراسي والفراغات بين بلاطات الأرض. وحتى بعد ذلك، يظلّ مدركًا أن بقايا هذه الحادثة ستظلّ مرئية بضعة أسابيع قادمة. وأثناء عمله، يتذكّر أيضًا -على نحو لم يحسّه منذ فترة غير قليلة- أنه كان مصيبًا تمامًا عندما تزوّج هذه المرأة بعينها.

ومن هنا، يكون مؤلمًا له خاصّة تفكيره (المخطئ) في أن من الممكن أن يكون قد خسرها، أن يكون قد أخذها منه زميلها المسّاح في مجلس دودي. وأسوأ من ذلك أن يأتي الأمر في وقت يجد نفسه

فيه مزعزعًا من غير وزن أخلاقي يستطيع الاستعانة به. صحيح، يعرف أن هذا سخف منه، لكن الأفكار تتزاحم في رأسه على الرغم من ذلك. منذ متى تخونُه مع ذلك الرجل؟ وكم مرة التقيا؟ وأين يذهبان لفعل ذلك؟ في السيارة؟ عليه أن يجري فحصًا شاملًا للسيارة في الصباح. يشعر بالغثيان. إنها شديدة السرّية والتكتّم، بطبعها، بحيث يمكن أن تكون لها حياة ثانية كاملة... يفكّر في هذا من غير أن يكون لديه أي شيء يشير إليه. أليس عليه أن يتعلّم كيف يعترض رسائلها الإلكترونية، أو كيف يتنصّت على هاتفها؟ هل هي منتسبة حقًّا إلى نادي الكتب؟ وعندما قالت في الشهر الماضي إنها ذاهبة لكي تزور أمها، هل ذهبت فأمضت عطلة نهاية الأسبوع مع عشيقها؟ وماذا عن القهوة، التي تذهب أحيانًا لتناولها أيام السبت؟ قد يكون هناك نوعٌ من أجهزة التعقّب يستطيع أن يدسه في معطفها. لقد تجاوز مرحلة الغضب، وصار في حالة ذعر تام. زوجته موشكة على هجرانه، أو لعلها تعتزم البقاء ومعاملته طيلة الدهر بطريقة باردة وغاضبة. ما أشد شوقه إلى حياتهما في الماضي عندما لم يعرفا شيئًا غير الهدوء والاستقرار والإخلاص (يفلح في إقناع نفسه بهذا). يودّ أن تحتضنه بين ذراعيها كأنه طفل رضيع، وأن يعود الزمن إلى الخلف. لقد ظن أنهما سيحظيان بأمسية هادئة، لكن كل شيء قد انتهى الآن.

يقال لنا إن كون المرء ناضجًا يعني أن يتجاوز حب الامتلاك. فالغيرة للأطفال فقط. يعرف الشخص الناضج أن ما من أحد مدين لأحد بأي شيء. هذا ما يعلّمنا

الحكماء إياه منذ أيامنا الأولى. دعْ جاك يلعب بسيارة الإطفاء التي هي لك: لن تكف عن كونها لعبتك إذا لعب بها قليلًا! كفَّ عن رمي نفسك على الأرض وعن ضرب السجادة بقبضتي يديك الغاضبتين الصغيرتين. لعل أختك الصغيرة حبيبة بابا، لكنك حبيب بابا أيضًا. الحبّ ليس شيئًا شبيهًا بحلوى نأكلها. إذا منحتَ شخصًا حبك، فهذا لا يعني أن الحب الذي تستطيع منحه لأي شخص آخر قد نقُص. الحب يكبر دائمًا كلما أتى طفل جديد إلى الأسرة. وفي ما بعد، يصير هذا المنطق أكثر قوة في ما يتّصل بالجنس. لماذا يزعجك الأمر إذا تركَكَ شريكُكَ ساعةً حتى يذهب ويدعك جزءًا من جسده بجزء من جسد شخص غريب؟ في حقيقة الأمر، لن يغضبك الأمر أبدًا، إذا ذهب الشريك ولعب الشطرنج مع شخص لا تعرفه، أو إذا انضم إلى مجموعة تأمُّلٍ يتبادلون فيها أحاديث حميمة عن حياتهم على ضوء الشموع، هل يزعجك هذا؟

لا قدرة لرابح على منع نفسه من طرح بعض الأسئلة: أين كانت كيرستن مساء يوم الخميس الماضي عندما اتصل بها فلم تجبه؟ من هو الذي تحاول إثارة إعجابه بحذائها الجديد الأسود؟ ولماذا يكتب اسم بن ماكغواير في نافذة البحث في لابتوب زوجته (فتحه خِفية في الحمّام) فلا يرى في نتائج البحث إلا رسائل إلكترونية مضجرة بينهما... رسائل عن العمل؟ كيف يتواصلان، وأين؟ هل

هناك حساب بريد إلكتروني سرّي بينهما؟ أم لعلهما يستخدمان سكايب؟ أو خدمة تواصل جديدة مشفّرة؟ وأما أكثر أسئلته أهمية، وأكثرها غباء على الإطلاق، فهو: كيف هو بن ماكغواير في الفراش؟

سُخف الغيرة يجعلها هدفًا مغريًا لأولئك الذين يحبّون إلقاء المواعظ على الآخرين. إلا أن عليهم أن يوفّروا هذا العناء. فليس تفادي نوبات الغيرة بمستطاع مهما تكن مقيتة ومزعجة وسخيفة سخفًا واضحًا: علينا القبول بأننا غير قادرين على البقاء عقلاء عندما نسمع أن الشخص الذي نحبه ونتّكل عليه قد مسّ شفتي شخص آخر، أو حتى عندما نسمع أنه مسَّ يده فقط. هذا أمر غير منطقي، بالطبع، وهو يخالف مباشرة تلك الأفكار، المخلصة والصاحية تمامًا أكثر الأحيان، التي كانت لدينا عندما وقع لنا أن خُنّا أحدًا في الماضي. إلا أننا نكون، هنا، غير منفتحين على المنطق العقلي. يعني كونُ المرء حكيمًا أن يُدرك متى تصير الحكمة خيارًا غير متاح!

يحاول، عن وعي، أن يبطئ إيقاع تنفّسه. قد يبدو أنه غاضب، لكنه خائف في أعماقه، لا أكثر. يجرب أسلوبًا قرأ عنه في إحدى المجلات: «إن كانت لكيرستن بالفعل بضع تجارب مع بن، فلنتخيّل ما لعلها كانت تريده منها. ما الذي أردتُه عندما كنت مع لورين، هل أردت أن أهجر كيرستن؟ لا، بكل تأكيد. إذًا، في كل الأحوال، لم تكن كيرستن تريد أن تتركني عندما كانت مع بن. لعلّها كانت تشعر بالضعف وبأنها موضع تجاهل فحسب، فأرادت

ما يؤكّد جاذبيتها الجنسية، أمور قالت لي إنها تحتاجها، وإنني أحتاجها. مهما يكن ما فعلته كيرستن، فهو -على الأرجح- ليس بأسوأ مما حدث في برلين؛ وذلك لم يكن أمرًا سيئًا في حد ذاته! إن سامحتها، فسوف يكون هذا منسجمًا مع تلك الدوافع نفسها التي كانت عندي، وسأرى أن تلك الدوافع عندها لم تكن ضد زواجنا وحبّنا بأكثر مما كانته دوافعي».

يبدو هذا تفكيرًا منطقيًا تمامًا، تفكيرًا مُنبئًا براجحة العقل. إلا أنه لا يغيّر في الأمر أي شيء. يبدأ رابح تعلُّم كيف يكون «شعوره حسنًا»، لكن ذلك لا يجري بالطريقة العادية المجرّبة من قبل كأن يستمع إلى عِظةٍ أو يتبع طائعًا بعض الأعراف الاجتماعية لافتقاره إلى أي خيار غيرها، أو لأن لديه احترامًا خانعًا سلبيًا للتقاليد. إنه يصير الآن شخصًا أكثر لطفًا بفعل أكثر الوسائل الممكنة نجاعة وموثوقية: من خلال فرصة استكشاف العواقب بعيدة المدى للسلوك السيئ، من داخله.

طالما بقينا مستفيدين، عن غير إدراك، من ولاء الغير وإخلاصه، تبقى «برودة الأعصاب» في ما يخصّ الخيانة الزوجية أمرًا سهل المتناول. فليس كون المرء شخصًا لم يتعرّض للخيانة أبدًا بالشرط المسبق المتين لأن يظلّ وفيًا. يتطلّب ارتقاؤنا إلى أن نصير أشخاصًا أكثر إخلاصًا على نحو أصيل أن نعاني حالات ملائمة من «التمنيع» نشعر فيها، لوقتٍ، بذعرٍ لا حدود له، وبأننا واقعون ضحية اعتداء، وبأننا على شفير الانهيار. عندها

فقط، يمكن للنصيحة الموجهة إلينا بألّا نخون أزواجنا وزوجاتنا أن تتحوّل من كلام مهدّئ لا طعم له إلى واجب أخلاقي مُلزم يظلّ حيًا على الدوام.

رغبتان متضاربتان

إنه توّاق إلى السلامة قبل أي شيء آخر. في أكثر الأحيان، يكون لليالي الأحد دفؤها المريح الخاص عندما يجلس أربعتهم من حول الطاولة، ويأكلون باستا من إعداد كيرستن. ويليام يضحك، وإيثر تغني. ظلمة في الخارج. ورابح يأكل الخبز الألماني الأسود المفضّل لديه. يلعبون المونوبولي بعد ذلك، ويتضاربون بالوسائد، ثم يأتي وقت الحمّام، ومن بعده قصّة، ثم يحين وقت نوم الطفلين. يجلس كيرستن ورابح في سريرهما أيضًا. يجلسان ويتابعان فيلمًا. تتعانق كفّاهما تحت اللحاف، تمامًا مثلما كان يحدث في البداية، لكن التتمة تُختصر إلى قبلة صغيرة على الشفتين تكاد تكون محرَجة عندما ينتهي الفيلم. يغفو الاثنان بعد عشر دقائق من ذلك. يغفوان آمنين ملتفَّين بالأغطية.

لكنه يحنُّ إلى المغامرة أيضًا. الساعة السادسة والنصف في تلك الأمسيات الصيفية الرائعة النادرة في إدنبره، حين تفوح الشوارع برائحة الديزل والقهوة والمأكولات المقلية والإسفلت الحار والجنس. الأرصفة مزدحمة بأناس يرتدون فساتين من قماش قطني مطبوع، وبنطلونات جينز ضيّقة. العاقلون متوجهون جميعًا إلى بيوتهم، وأما من يبقون في الشوارع فلهم وعدُ الليل بالدفء والإثارة والشقاوة. تمر شابة مرتدية بلوزة ضيّقة (لعلّها طالبة أو سائحة)، وتبتسم خِفيَةً ابتسامة وجيزة جدًّا، فيصير كل شيء، في لحظة

واحدة، كأنه في متناول اليد. وفي الساعات التالية، سيدخل الناس البارات والمراقص، سيصيحون حتى تصير أصواتهم مسموعة عبر الموسيقى المدويّة، وسيعومون في الكحول والأدرينالين، ثم ينتهي بهم الأمر بمعانقة أشخاص غرباء في الظلال. وعلى رابح أن يعود إلى البيت لأن موعد حمّام الطفلين يحين بعد خمس عشرة دقيقة.

حياتنا الرومانسية مقدَّرٌ لها أن تكون حزينة وغير مكتملة، لأننا مخلوقات مدفوعة برغبتين أساسيتين تشيران بقوة إلى اتجاهين مختلفين تمامًا. إلا أن الشيء الأسوأ من هذا هو رفضنا الطوباوي لأن نتقبّل هذا التباعد والتضاد، وأملنا الساذج بأن من الممكن العثور، بطريقة من الطرق، على توافق مجّاني بين الأمرين: أن يعيش المُنفلِتُ من أجل المغامرة مع نجاحه في تفادي الوحدة والفوضى. أو أن ينجح الرومانسي المتزوّج في إقامة وحدةٍ بين الجنس والرقة، بين العاطفة والروتين.

يتلقّى رابح رسالة نصّية من لورين تسأله فيها إن كان ممكنًا أن يتحدّثا عبر الإنترنت في وقت من الأوقات. تودّ أن تسمع صوته؛ وتفضّل أن تراه من جديد: الكلمات وحدها غير كافية.

فترة انتظار تطول عشرة أيام قبل أن يكون لدى كيرستن ما يجعلها تكون خارج البيت في الليل. يبقى منشغلًا بالطفلين حتى يقترب الموعد. ثم يجد نفسه مضطرًّا إلى البقاء في المطبخ طيلة فترة المكالمة لأن إشارة الواي فاي ضعيفة. يحرص على التحقّق والتأكد تكرارًا من أن إيثر وويليام ليسا في حاجة إلى شيء. لكنه يلتفت كل بضع دقائق وينظر إلى الباب... تحسّبًا.

لم يستخدم فيس تايم من قبل. يستغرق الأمر وهلة قبل أن يفلح في تنصيب البرنامج. هناك الآن امرأتان معتمدتان عليه، بطريقتين مختلفين. بعد بضع دقائق، وبعد تغيير كلمة السر ثلاث مرات، تظهر لورين فجأة كأنها كانت تنتظره داخل الكمبيوتر طيلة ذلك الوقت.

وعلى الفور تقول له: «اشتقت إليك». إنه صباح مشمس في جنوب كاليفورنيا.

هي جالسة في المطبخ/ غرفة المعيشة في بيتها، ترتدي بلوزة بسيطة زرقاء مخططة. لقد غسلت شعرها قبل قليل. عيناها متّقدتان، مرحتان.

يقول لها: «عندي قهوة جاهزة. ألا تريدين فنجانًا منها؟».

«طبعًا، ومعها قليل من التوست».

«أنت تحبين التوست مع الزبدة، هذا ما أتذكّره! انتظري لحظة».

تضطرب شاشة الكمبيوتر لحظة. يفكر رابح: هكذا ستكون علاقات الحب عندما نستوطن المريخ.

ليس الوَلَهُ وهمًا. فقد تكون لطريقةِ ميلِ المرء برأسه دلالةٌ حقيقية على أنه شخص حسّاس وظريف وواثق من نفسه. وقد يكون لديه بالفعل ما توحي به عيناه من ظرف وذكاء، وما يوحي به فمه من رقّة وحنان. لكن في الوله مشكلة أكثر رهافة وخفاء: العجز عن الاستمرار في تذكّر الحقيقة المركزية عن الطبيعة البشرية، ألا وهي أن كل إنسان -ليس هذا مقتصرًا على شركائنا الحاليين الذين صرنا على أتم معرفة بما لديهم من نقائص وعيوب كثيرة- لديه شيء خاطئ، شيء أصيل

جوهري مثير سيدفع بنا إلى الجنون عندما نُمضي معه مزيدًا من الوقت، شيء خاطئ إلى حد قادر على جعل ذلك الإحساس الأول بالنشوة والفرح أمرًا داعيًا إلى الهزء والسخرية.

وأما الأشخاصُ الذين لا يزالون قادرين على مفاجأتنا بأنهم بشر طبيعيون تمامًا، فهم الذين لم نعرفهم معرفة جيّدة حتى الآن. أفضل علاج للحب هو أن نعرف الحبيب معرفة أفضل.

عندما تستقر صورة الشاشة من جديد، يتمكّن رابح من تمييز ما يبدو له أشبه بمنشَر للملابس في زاوية الغرفة عليه بضعة أزواج من الجوارب.

تتساءل بصوت مرتفع: «بالمناسبة، أين هو مفتاح 'مد يدك لكي تلمس حبيبك' في هذا الشيء؟».

إنه تحت رحمتها بكل معنى الكلمة. ليس عليها إلا أن تبحث عن بريد زوجته الإلكتروني في موقع مجلس إدنبره على الانترنت، ثم تبعث إليها برسالة صغيرة.

يجيبها: «ها هو، على كمبيوتري».

خلال لحظة واحدة، يندفع عقله بعيدًا، يندفع إلى مستقبل محتمل مع لورين. يتخيّل عيشه معها في لوس أنجلوس، في تلك الشقّة، بعد الطلاق. سوف يمارسان الحب على الأريكة، وسوف يطوّقها بذراعه. سوف يسهران إلى ساعة متأخّرة من الليل، وسوف يتحدّثان عن أشواقهما ومواجعهما. سوف يذهبان بالسيارة إلى ماليبو ليأكلا القريدس في مطعم صغير على شاطئ المحيط تعرفه لورين. ولكن...

سيكون عليهما أن يهتمّا بغسل الملابس، وأنِ يتساءلا عمن سيصلح مفاتيح الكهرباء، وسيتخاصمان لأن الحليب قد نفد.

لا يريد أبدًا لهذا الأمر أن يتعمّق أكثر من هذه النقطة. لماذا؟ لأن لورين تعجبه كثيرًا. يعرف نفسه معرفة كافية لكي يدرك كم سيجعلها تعيسة آخر الأمر. ففي ضوء كل ما يعرفه عن نفسه، وعن مسار الحب، يستطيع رؤية أن أرقّ ما يستطيع فعله لامرأة تعجبه حقًّا هو أن يبتعد عنها سريعًا.

الزواج: هو أمر أعجب وأقسى كثيرًا من أن نجعل أي شخص نزعم أننا حريصون عليه يُبتلى به.

تقول له من جديد: «اشتقت لك».

«وأنا مشتاق لك. إنني أنظر أيضًا، بإمعانٍ، إلى ملابسك المغسولة هناك، فوق كتفك. أراها جميلة جدًّا».

«أنت، أيها الرجل السافل، المنحرف!».

لن يكون المُضي قدمًا في قصة الحب هذه (هو النتيجة المنطقية لهذه الحماسة كلها) إلا سيرًا في طريق مفضية إلى أكثر شيء أناني ولا مبالٍ يمكن أن يفعله للورين، فضلًا عما سيفعله ذلك بزوجته. يدرك الآن أن الكرم الحقيقي يعني الإعجاب، ويعني القدرة على النظر إلى ما هو خلف الرغبة الملحّة في دوام الحال، ثم الابتعاد.

يبدأ رابح القول: «هناك شيء أريد قوله لك...». يمضي عبر ما لديه من تحفّظات، وتظلّ لورين صابرة على تعثره وتردّده، وعلى ما تدعوه «ميله الشرق أوسطي إلى تغليف الأمور بالسّكر»، وتمازحه قائلة إنه يطردها من «وظيفة عشيقته»؛ لكنها تظلّ لبقة وكريمة ومتفهّمة؛ وأهم من هذا كله أنها تظل لطيفة.

ينتهي إلى القول: «ليس على هذه الأرض أشخاص كثيرون مثلك». وهو يعني هذا حقًّا.

كان ما قاد خطاه في برلين أملًا مفاجئًا في القدرة على تجاوز بعض نواقص زواجه من خلال «غزوة» جديدة، لكنها مضبوطة، في حياة شخص آخر. لكن هذا الأمل -بحسب فهمه الأمر الآن- لا يمكن أبدًا إلا أن يكون كلامًا عاطفيًا فارغًا، بل نوعٌ من القسوة أيضًا لأنه سينتهي بكل من هو طرف فيه إلى الخروج من الأمر كلّه خاسرًا ومجروحًا. لا وجود لأية تسوية أنيقة ممكنة تضمن عدم التضحية بأي شيء. يفهم رابح الآن أن المغامرة والأمان أمران لا يجتمعان. إن الزواج القائم على الحب، والأطفال، قتلٌ للتلقائية الشهوانية؛ وقيامُ علاقة خارج الزواج تقتل هذا الزواج. لا يستطيع المرء أن يكون، في وقت واحد، شخصًا متفلّتًا ورومانسيًا متزوّجًا، وذلك مهما يكن هذان العنوانان جذّابَيْن في نظره. لا يقلّل رابح من شأن الخسارة، في هذا الاتجاه أو ذاك. أن يودّع لورين معناه أن يحفظ زواجه، لكنه يعني أيضًا أن يحرم نفسه من مصدر شديد الأهمية من مصادر البهجة والرقة والحلاوة. لا يستطيع «جرذ الحب»، ولا الزوج الوفيّ، أن يصل إلى بغيته. ما من حلٍّ حسنٍ هنا! تنهمر دموع رابح في المطبخ، ويبكي كما لم يبكِ منذ سنين طويلة: يبكي على ما فقده، ويبكي على ما وضعه موضع الخطر؛ ويبكي لأن كلًا من الخيارين كان شديد القسوة عليه. لا يكاد يسنح له الوقت الكافي لأن يتمالك نفسه قبل سماعه صوت المفتاح يدور في قفل الباب، وقبل وصول كيرستن إلى المطبخ.

سوف تبرهن الأسابيع التي تأتي بعد هذا على كونها مزيجًا من

الارتياح والحزن. وسوف تسأله زوجته، مرة أو مرتين، إن كان به شيء... وبعد أن تسأله مرة ثانية، سيبذل جهدًا كبيرًا في تمالك نفسه حتى لا تسأله مرة ثالثة.

بطبيعة الحال، ليست الكآبة اضطرابًا أو مرضًا في حاجة إلى معالجة. إنها نوع من الأسى العقلي يظهر عندما نقف، وجهًا إلى وجه، أمام يقيننا من أن خيبة الأمل مُقدّرة لنا منذ البداية.

لسنا مستثنَيين من هذا الأمر. فالزواج من أي شخص، حتى إن كان أنسب شخص لنا من بين البشر جميعًا، يتلخّص في حالة من تحديد نوع المعاناة التي نفضِّل أن نضحي بأنفسنا من أجله.

في عالم مثالي، ستُعاد كتابة عهود الزواج إعادة شاملة. سيقف العروسان ويتكلّمان هكذا: «نقبل ألّا يصيبنا الذعر عندما يبدو لنا، بعد سنين من الآن، أن ما نحن مقدمان عليه اليوم هو أسوأ قرار اتخذناه في حياتنا كلّها. إلا أننا نتعهّد أيضًا بألّا ينظر الواحد منا هنا وهناك لأننا مدركان أن ما من خيارات أفضل يمكن أن تكون موجودة حيث ننظر. كل خيار هو خيارٌ مستحيل، دائمًا. نحن جنس معتوه».

وبعد أن يكرّر من يحضرون الزفاف الجملة الأخيرة بوقار شديد، يتابع العروسان كلامهما: «سنحاول أن نظلّ وفيَّين، وفي الوقت نفسه، نحن واثقان من أن منع المرء من مضاجعة أي شخص آخر ليس إلا واحدة من مآسي الوجود. يؤسفُنا أنّ غيرَتنا تجعل هذا القَيد الغريب، مع

كونه قَيدًا سليمًا لا مساومة عليه، أمرًا ضروريًا. نتعهّد بأن يجعل كل منا الآخر مستأمَنًا على كل ما يشعر به من ندم وأسف ولوعة بدلًا من نشرها على الملأ عبر حياة من الدونجوانية الجنسية. لقد استعرضنا مختلف خيارات التعاسة، ثم اخترنا أن يربط كل منا نفسه بالآخر».

لن يكون المتزوجون الذين يتعرّضون للخيانة قادرين بعد ذلك على التذمّر الغاضب من أنهم توقعوا بقاء شركائهم راضين بهم وحدهم. بدلًا من ذلك، سيكون في وسعهم أن يصيحوا محقّين، وبقدر أكبر من الألم، «كنت معتمدًا على إخلاصك لهذه الصيغة بعينها من التسوية والتعاسة التي يمثّلها زواجنا الذي عانينا حتى وصلنا إليه».

وبعد ذلك، لن تكون إقامة علاقة أخرى خيانة للمسرّة الحميمة بين الزوجين، بل لتعهدهما المتبادل بتحمّل خيبات الأمل الناجمة عن الزواج بشجاعة وبتعقّل صبور.

أسرار

إنّ كبت المشاعر، وقدرًا من التحفظ ومن الحرص على مراقبة النفس، أمور تنتمي كلّها إلى الحب تمامًا مثلما تنتمي إليه -بكل تأكيد- القدرة على البوح الصريح. فالشخص الذي لا طاقة له على تحمّل الأسرار، الذي يفصح باسم «الحرص على الصدق» عن معلومات جارحة إلى حدٍّ يجعل الطرف الآخر غير قادر على نسيانها، ليس شخصًا صديقًا للحب. وإذا اشتبهنا (هذا ما يحدث كثيرًا إذا كانت علاقتنا قيّمة فعلًا) في أن شريكنا يكذب أيضًا (ما تفكّر فيه، أو رأيه الحقيقي في عملنا، أو أين كانت ليلة أمس...)، فإننا نحسن صنعًا إذا امتنعنا عن التصرّف معه، أو معها، مثلما يتصرّف مُستنطق لا يعرف الشفقة. قد يكون أكثر حكمة ولطفًا، وأقرب إلى روح الحب الحقيقية، أن نتظاهر بأننا لا نلاحظ شيئًا.

ما من خيار أمام رابح غير أن يكذب إلى الأبد في ما يتصل بما حدث في برلين. لا بد له من هذا لأنه يعرف أن من شأن قول الحقيقة أن يستتبع مجموعة أكبر من الأكاذيب: الاعتقاد الخاطئ جدًّا بأنه لم يعد يحب كيرستن، أو بأنه رجل لا مجال للثقة به في أي ميدان من ميادين الحياة. إن قول الحقيقة يهدد بتشويه العلاقة إلى درجة أكبر كثيرًا من عدم قولها.

في أعقاب انتهاء علاقته بلورين، يتبنّى رابح نظرة مختلفة إلى الغاية من الزواج. عندما كان أصغر سنًا، كان يرى أن الزواج احتفاءٌ بمجموعة خاصة من المشاعر: الرقّة، والرغبة، والحماسة، والتَّوْق. إلا أنه يدرك الآن أن الزواج أيضًا، وعلى نحو لا يقلّ أهمية، مؤسسةٌ يُراد منها أن تبقى صامدة على مر السنين من غير التفات إلى كلّ تغيّر عابر في مشاعر المنتسبين إليها. إن لها تبريرها في أمر أكثر استقرارًا ودوامًا من المشاعر: في فعل الالتزام الأصلي المنيع في مواجهة إعادة النظر اللاحقة، فضلًا عن الالتزام بالأطفال الذين هم فئة من الكائنات غيرُ مهتمة أبدًا، بحكم تكوينها، بمدى ما يشعر به أهلهم أو لا يشعرون به من رضا وإشباع من يوم إلى يوم.

على امتداد الشطر الأكبر من التاريخ المنصرم، كان الناس يظلّون متزوجين لأنهم حريصون على تلبية ما يتوقّعه المجتمع منهم، أو لأن لهم ممتلكات يحرصون على صونها، أو لأنهم راغبون في المحافظة على وحدة الأسرة. ثم، على نحو متدرّج، جاء معيار آخر شديد الاختلاف عما سبق: الفكرة هي أنه ليس على الزوجين أن يظلا معًا إلا إذا ظلّت مشاعر بعينها قائمة بينهما، إحساس حقيقي بالحماسة والرغبة والإشباع. في هذا النظام الرومانسي الجديد، يكون مبرّرًا للزوجين أن يسيرا في طريقين مختلفين إذا صار الروتين الزواجي قاتلًا، أو إذا كان الأطفال يرهقون أعصابهما، أو إذا كفّ الجنس بينهما عن كونه أمرًا مغريًا، أو إذا شعر أيٌّ منهما بأنه غير سعيد، ولو قليلًا.

مع زيادة إدراك رابح مدى تشتت مشاعره وفوضاها، يزداد تقبّلًا لفكرة أن الزواج مؤسّسة. فقد يرصُد في مؤتمر من المؤتمرات امرأة جذّابة ويجد نفسه راغبًا في التخلّي عن كل شيء من أجلها، لكنه يدرك، بعد يومين، أن الموت أهون عليه من أن يكون من غير كيرستن. وقد يتمنّى في أيام عطلة نهاية الأسبوع المطيرة التي تسير ببطء شديد أن يكبر طفلاه ويتركاه وحده إلى آخر الزمان حتى يجلس ويقرأ مجلته بسلام، وبعد يوم من ذلك، عندما يكون في المكتب، ينقبض قلبه أسى لأن من الممكن أن يطول اجتماع من الاجتماعات، فلا يستطيع العودة إلى البيت إلا بعد ساعة من موعد نوم الطفلين.

يدرك، على هذه الخلفية الزئبقية المتغيّرة دائمًا، مدى أهمية الدبلوماسية والمِران على أن ليس على المرء دائمًا أن يقول ما يفكّر فيه أو أن يفعل ما يود فعله، وذلك من أجل أهداف أكبر، من أجل أهداف أكثر بعدًا.

يتذكّر رابح دائمًا قوى الأحاسيس والهرمونات المتضاربة التي تتجاذبه إلى مئة وجهة مجنونة مشكوكٍ فيها. إن من شأن الالتفات إلى أيٍّ من تلك القوى أن يكون إلغاءً لأية فرصة في عيش حياة متّسقة. يعرف أنه لن يتمكّن أبدًا من تحقيق تقدّم في مشاريعه الكبيرة إذا لم يكن قادرًا على احتمال البقاء -جزءًا من الوقت، على الأقل- غيرَ راضٍ داخليًا، وغير صادق خارجيًا؛ حتى إن لم يكن ذلك إلا في ما يتصل بتلك الأحاسيس العابرة من قبيل الرغبة في التخلّي عن طفلَيْه أو في إنهاء زواجه من أجل ليلة عابرة مع اختصاصية تخطيط مديني أميركية لها عينان خضراوان رماديتان جذّابتان إلى حد استثنائي.

يضفي رابح على مشاعره وزنًا أكبر مما ينبغي إن هو سمح لها بأن تكون نجمه الهادي الذي يتعيّن على حياته أن تسترشد به دائمًا. إنه «مسألة كيميائية معقّدة» في حاجة ماسة إلى مبادئ أساسية يستطيع التمسكُ بها أثناء تلك «الاختلالات المنطقية» الوجيزة. يعرف كيف يكون ممتنًا لحقيقة أن ظروفه الخارجية ستكون أحيانًا غير متّسقة مع ما يعيشه في قلبه. بل لعل هذا علامة تدلّه على أنه سائر في الاتجاه الصحيح.

ما يتجاوز الفلسفة الرومانسية

نظرية الارتباط

إن لديهما، مع تقدّم السنّ بهما، إدراكًا جديدًا لحقيقة عدم نضجهما؛ ومعه إحساس بأن من المستبعد كثيرًا أن يكون هذا أمرًا مقتصرًا عليهما. لا بد أن هناك أشخاصًا آخرين يستطيعون فهمهما بأحسن مما يفهما نفسَيْهما.

كثيرًا ما حدث في الماضي أن تبادلا نكاتًا عن المعالجة النفسية. كانت نكاتهما أول الأمر منصبَّةً على المعالجة النفسية في حدٍّ ذاتها: هذه المعالجة خاصّة بالناس المجانين الذين لديهم فائض من الوقت والمال يستطيعون التصرّف به؛ وكل المعالجين النفسيين مجانين؛ وما على الأشخاص الذين يعانون مشكلة إلا أن يُكثروا من الأحاديث مع الأصدقاء؛ ورؤية «أحد ما» من أجل مشكلة، أمرٌ يفعله من يعيشون في مانهاتن، لا في منطقة لوسيان الاسكوتلندية. إلا أن هذه النكات المكرّرة التي يطمئِنان نفسَيْهما بها بدأت تبدو أقل قدرة على الإقناع مع كل مشاجرة كبيرة بينهما. وعندما أتى يوم دفع فيه رابح كرسيًا في سورة غضب فكسر إحدى ذراعيه، وذلك ردًّا على أسئلة كيرستن الملحة عن فاتورة مترتبة على البطاقة الائتمانية، أدركا كلاهما فجأة ومن غير قول أية كلمة أن عليهما أن يحجزا موعدًا.

إن العثور على معالج جيد أمر صعب، بل هو أصعب كثيرًا من العثور -مثلًا- على صالون حلاقة متميّز. ولعل ذلك لأن هذه

الخدمة (المعالجة النفسية) أقل تطلّعًا إلى لفت انتباه البشر. ثم إن سؤال المعارف عن مُعالج يستطيعون النصح به أمر محفوف بالمخاطر لأن الناس ميالون إلى اعتبار هذا الطلب في حدّ ذاته إشارة إلى أن الزواج يعيش مشكلة ـ بدلًا من اعتباره مؤشّرًا على متانته وطول العمر المتوقع له. وعلى غرار أكثر الأشياء التي تكون صالحة للمساعدة في مجرى الحب والزواج، تبدو الاستشارة النفسية أمرًا غير رومانسي إلى حد خطير.

وأخيرًا، يعثران على معالِجة نفسية عن طريق البحث في الإنترنت. إنها تعمل وحدها في عيادة في مركز المدينة؛ ويشير موقعها على الإنترنت إلى خبرتها في «مشكلات الأزواج». تبدو هذه الجملة مطمْئِنة: ليست مشكلاتُهما بالظاهرة الفريدة المعزولة، بل هي جزء مما يحدث ضمن هذه الوحدة (الزواج) التي تخضع لدراسة متعمّقة، والتي تظهر فيها مشكلات كثيرة أينما نظر المرء.

العيادة واقعة في الطابق الثالث من بناية سكنية كئيبة المظهر مبنية في أواخر القرن التاسع عشر. لكنهما يدخلان فيجدانها دافئة ومرحِّبة، مليئة بالكتب والأوراق والمناظر الطبيعية. المعالجة النفسية، السيدة فيربيرن، ترتدي فستانًا بسيطًا أزرق اللون وعلى رأسها خوذة ضخمة من شعر ذي تلافيف متراصّة تحيط بوجه متواضع ناطق بالصدق والإخلاص. عندما تجلس في كرسيّها، تظل قدماها مرتفعتان عن الأرض ارتفاعًا غير قليل. سوف يفكّر رابح في وقت لاحق (وعلى نحو غير لطيف) في أن تلك «القزمة» تبدو قليلة الخبرة في المشاعر التي تزعم أنها خبيرة فيها.

يلاحظ رابح علبة مناديل ورقية ضخمة على الطاولة التي

بينه وبين كيرستن -ويشعر بموجة استياء كبيرة إزاء ما يوحي به وجودها. لا رغبة لديه في قبول الدعوة إلى الإسرار بأحزانه المعقّدة لكومة مناديل ورقية أمام أشخاصٍ آخرين.

وبينما تعكف السيد فيربيرن على تسجيل رقميهما الهاتفيين، يكاد يقاطع ذلك ويعلن أن قدومهما إلى هذا المكان ليس إلا غلطة أو ردة فعل ميلودرامية مبالغًا فيها إزاء بضع مجادلات جرت بينهما، وأنه أعاد التفكير في الأمر، فرأى أن علاقتهما في أحسن حال، بل إنها ممتازة جدًّا في بعض اللحظات. يودّ الخروج من تلك العيادة والعودة إلى العالم المعتاد، إلى ذلك المقهى عند الزاوية حيث يستطيعان، هو وكيرستن، تناول سندويتشات التونة مع كأس من شراب الكورديال، ثم يتابعان حياتهما العادية من حيث أخرجا نفسيهما منها، بإرادتهما وعلى نحو غريب، نتيجة إحساس لا محل له بأنها تعاني نقصًا.

تقول المعالجة النفسية بنطق واضح وبلهجة أهل الطبقة العليا في إدنبره: «في البداية، سأوضح بضعة أمور. لدينا خمسون دقيقة، تستطيعان متابعة الوقت على تلك الساعة المعلّقة فوق الموقد. لعلكما تشعران بشيء من التخوف عند تلك النقطة. سيكون أمرًا غير معتاد إذا لم يكن لديكما هذا الشعور. قد تظنّان أنني أعرف عنكما كل شيء، أو تظنّان أنني لا أستطيع معرفة أي شيء عنكما. لا هذا صحيح تمامًا، ولا ذاك. نحن الآن نستكشف الأمور معًا. وعليّ القول أيضًا إنني أهنئكما على مجيئكما إلى هذه العيادة. أعرف أن الأمر يستلزم قدرًا من الشجاعة. فبمجرد قبولكما أن تكونا هنا، تكونا قد قمتما بأكبر خطوة يمكن أن يقوم بها شخصان حتى يحاولا البقاء معًا».

من خلفها رفٌّ عليه كتب أساسية في مهنتها: «الأنا وآلياتها الدفاعية»، «البيت هو المكان الذي نبدأ منه ـ قلق الانفصال»، «صدى الحب في المعالجة النفسية للزوجين»، و«الذات والآخر في نظرية العلاقة بالموضوع». وهي نفسها قد أنجزت تأليف كتاب، عنوانه: «الارتباط الآمن والقلق في العلاقات الزوجية»، سوف يصدر عن دار نشر صغيرة في لندن.

تواصل كلامها بصوت أكثر دفئًا: «قولا لي، من أين أتيتما بفكرة أنكما قد تكونان في حاجة إلى القدوم لرؤيتي».

تقول كيرستن إنهما التقيا منذ سبع عشرة سنة. لديهما طفلان. فقد كل منهما أحد والديه عندما كانا صغيرين. حياتهما حياة انشغال دائم، حياة مُرضية، لكنها جحيمية أحيانًا. تحدث بينهما مجادلات من نوعٍ تكرهه. وفي نظرها، كثيرًا ما لا يكون زوجها الرجل الذي وقعت في حبّه. إنه يغضب منها، ويصفق الأبواب بقوّة. وقد شتمها مرة.

ترفع السيدة فيربيرن رأسها عن الورقة التي تدوّن عليها ملاحظاتها. في وجهها تعبير هادئ سوف يصير مألوفًا جيدًا لهما.

يقر رابح بأن ذلك كله صحيح، لكنَّ في كيرستن برودًا وازدراءً صامتًا يظهر أحيانًا ويثير قنوطه ويشعر بأن الغاية منه هي إثارة غضبه. إن ردة فعلها على المخاوف -مخاوفها ومخاوفه- هي أن تصمت وتجعله في حالة تجمّد. كثيرًا ما يتساءل إن كانت تحبه أصلًا.

إن نظرية الارتباط التي وضعها عالم النفس جون بولبي وزملاؤه

في إنكلترا في العقد السادس من القرن العشرين تتبع وصول التوتّرات والنزاعات التي تنشأ في العلاقات رجوعًا إلى أول ما عرفه طرفا العلاقة من رعاية الأهل.

يُعتقدُ أن ثلث سكان أوروبا الغربية وشمال أميركا قد عانوا شكلًا من أشكال الخيبة الأبوية المبكرة (انظر، س. ب. فاسيلي، 2013) مما نتج عنه بدء آليات الدفاع البدائية لديهم -من أجل درء الخوف من قلق لا يمكن احتماله- وتضرّر قدرتهم على الثقة وعلى الحميمية. يذهب بولبي في عمله الكبير «قلق الانفصال» (1959) إلى أنَّ من تعرّضوا لخذلانٍ في بيئتهم الأُسرية في أعمار مبكرة عادة ما ينشأ لديهم نوعان من الاستجابات عندما يكبرون ويواجهون صعوبات أو غموضًا أو التباسًا في علاقاتهم. الاستجابة الأولى ميلٌ إلى سلوك الخوف والتمسك والسيطرة -هذا هو النمط الذي يدعوه بولبي «الارتباط القلق»- والثانية هي ميلٌ إلى مناورات التراجع الدفاعي التي يدعوها «الارتباط التجنُّبي». يكون الشخص القلق ميالًا إلى تفقّد شريكه دائمًا، وإلى التحقّق منه، وكذلك إلى أن تظهر لديه انفجارات من الغيرة مع قضائه شطرًا كبيرًا من حياته متحسِّرًا على أن علاقته ليست «أكثر قربًا». وأما الشخص المتجنّب، من ناحيته، فهو يتحدّث عن حاجته إلى «حيّز»، ويستمتع بالبقاء وحده، ويجد المطالبة بالحميمية الجنسية مرهقة له أحيانًا.

يظهر لدى ما يبلغ سبعين بالمئة من المرضى الذين يسعون إلى معالجة علاقاتهم واحدٌ من هذين النمطين السلوكيين، القلِق والتجَنُّبي. وفي أحيان كثيرة جدًا، يكون أحد الشريكين تجَنُّبيًا ويكون الآخر قلقًا بحيث يؤدّي كل نمط من نمطَيّ الاستجابة هذين إلى مفاقمة النمط الآخر، وبحيث تشهد الثقة بين الطرفين تراجعًا متواصلًا.

د. جوانا فيربيرن، «الارتباط الآمن والقلق في العلاقات الزوجية: وجهة نظر من منظور العلاقة بالموضوع».
(كارناك بوكس، لندن، يصدر قريبًا)

من المهم لهما قبول أنهما غير قادرين على أن يفهم أحدهما الآخر فهمًا تلقائيًا. يعني وجودهما هنا أن كلًّا منهما قد تخلّى عن محاولة حَدْسِ ما قد يكون جاريًا داخل من يدعوه «شقيق روحه». يجري التخلّي عن الأحلام الرومانسية ويستبدَلُ بها -عبر شهور كثيرة- تفحُّص تافه لبعض اللحظات، قليلة الشأن في ظاهرها، في حياتهما العائلية. لكن ما من شيء اسمه لحظات قليلة الشأن في نظر السيدة فيربيرن؛ فعبارة غير لطيفة، ونفاد صبر عابر، وفظاظة جارحة، تشكل كلّها مادة أوّلية لعملها.

تساعدهما السيدة فيربيرن في إبطال مفعول «القنابل». قد يبدو سخيفًا إنفاق «خمسين دقيقة» و«خمسة وسبعين جنيهًا» على النظر في كيفية رد رابح عندما نادته كيرستن، للمرة الثانية، حتى ينزل من الطابق الثاني ويجهز الطاولة لتناول الطعام، أو ردة فعل كيرستن على درجات إيثر المخيّبة للآمال في مادة الجغرافيا. إلا أن هذه هي الأرضية التي تولّد مشكلات قد تتطور -إن أُهمل أمرها- فتصير من تلك الكوارث التي يُبدي المجتمع استعدادًا أكبر لتركيز انتباهه عليها: العنف المنزلي، وتفكك الأسرة، وتدخّل الخدمات الاجتماعية، والقرارات القضائية... يبدأ كل شيء بإهانات وخُذلانات صغيرة.

يستحضر رابح اليوم مجادلةً جرت ليلة أمس كان موضوعها

العمل والمال: هناك خطر من اضطرار شركته إلى تجميد الرواتب أو تخفيضها في الفصل القادم. وهذا ما قد يجعلهما متخلّفين عن سداد أقساط قرض البيت. بدت كيرستن كأنها غير مهتمة بالأمر. لماذا تبدو هكذا عندما يواجههما أمر على هذا القدر من الخطورة؟ هل تستجيب زوجته دائمًا بهذه الطريقة غير الباعثة على الاطمئنان؟ هل يمكن أن تكون قد عثرت على شيء مفيد تقوله، أي شيء؟ بل... هل سمعتْ ما قاله أصلًا؟ ولماذا تجيبه في مرات كثيرة جدًا بـ«هممم» محيّرة تمامًا عندما يكون في أشد الحاجة إلى مساندتها. هذا ما جعله يصرخ بها، ويشتمها، ثم يخرج من البيت. لم يكن تصرّفه مثاليًا، لكنها خذلته خذلانًا خطيرًا!

علامةُ الشخص ذي الارتباط القلِق هي عدم احتماله المواقف الغامضة، وردة فعله الشديدة تجاهها، مواقف من قبيل الصمت، أو التأخّر، أو الكلام الغامض. سرعان ما تُترجم هذه الاستجابات بطرق سلبية فتُفسَّر على أنها إهانات أو هجمات حاقدة. وأما عند من يكون ذا ارتباط قَلِق، فإن كل كلمة متعجلة أو ضعيفة أو صغيرة، وكل إغفال، يمكن تلقّيه على أنه خطر داهم أو كأنه إنذار وشيك على انهيار العلاقة كلّها. تنزلق التوضيحات التي تكون أكثر موضوعية بعيدًا عن المتناوَل. وكثيرًا ما يشعر الأشخاص ذوو الارتباط القلق، في داخلهم، كأنهم يقاتلون من أجل حياتهم؛ وذلك على الرغم من كونهم غير قادرين على تفسير إحساسهم بالضعف لمن

هم حولهم، أي لمن يمكن أن يعتبروهم -نتيجة ذلك- عدوانيين أو قساة أو أصحاب طبع رديء.

تحتج كيرستن قائلة إن قول هذا الكلام أمرٌ سخيف. فها هو يبالغ في الأمر من جديد مثلما يفعل إزاء أمور كثيرة جدًّا تمتد من غزارة المطر في الخارج إلى مقدار سوء وجبة في مطعم من المطاعم. تمامًا مثلما فعل عندما ذهبوا في رحلة إلى البرتغال فلم يعد قادرًا الحديث عن شيء، طيلة شهور بعد ذلك، غير قذارة الفندق الذي كانوا فيه، وكأن تلك كانت نهاية العالم... حتى عندما قال الطفلان إن الفندق أعجبهما.

تضيف كيرستن قائلة إن استجابتها ليست -بالتأكيد- مبررًا لذلك النوع من ردة الفعل. فهل كان الأمر يستحقّ خروجه بتلك الطريقة؟ وأيُّ شخص بالغ يمكن أن يكون لديه طبع من هذا النوع؟ إنها تدعو السيدة فيربيرن، ضمنيًا، إلى اعتبارها الطرف المنطقي في علاقتهما؛ وهي تدعوها (بما أنها امرأة مثلها) إلى الانضمام إليها في التعجّب من حماقة الرجال وميلودراميتهم.

إلا أن السيدة فيربيرن لا تحبّ أن يضغط عليها أحد لكي تتّخذ جانبه. هذا جزء من مهارتها في أداء عملها. وهي ليست مهتمة بأن يكون أيٌّ منهما «محقًّا». تريد استيضاح ما يشعر به كل طرف لكي تعمل بعد ذلك على جعل الطرف الآخر يستمع إليه متعاطفًا معه.

توجّه السيدة فيربيرن السؤال إلى رابح: «ما هو شعورك تجاه كيرستن في تلك اللحظات عندما لا تقول إلا أقل القليل؟».

هذا سؤال سخيف -يقول هذا في نفسه ويستيقظ غضب الليلة الماضية في ذهنه.

«أشعر بما تتوقّعينه بالضبط. أشعر بأنها فظيعة».

تتدخل كيرستن: «فظيعة؟ لمجرد أنني لا أقول ما تريد سماعه بالضبط؟ أنا فظيعة؟».

تحذّرها السيدة فيربيرن: «دقيقة، من فضلك، يا كيرستن. أريد أن أعرف المزيد عما يحسّه رابح في تلك اللحظات. كيف يكون الأمر في نظرك عندما ترى أن كيرستن قد خذلتك ولم تهتم بك؟».

يكف رابح عن استخدام أية مكابح عقلانية، ويترك لاوعيه يتكلّم هذه المرة: «أشعر بأنني مذعور، ومهجور، وعاجز».

يسود الغرفة صمت مثلما يحدث أكثر الأحيان بعد أن يقول واحد منهما شيء ذو أهمية.

«... أشعر بأنني وحيد. أشعر بأن لا أهمية لي. أشعر بأنها غير مبالية بي على الإطلاق».

يتوقف عن الكلام. تنبجس دموعه من عينيه. دموع لعلّها غير متوقعة.

تقول السيدة فيربيرن بطريقة محايدة، لكنها مهتمة: «يبدو لي هذا صعبًا».

تقول كيرستن: «لا يبدو لي مذعورًا. من الصعب أن يبدو رجل يصرخ على زوجته ويشتمها مرشّحًا حقيقيًا لأن يُعتبَر حملًا مسكينًا خائفًا».

لقد قبضت السيدة فيربيرن على المشكلة بإحكام في «ملقطها العلاجي»؛ ولن تفلتها من يدها. هذا نمط معروف: في مسألة من المسائل التي يجد فيها حاجة إلى الطمأنينة، يشعر رابح بأن كيرستن باردة، وبأنها «منسحبة». يصيبه الذعر، ويفقد أعصابه، ثم يرى أن

كيرستن قد صارت أكثر انسحابًا. يزداد خوفه وغضبه، مثلما يزداد البعد بينهما. لكن كيرستن تراه مغرورًا ومتنمّرًا عليها. لقد علّمها تاريخ حياتها أن لدى الرجال نزوعًا إلى السلوك المتغطرس؛ وعلّمها أن دور المرأة أن تقاوم هذا النزوع من خلال قوتها ورسميتها. عند هذه النقطة، لا يعود الصفح احتمالًا مطروحًا. لكن ما من قوة باقية في داخل رابح؛ فهو في حالة مضطربة وفي غاية الضيق؛ وهو ضعيف يشعر بالإهانة نتيجة ما يراه دليلًا واضحًا على لا مبالاتها. من هنا، يكون أمرًا مشؤومًا يكاد يبلغ حد المأساة أن يتخذَ أسلوبُه في التعبير عن إحساسه بالضعف هيئة تُموّه ذلك الإحساس تمويهًا تامًّا فتغدو النتيجة المحتومة أن يبعد عنه الزوجة التي هو في أشد الحاجة إلى أن تطمئِنه وتريحَه.

لكن هناك الآن فرصة لأن تُكسر تلك الدائرة المفرغة مرة في الأسبوع، يوم الأربعاء، وقت الظهر. ففي حضور السيدة فيربيرن لكي تحمي كيرستن من إحساس رابح بالضيق، ولكي تحمي رابحًا من برودة كيرستن ولا مبالاتها، يكون كل منهما مدعوًّا إلى النظر إلى ما هو تحت السطح المؤذي للطرف الآخر حتى يرى الطفل البائس المذعور المختبئ تحته.

«يا كيرستن، هل تظنين أن الصياح، والشتائم أحيانًا، أفعالُ رجلٍ يشعر بالقوة؟».

تطرح عليها السيدة فيربيرن هذا السؤال في واحدة من لحظاتها التوجيهية القليلة، عندما تشعر بأن الفكرة قد صارت في متناول المريض الذي تخاطبه.

تعرف السيدة فيربيرن كيف تكون خطواتها خفيفة جدًا. لعل

للكتب التي على الرف عناوين ثقيلة الوقع، لكن المعالِجة الرشيقة تتحرّك في مجرى الجلسة العلاجية مثلما تتحرّك راقصة الباليه.

يبلغ الحديث عن الصعوبات القائمة بينهما دائرة العلاقة الجنسية. عندما تكون كيرستن متعبة أو مشغولة البال، يسقط رابح سريعًا، بل سريعًا جدًا، في حالة من الجزع. يستنجد عقله فورًا بسردية قوية تقول إنه شخص مُنفّر. إن من السمات المركزية لهذا الإحساس بالتقزز من الذات (هو إحساس سابق على علاقته بكيرستن) تعذُّرُ شرحه للآخرين على الرغم من كونه يتبدّى في حالة من الإحساس بالمرارة تجاه من يثيره لديه. من هنا، ينتهي الأمر بأمسية لم تبلغ غايتها إلى أن تصير سببًا خفيًّا لعبارات هازئة، أو جارحة، تصدر عن رابح في اليوم التالي. وبدورها، تؤدي هذه العبارات إلى محاولات أشد قوة (صامتة أيضًا) من جانب كيرستن لكي تتراجع وتبتعد أكثر من ذي قبل. وبعد بضعة أيام من استمرار صدّه، يضيق رابح ذرعًا بالأمر ويتهم كيرستن بأنها باردة وغريبة الطبع. هذا ما تجيب عليه كيرستن بالقول إنها تظنّه يجد متعة حقيقية في إزعاجها لأنه يفعل هذا كثيرًا. تنسحب إلى مكان أليف داخل رأسها، مكان حزين لكنه مريح بطريقة غريبة، حيث اعتادت أن تختبئ عندما يخذلها الآخرون، وتبحث عن السلوى في الكتب وفي الموسيقى. إنها خبيرة في الدفاع و«الحماية الذاتية». هذا ما أمضت الشطر الأكبر من حياتها في التمرّن عليه.

يتميز نمط الارتباط التجَنُّبي برغبة غريبة في تفادي النزاع، وفي تقليل الاحتكاك بالآخر عندما لا تُلبّى الاحتياجات العاطفية. وسرعان

ما يفترض الشخص المتجنّب أن الآخرين حريصون على مهاجمته، وأن لا سبيل إلى المناقشة المنطقية معهم. ليس على المرء ألا أن يفرّ ويقطع طرق التواصل، ويصير باردًا. للأسف، عادة ما يعجز الطرف المتجنِّب عن تفسير سلوكه الدفاعي الخائف لشريكه؛ وهذا ما يجعل الأسباب الكامنة خلف سلوكه البعيد والذاهل تظلّ غير واضحة فتسهُل إساءة فهمها واعتبارها عدم اهتمام بينما يكون العكس هو الصحيح في حقيقة الأمر: الواقع أن الطرف المتجنِّب يكون مباليًا كثيرًا، وبعمق شديد، لكنه يشعر بأن التعبير عن حبّه قد صار مخاطرة كبيرة.

على الرغم من حرصها على عدم فرض استنتاجاتها، تحمل السيدة فيربيرن نوعًا من مرآة مجازية تجعل كيرستن قادرة على أن تبدأ رؤية الأثر الذي تُحدثه لدى الآخرين. إنها تساعدها في إدراك مَيْلها إلى الفرار وإلى الاستجابة للتوتر والشدة النفسية من خلال صمتها. تشجّعها على التفكير في أن هذه الاستراتيجيات يمكن أن يكون لها أثر غير مرغوب فيه على من هم معتمدون عليها. فعلى نحو يشبه كثيرًا ما يفعله رابح، اعتادت كيرستن أن تعبر عن خيباتها بطريقة من المؤكد أنها غير قادرة على كسب تعاطف من هي في حاجة ماسة إلى حبّهم.

لا يتطرق رابح أبدًا إلى ذكر ليلته التي أمضاها مع لورين. فهو يرى أن الأولوية هي فهم سبب حدوثها، وليس الاعتراف بأنها حدثت على نحو يمكن أن يطلق أنواعًا من الإحساس بعدم الأمان من شأنه أن يكون قادرًا على تدمير الثقة بينه وبين كيرستن إلى الأبد. يتساءل في نفسه -في الفترات الفاصلة بين جلساتهما مع

السيد فيربيرن- عما يمكن أن يكون قد جعله مبتهجًا وقليل المبالاة بإيذاء زوجته إلى درجة واضحة كثيرًا؛ ويرى أن ما من تفسير لذلك أبدًا غير أمر واحد فقط: لا بد أنه كان يشعر بجرح كبير نتيجة أشياء غير سليمة في علاقتهما بحيث بلغ نقطة لا يهتم كثيرًا عندها بأنه يمكن أن يجرح كيرستن جرحًا عميقًا. لم يضاجع لورين بدافع من رغبة، بل بدافع من غضب... ذلك النوع من الغضب الذي لا يقبل صاحبه الاعتراف بوجوده... غضب عميق، متجهّم، مأزوم. سوف يكون عاملًا جوهريًا في إنقاذ زواجه تمكُّنه من أن يشرح لكيرستن، بطريقة تستطيع فهمها، أنه يشعر بالخذلان.

إن في قلب المصاعب التي تواجه رابحًا وكيرستن مسألة متعلّقة بالثقة. إنها خصلة غير سهلة المُتناوَل لأيّ منهما. هما مخلوقان مجروحان كان عليهما في الطفولة أن يتأقلما مع خيبات مؤذية، فكانت نتيجة ذلك أن كبرا وصارا شخصين بالغين لدى كل منهما ميل عنيف إلى الدفاع عن نفسه، وما يشبه عجزًا عن الكشف عن عواطفه وتعريتها أمام الآخرين. إنهما خبيران في أساليب الهجوم وفي إقامة الاستحكامات الدفاعية. وأما ما هما أقلُّ براعة فيه فهو تقبُّل القلق الذي يأتي مع التخلّي عن الاحتياطات الشديدة ومع التعبير عن مواطِن الضعف والحزن. شيء يشبه ما يجده المقاتلون من صعوبة في التأقلم مع الحياة المدنية بعد انتهاء الحرب.

يهاجمها رابح نتيجة قلقه، فتنسحب متفادية هجومه. إنهما شخصان يجد كل منهما حاجة كبيرة إلى الآخر لكنهما -في الوقت نفسه- مذعوران من التعبير الصريح عن مقدار ذلك الاحتياج. لا يصبر أي منهما على الجرح فترة كافية فعلًا لأن يفهمه أو يحسّه أو

يشرحه لمن أنزله به. فبقاء المرء مؤمنًا بمن أساء إليه يتطلّب قدرًا كبيرًا من الثقة بالنفس لا يمتلكه أي منهما. لا بد لهما من ثقة متبادلة كافية لتوضيح أنهما ليسا في حالة «غضب حقيقي» أو حالة «برودٍ حقيقية»، بل في معاناة دائمة من شيء أكثر عمقًا وأكثر تأثيرًا في النفس واستحقاقًا للعطف، ألا وهو الإحساس بالجرح. إنهما غير قادرين على أن يقدّم واحدهما إلى الآخر تلك الهدية الضرورية الأكثر رومانسية من أي شيء آخر: إرشادُه إلى مَواطن الضعف والهشاشة لديه.

هناك استبيان مستخدم على نطاق واسع من أجل قياس أنماط الارتباط (كان هازان وشافير ـ 1987، أول من ابتكر هذا الاستبيان). يكون على المشارك في الاستبيان أن يحدّد واحدًا من الخيارات الثلاثة التالية يراه أكثر تعبيرًا عنه، وذلك من أجل تحديد نوع الارتباط الذي لديه:

«أريد علاقات فيها تقارب عاطفي، لكني غالبًا ما أجد أن الناس يكونون وضيعين ومخيبين للأمل من غير سبب وجيه. أخشى أن يصيبني الأذى إن سمحت لنفسي بالاقتراب كثيرًا من الآخرين. لا يزعجني أن أمضي الوقت وحيدًا». (ارتباط تجَنُّبي).

أودّ أن أكون على علاقة عاطفية حميمية مع الآخرين، لكنّي أجد أنهم مترددون إزاء هذا القرب الذي أريده. ما أخشاه هو أنني أجد في الآخرين قيمة أكثر ما يجدون قيمة فيّ، وهذا ما يجعلني في حالة ضيق وانزعاج شديدين». (ارتباط قَلِق).

من السهل عليّ -نسبيًا- أن أكون في حالة تقارب عاطفي مع

الآخرين. وأشعر بالراحة عندما أعتمد على الآخرين، وعندما يكونون معتمدين عليَّ. لا يقلقني أن أكون وحدي ولا ألا يتقبّلني الآخرون». (ارتباط مطمئن).

من الواضح أن هذه التصنيفات الثلاثة خالية من أي سحر. بل إن المرء يشعر بأن هناك صفعة قد وجِّهت إلى أناهُ عندما يكون مرغمًا على عدم اعتبار نفسه نوعًا من شخصية مختلفة تمامًا عن تلك الشخصيات الفريدة التي قد يجد روائيٌّ مشقّة في التقاط معالمها كلّها في كتاب من ثمانمئة صفحة، بل ضمن نمط من أنماط عامة من الممكن -بسهولة- أن تتحدّد ببضع فقرات في كتاب تعليمي من كتب التحليل النفسي. يصعب كثيرًا أن يصادف المرء تعابير من قبيل «تجَنُّبي» و«قلِق» في قصّة حب. لكن ما يُفهم من كلمة «رومانسي» هو ما يكون «مُعينًا على تقدّم الحب وتطوّره»؛ وهذا ما يجعل «تجَنُّبي» و«قلق»، الكلمتان الأكثر رومانسية التي يمكن أن يصادفهما كل من كيرستن ورابح، وذلك لأنهما تمنحانهما القدرة على إدراك الأنماط السلوكية التي ما فتئت تخرّب العلاقة بينهما في كل يوم من أيام عُمر زواجهما.

يظهر لديهما تقدير لقناة دبلوماسية المعالَجة النفسية، تلك القناة الخفيّة، غير المألوفة، التي جعلت نمطًا جديدًا من الخطاب ممكنًا بينهما، والتي صارت ملاذًا آمنًا يلتقيان فيه كل أسبوع فيُقرّان بما يشعران به من حنق وحزن في ظل رقابة حانية من جانب معالِجَتهما التي تقوم بدور الحَكَم الحريص على تأخير ردة فعل الآخر زمنًا كافيًا لأن تتحقّق الدرجة اللازمة من التفهم، بل من التعاطف أيضًا.

لقد أفضت آلاف السنين من الخطوات المتمهّلة من الحضارة، على الأقل، إلى ظهور ملتقى يجلس فيه شخصان ويكونان قادرين على إجراء مناقشة دقيقة ومضنية في مسائل من قبيل: مقدار الأذى الذي سبّبه واحد منهما للآخر في ما يتصل بإعداد الطاولة من أجل الطعام، أو بقولِ عبارة ما في حفلة من الحفلات، أو بوضع برنامج العطلة... وذلك من غير أن يكون مسموحًا لأي طرف منهما بأن ينهض وينصرف فجأة، أو بأن يشتم الآخر. يستنتج كل من كيرستن ورابح أن المعالَجة النفسية هي -من بعض النواحي- أعظم اختراع عرفه عصرنا.

يبدأ ظهور أثر الأحاديث التي تجري بينهما في حضور السيدة فيربيرن على طريقة كلام كل منهما مع الآخر في البيت. يبدأان سماع صوت المعالِجة المتعقّل اللطيف منبعثًا من داخلهما. «ماذا يمكن أن تقول جوانا في هذا الأمر؟» (لا يستخدمان هذا الاسم أبدًا أمامها). يصير هذا السؤال أشبه بطقس مازح بينهما في البيت، تمامًا مثلما كان الكاثوليك في وقت من الأوقات يحاولون تخيّل ما قد تكون إجابات يسوع المسيح عن المشقّات التي يواجهونها في حياتهم!

وقد تقول كيرستن محذّرة زوجها عند حدوث مواجهة بينهما، «إذا واصلت إزعاجي هكذا، فقد ينتهي بي الأمر إلى أن أصير مُتجنِّبة».

لا تزال المعالَجة النفسية موضوعًا للنكات بينهما؛ لكنها تلك النكات صارت خالية من الهزء والسخرية.

من المؤسف أن تكون الأفكار التي تُطرح في العيادات النفسية

موضع إهمال وتجاهل كبيرين في الثقافة العامة. إن لدى الزوجين إحساسًا بأن أحاديثهما تشبه مختبرًا صغيرًا للنضج في عالم غاصٍّ بأفكار ترى في الحب غريزة وشعورًا مستعصيَيْن على الدراسة. يبدو وجود عيادة السيدة فيربيرن القائمة في أعلى سلّم بناية سكنية رمزًا للطبيعة المهمّشة لمهنتها. إنها واحدة من أبطال الحقيقة التي صار رابح وكيرستن الآن على معرفة جيّدة بها، تلك الحقيقة التي جعلتهما مدركين أنها يمكن أن تضيع في خِضمّ الضجيج المحيط بالحياة: الحب مهارة، وليس عاطفة وحماسة فحسب!

مكتبة
t.me/t_pdf

النضج

خلال فصل الشتاء كلّه يعمل رابح على تصميمات من أجل صالة للتمرينات الرياضية. يلتقي عشرات المرّات بأعضاء في مجلس التعليم المحلي الذي هو صاحب المشروع. يعِدُ هذا المشروع بأن يكون بناءً استثنائيًا له فتحات إنارة علوية تجعله حسن الإنارة من الداخل، حتى في الأيام الغائمة. ومن الناحية المهنيّة، قد يكون هذا المشروع بداية شيء كبير الأهمية بالنسبة إلى رابح. ثم... يزورونه مرّة أخرى في الربيع ويقولون له، بتلك الطريقة العدائية التي يستخدمها بعض الناس عندما يشعرون بالذنب لأنهم خذلوا أحدًا، إنهم قرروا مواصلة العمل مع شركة تصميم أخرى تتمتّع بقدر أكبر من الخبرة. عندها تبدأ ليالي الأرق.

من الممكن أن يصير الأرق جحيمًا عندما يستمرّ عدة أسابيع. لكن جرعات صغيرة من الأرق -ليلة في كل حين- ليست مما يستلزم معالجة. بل من الممكن أن يكون هذا المقدار من الأرق مفيدًا وأن يكون عونًا في بعض المشكلات المهمّة التي تعانيها الروح. غالبًا ما تكون الأفكار المهمة التي نريد إيصالها إلى أنفسنا غير قابلة لأن نتلقاها إلا في الليل... مثلما يكون على صوت أجراس الكنائس في المدينة أن يظلّ منتظرًا حلول الظلام حتى يغدو مسموعًا.

يكون عليه خلال النهار أن يقوم بواجباته تجاه الآخرين. وعندما يصير وحيدًا في عرينه بعد منتصف الليل، يستطيع العودة إلى واجبه الأكبر حجمًا والأكثر خصوصية. لا شك في أن الأفكار الجارية في عقله ستبدو غريبة في نظر كيرستن وإيثر وويليام. إنهم في حاجة إلى أن يكون على صورة بعينها، وهو غير راغب في خذلانهم أو إثارة خوفهم بغرابة أفكاره وتصوّراته؛ فمن حقّهم أن يكونوا قادرين على توقّعه. وأما الآن فإن لديه أمورًا أخرى تشغل ذهنه. الأرق هو ثأرُ عقله من تلك الأفكار الشائكة كلّها التي يحرص أشد الحرص على تجنّبها طيلة ساعات النهار.

لا تتوقّف الحياة المعتادة طويلًا عند ما هو جارٍ في العقل لقلّة ما تتيحه من وقت ولكثرة ما فيها من مخاوف لا تترك متسعًا لأي شيء آخر. نترك أنفسنا منقادةً بغريزة البقاء وحفظ الذات: ندفع أنفسنا إلى الأمام ونَضرُب عندما نُضرَب، ونلقي باللائمة على الآخرين، ونقمع الأسئلة العابرة، ونتشبّث تشبثًا شديدًا بصورة مغرية لوجهتنا. لا يكاد يكون لنا أي خيار غير أن نتّخذ صف أنفسنا من غير مهادنة.

وفي تلك اللحظات النادرة وحدها، عندما تغيب النجوم ولا يعود أحد محتاجًا شيئًا منا حتى فجر اليوم التالي، نستطيع إرخاء قبضتنا الشديدة على أنانا التماسًا لنظرة إلى أنفسنا تكون أكثر صدقًا وأقل محدودية وضيقًا.

ينظر رابح بطريقة جديدة إلى الحقائق والوقائع التي يعرفها جيدًا: إنه جبانٌ وحالمٌ وزوجٌ غيرُ وفيّ وشخص لديه ميل مبالغ فيه

إلى تملك من حوله، وهو أيضًا أب زائد التعلّق بطفليه. حياته كلّها مربوطة بخيط واحد. لقد تجاوز منتصفَ مساره المهني ولم يكد ينجز شيئًا بالمقارنة مع الآمال التي كانت في نفسه ذات يوم.

وهو قادر -في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل- على أن يكون متجرّدًا تجرّدًا غريبًا من العاطفة عندما يحصي معايبه: ميله إلى المعاندة الذي يثير لدى رؤسائه في العمل شعورًا بعدم الثقة، ونزوعه إلى الشعور بالإساءة بسرعة زائدة، وما لديه من تفضيل لالتزام الحيطة والحذر لخوفه من مواجهة شيء من الرفض. ليس لديه قدر من الثقة بالنفس كافٍ لأن يظل مواظبًا على ما يفعله. لقد اجتاز من هو في مثل سنّه شوطًا بعيدًا وصارت لديهم مكاتبهم المعمارية الخاصّة بهم بدلًا من أن يظلّوا منتظرين من يطلب منهم أداء هذا العمل أو ذاك، ثم يلومون العالم كلّه لأنهم لم يتوسّلوا إليه توسّلًا كافيًا. ليس لديه إلا بناية واحدة تحمل اسمه ـ مركز لتخزين البيانات في هيرتفوردشاير. وهو في سبيله إلى أن يموت مع بقاء القسم الأكبر من مواهبه غير مكتَشَف، مواهب لا تبينُ منها إلا لمحات إلهام خاطفة يراها أحيانًا بطرف عين عقله عندما يكون في الحمام أو عندما يقود السيارة وحيدًا على الطريق السريع.

إنه الآن في نقطة واقعة ما وراء رثاء الذات، أي ما وراء ذلك الاعتقاد الضحل بأن ما يحدث له استثنائي أو غير مُستحَق. لقد فقد إيمانه ببراءته وفرادته. هذه ليست أزمة منتصف العمر، بل هي تجاوزه طورَ المراهقة متأخّرًا نحو ثلاثين سنة.

يرى نفسه رجلًا لديه توقٌ مبالغ فيه إلى الحب الرومانسي، لكنه لا يعرف إلا القليل عن اللطف والرقة، بل حتى عن التواصل. إنه

شخصٌ يخشى السعي الصريح إلى السعادة، ويلجأ إلى سلوك قوامه الميل إلى التهكم والسخرية والإحساس المسبق بخيبة الأمل.

إذًا، هذا هو معنى أن يكون المرء فاشلًا! قد يكون الصمت هو السمة الأولى الأكثر بروزًا: الهاتف لا يرن، ولا يدعوه أحد إلى الخروج معه، ولا شيء يحدث! خلال الشطر الأكبر من حياته بعد أن صار كبيرًا، كانت صورة الفشل في ذهنه مقتصرة على وقوع كارثةٍ مشهودة؛ لكنه يدرك أخيرًا أن الفشل قد تسلّل إليه تسلّلًا خفيًّا لا يُحسّ، وذلك من خلال امتناعه الجبان عن الفعل.

ومع هذا، فلا بأس (أمر مفاجئ!). يعتاد المرء كل شيء، حتى شعوره بالإهانة. وما يبدو غير قابل للاحتمال يعرف كيف يصير -آخر الأمر- غير سيّئ كثيرًا.

لقد امتصّ حتى الآن قدرًا كبيرًا من خيرات الحياة من غير أن يخرج منها بأية فائدة واضحة، ومن غير أن يكون لها أثر حسن عليه. إنه على هذه الكوكب منذ عقود كثيرة من السنين، ولم يجد نفسه أبدًا مضطرًا إلى حرث الأرض أو إلى الذهاب إلى فراشه جائعًا، لكنه ترك امتيازاته كلّها من غير أن يمسّها تقريبًا... مثلما يفعل طفل أفسده الدلال.

والواقع أن أحلامه كانت كبيرة جدًّا في ما مضى: سوف يصير واحدًا من المعماريين العظماء من أمثال لويس كاهن أو لو كوربوزييه أو مييه فانغرهه أو جيوفري باوا. وكان يظنّ أنه سيجعل نوعًا جديدًا من العمارة يظهر إلى حيّز الوجود: عمارة ذات تميّز محلّي، رشيقة، متناغمة... عمارة تقدّمية مستفيدة من أحدث ما بلغته التكنولوجيا. إلا أنه الآن نائب المدير، شبه المفلّس، في

مكتب من الدرجة الثانية يعمل في ميدان التصميم المديني؛ وليس هناك غير بناء واحد يحمل اسمه... بناء أقرب إلى أن يكون سقيفة في واقع الأمر.

تنزع الطبيعة فينا أحلام نجاح تلحّ علينا دائمًا. لا بد من وجود منفعة تطوّرية، بالنسبة إلى جنسنا، في أن نكون «مصمِّمين» من أجل هذا التطلّع والسعي: هذا القلق هو ما أعطانا مدننا ومكتباتنا ومركباتنا الفضائية.
على أن هذا الدافع لا يتيح فرصة كبيرة لوصول الفرد إلى حالة توازن. فقد كان ثمن بضعة أعمال ومنجزات عبقرية عبر تاريخنا هو أن يبقى قسم لا يستهان به من بني البشر في حالة معاناة يومية بفعل القلق وخيبة الأمل.

رابح معتاد على افتراض أن النسخة التي لا عيب فيها من أي شيء هي وحدَها ما يستحقّ أن يمتلكه المرء. لقد كان ينشد الكمال دائمًا. إذا أصاب السيارة خدش، فهو غير قادر على التمتّع بقيادتها؛ وإذا لم تكن الغرفة مرتّبة، فهو لا يطيق الجلوس فيها؛ وإذا عجزت حبيبته عن فهم قسم منه، فإن العلاقة كلّها تصير أُحجية. وأما الآن، فإن ما هو «جيد إلى حد مقبول» قد صار جيدًا إلى حد مقبول!

يلاحظ نشوء ميل عنده إلى أنواع بعينها من القصص الإخبارية عن رجال في أواسط العمر. كان هناك رجل من غلاسغو رمى بنفسه أمام القطار بعد أن تراكمت عليه ديون ضخمة واكتشفت زوجته أنه على علاقة بامرأة أخرى. وقاد رجل آخر سيارته فهوى بها في البحر بالقرب من آبردين بعد فضيحة على الإنترنت. يستطيع رابح رؤية أن حدوث هذا، في آخر المطاف، لا يتطلّب أمورًا كثيرة: بضعة

أغلاط، لا أكثر، يجد المرء نفسه بعدها واقعًا في كارثة كبرى. بضعة اختلالات في «البوصلة»، مع القدر الكافي من الضغوط الخارجية، ستجعله قادرًا -هو أيضًا- على فعل أي شيء. ليس ما يسمح له باعتبار نفسه عاقلًا إلا نوعًا من حسن الحظ «سريع العطب»؛ لكنه مدرك أنه يمكن بسهولة أن يصير «مطروحًا في سوق المآسي» إذا قررت الحياة اختباره ووضعه في محنة حقيقية.

في تلك الأوقات التي لا يكون فيها رابح مستيقظًا تمامًا ولا نائمًا تمامًا، بل مرتحلًا عبر مساحات الوعي البَينيّة في الساعة الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل، يشعر بمقدار ما يحمله عقله من صور وذكريات شاردة مبعثرة تنتظر أن يقع انتباهه عليها عندما تهدأ بقية الأصوات وتتراجع قليلًا: لمحات من رحلة إلى بانكوك منذ تسع سنين، والمشهد السوريالي لقرى هندية بعد ليلة أمضاها ملتصقًا بنافذة طائرة، وبلاط أرضية الحمام البارد في بيت سكنَتْه أسرته في أثينا، وأول تساقط ثلوج يراه في حياته عندما كانوا في عطلة في شرق سويسرا، والسماء الرمادية الواطئة في نزهة على الأقدام بين الحقول في نورفولك، وممر يفضي إلى بركة سباحة في الجامعة، وليلة أمضاها مع إيثر في المستشفى عندما أجريت لها عملية جراحية في إصبعها. قد يخبو منطق بعض الأشياء، لكن ما من صورة تختفي اختفاء حقيقيًا.

يفكّر أحيانًا في أمّه خلال ليالي سهاده، ويشتاق إليها. يتمنّى بقوة محرِجة أن يعود طفلًا في الثانية من عمره وأن يرقُد متجمّعًا على نفسه تحت بطانية وقد ارتفعت درجة حرارته قليلًا، وأن تجلب له أمه طعامًا وتقرأ له. يتوق إلى أن تطمئنُه أمّه على مستقبله وتُحلّه

من ذنوبه وتمشط شعره وتردّه بأناقة إلى جهة اليسار. على الأقل، صار الآن على قدر كافٍ من النضج لأن يدرك أن هناك شيئًا مهمًّا ينبغي أن يقاوم الرقابة المباشرة الموجودة في هذه الحالات التي يرتدّ إليها. يستطيع رؤية أنه لم يبتعد عن ذلك الزمن كثيرًا، بصرف النظر عن المظاهر الخارجية.

يدرك أن القلق سيظل رفيقًا دائمًا له. قد يبدو أن كل موجة جديدة من موجات القلق تكون متّصلة بهذا الأمر بعينه أو ذاك –الحفلة التي لم يكن يعرف إلا قلة من الحاضرين فيها، والرحلة المعقّدة التي أخذته إلى بلد لا يعرفه، ومشكلة عويصة في العمل– لكنّه ينظر إلى ذلك كلّه نظرة أوسع فيرى أن المشكلة كانت على الدوام أكبر حجمًا وأكثر جوهرية وأعمق ضررًا.

تراءى له في وقت من الأوقات أن من شأن قلقه أن يهدأ إن هو عاش في مكان آخر، أو حقّق بضعة أهداف مهنية، أو إن هو كوّن لنفسه أسرة. لكن أيا من هذا لم يفلح في تغيير شيء. يستطيع أن يرى أنه شخص قلِق في جوهره، في تكوينه الأساسي نفسه: مخلوق مذعور، غير مستقرّ.

في المطبخ صورة يحبها، صورته في الحديقة مع كيرستن وويليام وإيثر في يوم خريفي وهم يتقاذفون أوراق أشجار من كومة جمعتها الريح. البهجة وخلوّ البال ظاهران على وجوههم جميعًا... إنها مُتعة القدرة على إثارة الفوضى من غير عواقب. لكنه يتذكّر أيضًا كم كان مضطربًا في داخله ذلك اليوم. كان هناك شيء في العمل على صلة بشركة هندسية؛ وكان توّاقًا للعودة إلى البيت سريعًا بغية إجراء بعض المكالمات الهاتفية مع عميل في إنكلترا؛

وكانت بطاقته الائتمانية قد تجاوزت كثيرًا الحد المقبول. لا تسنح لرابح فرصة للتمتع بأي أمر إلا بعد أن ينتهي.

وهو مدرك أن زوجته القديرة القوّية ليست أفضل شخص يستطيع أن يسمح لنفسه بأن ينهار عصبيًا بالقرب منه. مرّت به أوقات كان من الممكن فيها أن يشعر بمرارة تجاه هذا الأمر. «الأرق ليس شيئًا جميلًا. ما عليك إلا أن تأتي إلى السرير». هذا كل ما يمكن أن تقوله كيرستن إن استيقظت ورأت المصباح مضاءً في عرينه. لقد علمته حالات مؤلمة كثيرة أن زوجته الجميلة الذكية ليست ممن «يمنحون اطمئنانًا»، لكنه بدأ الآن يفهم السبب (أمر حسن!). هذا ليس لؤمًا منها، بل هو ناتج عن تجربتها مع الرجال وعن دفاعاتها في مواجهة خذلانهم إياها وتركها تعاني وحدها. هذه هي الطريقة التي تعالج بها كيرستن التحدّيات. مفيدٌ أن يرى المرء هذه الأمور: بدأ رابح يبصر أن في الأمر شيئًا غير الغضب والانتقام.

الأشخاص السيئون قلةٌ في هذا العالم. فأولئك الذين يجرحوننا أشخاص يتألّمون. الردّ الصحيح إذًا ليس التهكّم أو العدوانية، بل هو دائمًا الحب، في اللحظات النادرة التي نستطيع ذلك فيها.

والدة كيرستن في المستشفى. وهي هناك منذ أسبوعين اثنين. بدأ الأمر بمشكلة بسيطة في كلوتيها؛ وعلى نحو مفاجئ، صارت التوقّعات أخطر كثيرًا. وكيرستن التي هي شديدة القوة عادةً صارت الآن شاحبة، وصارت ضائعة.

ذهبا يوم الأحد لرؤيتها. كانت في غاية الضعف، ولا تتكلّم إلا بصوت منخفض لكي تطلب أشياء بسيطة: كأس ماء، وإمالة

المصباح قليلًا من أجل تخفيف الإضاءة عن عينيها. وفي لحظة من اللحظات، أمسكت يدها بيد رابح وابتسمت له. قالت: «اعتن بها، من فضلك!»؛ ثم أضافت بأسلوبها اللاذع المعهود: «إذا تركَتْكَ تفعل ذلك». هذا نوع من الغفران!

يعرف أنه لم يكن يومًا موضع رضا السيدة ماكليلاند. كان هذا يسوؤه أول الأمر. وأما الآن، بعد أن صار أبًا، فهو قادر على تفهّمه. وهو بدوره غير مسرور بأن ابنته إيثر سيكون لها زوج في يوم من الأيام. كيف لوالد (أو والدة) أن يرضى بهذا؟ كيف يمكن أن يتوقّع المرء من الوالدين ردة فعل حماسية تجاه مصدرٍ مُنافسٍ جديد للحب بعد ثمانية عشر عامًا، أو نحو ذلك، من تلبية حاجات أطفالهما في كل يوم؟ وكيف يستطيع أي إنسان أن يؤدّي صادقًا تلك القفزة العاطفية التي لا مناص منها من غير أن يخامرَ قلبه شك (فيعبّر عن ذلك من خلال سلسلة من عبارات وملاحظات مرّة أو لاذعة) في أن طفلته، أو طفله، قد أخطأت فوقعت في براثن شخص غير مؤهل أبدًا لهذه المهمة المعقَّدة الفريدة، مهمة رعايتها؟

تبكي كيرستن من غير توقّف بعد زيارتهما الأولى لمستشفى ريغمور. وعندما يعودان إلى البيت، ترسل الطفلين لكي يلعبا مع أصدقائهما. هي الآن غير قادرة على أن تكون أمًا (الأم التي تحاول ألّا تترك الذعر يدب في قلب أطفالها عندما تفصح عن ألمها). ما أحوجها الآن إلى أن تكون طفلة من جديد... بعض الوقت!

هي غير قادرة على تجاوز ذُعرها لرؤية أمها شاحبة مهزولة على فراش المستشفى الأزرق. كيف يمكن أن يحدث هذا؟ لا تزال كيرستن -على مستوى من المستويات- شديدة الارتباط

بانطباع تكوّن لديها في الخامسة أو السادسة من عمرها، انطباعٌ بأن أمها إنسانة قوية، قديرة، ممسكة بزمام كل شيء. كانت كيرستن بنتًا صغيرة يُقذف بها عاليًا في الهواء ويقال لها ما سوف يحدث قبل حدوثه. كانت تعيش حنينًا وتوقًا إلى هذه السلطة المرجعية في السنوات التي أعقبت رحيل أبيها. تعلّمت المرأتان، الصغيرة والكبيرة، كيف تظلّان معًا؛ وكانتا فريقًا واحدًا منخرطًا في أفضل نوع من أنواع التواطؤ. والآن، تجد كيرستن نفسها، من جديد، واقفة في ممر مستشفى ريغمور تسأل طبيبًا صغير السن إلى حد مقلق عن عدد الشهور الباقية لأمّها. لقد انقلب العالم رأسًا على عقب.

يبدأ منذ طفولتنا اعتقادنا بأن لدى الوالدين نوعًا من المعرفة والخبرة الفائقَيْن. ولفترة من الزمن، يبدوان قديرين إلى حدٍّ مدهش. إن هذا التقدير المبالغ فيه أمرٌ مثير للمشاعر، لكنه إشكالي إلى حد كبير. وهذا لأنه يجعلهما هدفين مؤكّدين للومنا عندما نكتشف شيئًا فشيئًا أنهما شخصان غير كاملين، وأنها غير لطيفين أحيانًا، وأنهما جاهلان في بعض الأمور وغير قادرين أبدًا على إنقاذنا من بعض المشكلات والمتاعب التي نقع فيها. وقد يمر حينٌ من الزمن- حتى العقد الرابع من العمر، أو حتى يصير الوالدان على فراش الموت- قبل أن يظهر لدينا موقف أكثر تسامحًا. إن حالتهما الجديدة، حالة الهشاشة والخوف، تكشف لنا على نحو مادي لا جدال فيه شيئًا كان صحيحًا على الدوام من الناحية الفيزيولوجية: إنهما مخلوقان ضعيفان غير واثقين يتحرّكان بدافع من القلق والخوف والحب المرتبك

والدوافع اللاواعية أكثر مما يحركهما نقاء أخلاقي وحكمة شبه إلهية، ومن هنا، لا يجوز تحميلهما مسؤولية أبدية عن نواقصهما الشخصية ولا عن خيباتنا الكثيرة.

في هذه اللحظات، عندما يستطيع رابح أخيرًا أن يتحرّر من أناه، لا يعود عدد من يمكن أن تشملهم قدرته على الصفح مقتصرًا على واحد أو اثنين. بل يمكن أن تصل به الحال إلى عدم بقاء كائن بشري واحد خارج دائرة تعاطفه.

يرى الطيبة والصلاح في أماكن غير متوقّعة. وتثير مشاعره النزعة الخيّرة التي يراها لدى مديرة المكتب... أرملة في أواسط العقد السادس التحق ابنها بجامعة ليدز منذ فترة بسيطة. إنها امرأة قوية بشوش: هذا إنجاز استثنائي تقدّمه في كل ساعة عمل من كل يوم عمل. تحرص على سؤال العاملين جميعًا عن أحوالهم. تتذكّر أعياد الميلاد، وتملأ الدقائق الخالية من العمل بتأمّلات وعبارات مشجعة ولطيفة دائمًا. لو كان أصغر سنًا، لما انتبه إلى هذا التعبير البسيط عن الكياسة؛ لكنه الآن رجل عركته الحياة إلى حدٍّ جعله يعرف كيف ينحني ويلتقط أصغر النِّعم مهما يكن مصدرها. لقد صار ألطف قليلًا من ذي قبل... من غير أن يحاول ذلك، ومن غير أن يأخذه العجبُ بنفسه.

صار أكثر استعدادًا لأن يكون كريمًا نتيجة إحساسه بمدى حاجته إلى إحسان الآخرين. عندما يكون الآخرون هجوميين، يصير رابح أكثر انتباهًا إلى الظروف المخفّفة وإلى أية حقائق، مهما صغرت، يمكن أن تكون عذرًا أخلاقيًا للشرّ وسوء المسلك. ما أسهل التهكّم والسخرية!... لكنهما لا يصلان بالمرء إلى شيء.

ولأول مرة في حياته، يصير منتبهًا إلى جمال الأزهار. يتذكّر أنه كان يكرهها، تقريبًا، في مراهقته. وكان يبدو له سخيفًا استمتاع أي شخص بشيء صغير إلى هذا الحد، زائل إلى هذا الحد، على الرغم من وجود أشياء من المؤكّد أنها أعظم وأكثر دوامًا يستطيع المرء أن يكون طامحًا إليها. كان ممن يرومون المجد والقوة. وأما أن يقع المرء أسير جمال زهرة، فهذا دليل على تخلٍّ خطير عن أي طموح. لكنه بدأ يفهم الأمر الآن. حب الأزهار نتيجة من نتائج التواضع وتوطين النفس على الخيبات. ولا بد من أن تتّخذ الأمور، أو بعضها، وجهة خاطئة مستمرة قبل أن نصير قادرين على الإعجاب بساق وردة أو ببتلات زهرة برية. لكن، ما أعظم إعجابنا عندما نلتفت إلى هذه الجُزر الصغيرة من البهجة والكمال الخالص بعد أن نصير مدركين أن لا بد لنا دائمًا من التنازل عن بعض أحلامنا الكبيرة، بطريقة أو بأخرى.

ليست حياته إلا خيبة عميقة إن هي قيست ببعض مُثُل النجاح ونماذجه. لكنه صار الآن عارفًا أن القدرة على رؤية الفشل وتحديده ليست إنجازًا عظيمًا في حد ذاتها إن توقف المرء عند هذا الحد. فهناك جرأة في قدرة المرء على التوصّل إلى أن يرى حياته بعين الأمل والصفح، وفي معرفته كيف يخشى نفسه، وذلك لأن عليه مسؤولية تجاه الآخرين لا بد له من الاضطلاع بها.

يدخل أحيانًا، في منتصف الليل، فيستحم بماء حار وينظر إلى جسده في ضوء مصباح الحمام الساطع. إن التقدّم في السن يشبه قليلًا أن يبدو المرء مرهَقًا. لكنه إرهاق لا يستطيع أي قدر من النوم أن يصلحه. يزداد ذلك قليلًا مع كل سنة تمر. صورة اليوم التي يقول

عنها صاحبها إنها صورة سيئة ستبدو له جيدة في العام القادم. لكن حيلة الطبيعة اللطيفة كامنة في أنها تجعل كل شيء يحدث على نحو شديد البطء حتى لا يصيبنا الذعر مثلما ينبغي له أن يصيبنا. ستظهر بقع الشيخوخة على يديه في يوم من الأيام، بقعٌ كتلك التي كان يراها في طفولته عند أعمام تقدّمت بهم السن. سيحدث له كل ما حدث للآخرين. لا يفلت أحد من هذا.

إنه مجموعة من الخلايا والنُّسج المجتمعة معًا اجتماعًا دقيقًا متداخلًا جعلها قادرة على الحياة برهةً فحسب. ولن يقتضي الأمر أكثر من اصطدام قوي، أو سقوط، حتى تفقد حياتها من جديد. إن جدية خططه كلّها معتمدة على استمرار تدفّق الدم إلى دماغه عبر شبكة سريعة العطب من الأوعية الدموية. فإذا أصاب أيًا من هذا إخفاقٌ، حتى إن كان إخفاقًا صغيرًا، فسوف يُمحى فورًا هذا الإحساس الواهي بالحياة الذي بدأ يتوصّل إليه. هو ليس أكثر من تجمّع طارئ لذرّات قرّرت أن تقاوم الإنتروبيا، ذلك الميل الدائم إلى التفكك والفوضى، وأن تبقى في الأبد الكوني بضع لحظات أخرى. يتساءل في نفسه عن ذلك العضو من أعضاء جسده الذي سيفشل قبل غيره.

هو ليس أكثر من زائر قد أفلح في الخلط بين نفسه والعالم. لقد افترَض أنه موضوع مستقرٌ وثابت جديد مثل مدينة إدنبره، أو مثل شجرة، أو مثل كتاب؛ لكن الحقيقة هي أنه أشبه بظلٍّ أو بصوت.

لن يكون الموت أمرًا سيئًا جدًا... هذا ما يظنه: سوف يُعاد توزيع أجزائه المكوِّنة، ثم ترجعُ إلى الحياة. لقد صارت حياته طويلة بالفعل، وسرعان ما يأتي وقت التخلّي عنها وتركها (في لحظة صار الآن قادرًا على حدس معالمها) وتجريب أمور أخرى.

يعود إلى البيت ذات مساء، ويمر بالشوارع المظلمة فيرى محلًا

لبيع الأزهار. لا شك في أنه مرّ بهذا المحلّ مرات كثيرة، بل كثيرة جدًّا، لكنه لم يوله أي انتباه قبل الآن. واجهة المحلّ ساطعة الإنارة، مزدحمة بأزهار وورود متنوّعة كثيرة. يدخل المحل فتستقبله بابتسامة دافئة امرأة بلغت سن الكهولة. تنشدّ عيناه إلى أول أزهار الربيع الذي بدأ يحل مترددًا: زهرة الثلج. ينظر إلى يدي المرأة تلفان الباقة الصغيرة بورق أنيق أبيض اللون.

تبتسم له وتقول: «أظنك تريد تقديمها إلى امرأة جميلة».

يجيبها: «إنها زوجتي».

«يا لها من امرأة محظوظة». تقول له هذا وهي تناوله الأزهار وبقية النقود. يأمل أن يصل إلى البيت وأن يبرهن -بهذه المناسبة- على صدق ظن بائعة الأزهار.

مستعد للزواج

هما متزوجان منذ ستة عشر عامًا، لكنه يشعر الآن -متأخرًا بعض الشيء- بأنه صار مستعدًا للزواج. قد يبدو هذا مفارقة كبيرة، لكنه ليس كذلك. فبما أن الزواج لا يهب دروسه المهمة إلا لمن انتسبوا إلى مدرسته، فمن الطبيعي أن يأتي الاستعداد للزواج لاحقًا عليه لا سابقًا له. قد يتأخر عنه عقدًا من السنين، أو عقدين اثنين!

يدرك رابح أن ما يسمح له بالقول إنه لم يتزوج إلا مرة واحدة فقط ليس إلا نوعًا من خدعة لغوية. فما كان يبدو -على نحو مقنع- أشبه بزواج واحد، قد مرّ بتطوّرات وانقطاعات وفترات بُعدٍ وتفاوض وعودات عاطفية كثيرة جدًا، بل كثيرة إلى حدٍّ يسمح بالقول إنه مر بأكثر من عشر حالات طلاق وإعادة زواج، لكن من المرأة نفسها دائمًا.

إنه الآن في رحلة طويلة بالسيارة إلى مانشستر من أجل لقاء أحد عملاء الشركة فيها. هذا أفضل مكان يستطيع التفكير فيه، فهو في السيارة، في ساعة مبكرة جدًّا من ساعات الصباح، والطرق شبه خالية، وما من أحد يكلمه غير نفسه.

في وقت من الأوقات، كانوا يعتبرونك جاهزًا للزواج عندما تُحرز وضعًا متعارفًا عليه من الناحيتين المالية والاجتماعية: عندما يصير لك بيت باسمك، وجهاز

عروس كامل، ومجموعة شهادات على رفّ الموقد، أو بضع بقرات ورقعة أرض تزرعها.

ثم لم تلبث هذه التفاصيل أن صارت معتبرةً -بتأثير من الإيديولوجية الرومانسية- إفراطًا في الجشع والنزوع المادي. وانتقل التركيز إلى الخصائص العاطفية والشعورية. صاروا يعتبرون أن ما يهم حقًّا هو وجود المشاعر الصحيحة. ومن تلك المشاعر إحساس بأنك عثرت على «شقيق الروح»، والإيمان بأنه شخص يفهمك فهمًا تامًّا، والثقة بأنك لن ترغب أبدًا في مضاجعة شخص غيره بعد ذلك.

يدرك رابح الآن أن الأفكار الرومانسية ليست إلا وصفة لكارثة محقّقة. فاستعداده الجديد للزواج قائم على مجموعة معايير مختلفة اختلافًا تامًّا. إنه مستعد للزواج لأنه -ولنبدأ بهذا أولًا- تخلّى عن طلبِ الكمال.

اعتبار الحبيب «كاملًا» لا يمكن إلا أن يكون دليلًا على فشلنا في فهمه. فنحن غير قادرين على الزعم بأننا بدأنا نعرف شخصًا إلا بعد أن يخيّبَ ذلك الشخص أملنا تخييبًا عميقًا.

إلا أن المشكلات غير مقتصرة على هذين الاثنين. فأي شخص يمكن أن نلتقيه سيكون غير كامل إلى حدٍّ كبيرٍ: الغريب الذي نلتقيه في القطار، وزميل الدراسة القديم، وصديق جديد على الإنترنت... أمر مضمون تمامًا أن كل واحد من أولئك الأشخاص سوف يخذلنا. إن

حقائق الحياة ومُجرياتها تشوّه طبائعنا كلّها. لا يخرج أيٌّ منا سليمًا من غير أذًى. فالتنشئة التي نتلقّاها من أهلنا جميعًا هي (بالضرورة) تنشئة غير مثالية.

نحن نقاتل بدلًا من أن نوضح ونشرح؛ ونحن نكرر الكلام إلى حدٍّ مزعجٍ بدلًا من أن نعلّم؛ ونحن نقلق بدلًا من أن نحلل مخاوفنا؛ ونحن نكذب ونلقي باللوم على من لا يستحقه.

إن فرص خروج الإنسان سليمًا وكاملًا من ذلك التحدّي الخطير غير موجودة أبدًا. لسنا في حاجة إلى معرفة شخص غريب عنا معرفة جيدة جدًا قبل أن نرى هذا الأمر فيه. لن تكون واضحة لنا على الفور طريقته الخاصّة في أن يكون شخصًا يثير جنوننا (قد يقتضي الأمر زمنًا لا يقل عن سنتين)، لكن وجود ذلك الأمر لديه قابلٌ للافتراض النظري منذ البداية.

من هنا، فإن اختيار من نتزوَّجه ليس إلا مسألة تقرير نوع المعاناة الذي نجد أنفسنا راغبين في تحمّله، وليس تخيُّل أننا اهتدينا إلى سبيلٍ التفافيٍّ يُعفينا من الاصطدام بقواعد الوجود العاطفي. سينتهي الأمر بنا جميعا- بالضرورة- إلى رؤية تلك الشخصية القابعة في كوابيسنا: «اتضح أنه الشخص الخاطئ».

إلا أن هذا الأمر ليس كارثة على الإطلاق. وهذا لأن تشاؤمَ الرومانسية المستنيرة يَفترِضُ أن شخصًا واحدًا لا يستطيع أن يكون كل شيء بالنسبة إلى شخص آخر. علينا أن نلتمس سبُلًا لجعل أنفسنا تتلاءم، بألطف وأرقّ

طريقة ممكنة، مع الحقائق الواقعية الصعبة الناجمة عن العيش مع إنسان «خاطئ» مثلنا. لا يمكن أبدًا لأي زواج أن يكون أكثر من «زواج جيّد إلى حدٍّ مقبول».

ومما يساهم في استقرار هذا الأمر في عقل المرء أن يكون له بضعة عشاق قبل أن يستقر. ليس الهدف من هذا أن يحظى بفرصة «العثور على الشخص الصحيح»، بل أن يحظى بفرصة كافية لأن يكتشف، بتجربته الخاصّة وضمن سياقات مختلفة كثيرة، حقيقة أنه لا وجود لأحد يمكن اعتباره «الشخص الصحيح»، وكذلك لأن يكتشف أن كل إنسان لا بد أن يكون «غير مناسب» قليلًا عند تفحّصه عن قرب.

يشعر رابح بأنه مستعد للزواج لأنه نفض يده من إمكانية أن يفهمه أحد فهمًا تامًا.

يبدأ الحب بأن يعيش المرء تجربة كونه مفهومًا بطرق مشجّعة جدًّا لم يألفها. تلامس هذه الطرق أجزاءنا التي تشعر بالوحدة، فلا يكون علينا أن نشرح ما يجعلنا نضحك معًا لهذه النكتة تحديدا، وما يجعلنا نكره الأشخاص أنفسهم، وكذلك ما يجعل كلًا منا راغبًا في تجربة ممارسة الجنس بطريقة غريبة نوعًا ما.
لكن هذا غير قابل للاستمرار. فعندما نصل إلى الحدود المنطقية لقدرة الحبيب على فهمنا، لا يجوز لنا أن نلومه (أو أن نلومها) على تقصيره. ليس الحبيب غير مناسب إلى ذلك الحد المأساوي. هو غير قادر على سبرنا سبرًا

كاملًا، ولا نحن قادرون على سبره. هذا أمر طبيعي، فما من أحد قادر على الوصول إلى فهمٍ كاملٍ لشخصٍ آخر ولا على التعاطف معه تعاطفًا كاملًا.

يشعر رابح بأنه مستعد للزواج لإدراكه أنه شخص مجنون.

مما يخالف الإدراك المعتاد مخالفة عميقة أن يرى المرء نفسه مجنونًا. نبدو طبيعيين تمامًا؛ ونبدو جيدين أيضًا، معظم الأحيان، لكننا نبدو هكذا في نظر أنفسنا! ودائمًا، يكون الخلل موجودًا لدى شخص آخر غيرنا. إلا أن النضج يبدأ بقدرة المرء على الإحساس (في الأوقات الطيبة ومن غير ظهور النزعة الدفاعية) بأنه مجنون واعترافه بذلك. إذا لم نكن نشعر، تكرارًا، بحرَجٍ عميق من طبائع أنفسنا، فهذا يعني أن رحلتنا إلى معرفة أنفسنا لم تبدأ بعد.

رابح مستعدّ للزواج لأنه يفهم أن كيرستن ليست هي الطرف الذي يصعب التعامل معه.

بطبيعة الحال، يبدو الشريك «صعبًا» ضمن قفص الزوجية، أي عندما يفقد أعصابه إزاء أمور صغيرة جدًا: تأمين مستلزمات البيت، والعلاقة مع أقارب الشريك الآخر، وبرامج التنظيف، والحفلات، ومشتريات البقالة... لكن هذا كلّه ليس ذنب الشخص الآخر، بل هو ذنب ما نحاول فعله له. مؤسّسة الزواج هي الشيء المستحيل من حيث المبدأ، وليس الأفراد الذين يدخلونها.

رابح مستعدٌّ للزواج لأنه مستعدٌّ لأن يُحِب، لا أن يُحَب.

نتكلّم على «الحب» كأنه شيء مفرد لا تباينات فيه؛ لكنه يضم نمطين مختلفين اختلافًا كبيرًا: أن تُحِب وأن تُحَب. علينا أن نتزوج عندما نكون مستعدين لأن نُحِب. وعندما نصير مدركين شدة تركيزنا الخطير وغير الطبيعي على أن نُحَب.
نحن نبدأ الأمر كله منطلقين فقط من معرفتنا بأننا نريد أن «نُحَب». والظاهر أن هذا هو النمط السائد، (مع أنه غير صحيح). ففي وضع الطفل، يبدو الأبوان كأنهما موجودان دائمًا تحت الطلب حتى يريحاه ويوجهاه ويسلّياه ويطعماه وينظفا البيت، مع بقائهما -في كل وقت تقريبًا- مبتهجين ودافئين تجاهه.
ونحن نحمل هذه الفكرة عن الحب معنا إلى مرحلة النضج. نصير كبارًا، ونأمل في إعادة خلق ذلك الشيء الذي نحسّ بأننا ألِفناه وألِفنا ما يقدّمه إلينا من رعاية ودلال. وفي ركنٍ خفيٍّ في عقلنا، نتصوّر حبيبًا قادرًا على توقّع احتياجاتنا وقراءة قلوبنا والتصرّف معنا بكل إنكار للذات وجعل كل شيء في حياتنا أفضل حالًا. يبدو هذا مشروعًا «رومانسيًا»، لكنه مشروع كارثة.

رابح مستعدٌّ للزواج لأنه صار مدرِكًا الصعوبة الدائمة لتعايش الجنس مع الحب.

تتوقّع النظرة الرومانسية أن يسير الحب والجنس يدًا بيد. إلا أننا لا نكون مستعدين فعلًا للزواج إلا عندما نكون أقوياء إلى حدٍّ يسمح لنا بقبول حياة من الإحباط.

لا بد لنا من قبول أن الخيانة الزوجية لا يمكن أن تكون حلًا ناجعًا لأن ما من أحد يقع ضحية لها من غير أن يشعر، إلى الأبد، بجرح عميق جدًا. إن لمغامرة وحيدة لا معنى لها نزوعًا حقيقيًا متكرّرًا إلى أن تقضي على كل شيء. يستحيل على ضحايا الخيانة الزوجية قبول وتفهّم ما لعله كان يدور فعلًا في عقل الشريك أثناء إقدامه على «خيانته» عندما كان راقدًا في الفراش بضع ساعات مع طرف ثالث غريب. في وسعنا أن نسمع دفاع الشريك عن نفسه قدر ما نشاء سماعه. لكننا سنكون واثقين من شيء واحد نحسّه في قرارة قلوبنا: لقد عقد الشريك العزم على إهانتنا، وقد تبخّرت كل ذرة من حبه لنا وتبخر معها اعتبارنا له إنسانًا جديرًا بثقتنا. ولا يكون الإصرار على الوصول إلى شيء آخر إلا كمثل محاولة الوقوف في وجه المد.

إنه مستعد للزواج لأنه يكون سعيدًا (عندما تسير الأمور سيرًا حسنًا) بأن يعلَّم ولأنه يكون هادئًا عندما يعلِّم.

نكون مستعدين للزواج عندما نقبل فكرة أن الشريك أكثر منا حكمة في عدد من المجالات المهمة، وأنه أكثر منطقية وأكثر نضجًا. ينبغي أن نكون راغبين في التعلم منه. وعلينا أن نتحمل أن يشير علينا في بعض الأمور. وفي لحظات أخرى، علينا أن نكون مستعدّين لتكييف أنفسنا بحيث نكون معلّمين جيدين ونقدّم مقترحاتنا من غير صياح ومن غير أن نتوقّع من الآخر «أن يكون

عارفًا». فقط عندما نكون كاملين نستطيع أن نشعر بأنه لا ينقصنا شيء وبأن من الجائز لنا أن نسقط فكرة التعليم المتبادل باعتبارها ابتعادًا عن الحب.

رابح وكيرستن مستعدَّين لأن يكونا متزوّجين، لأنهما مدركان، في أعماقهما، أنهما غير متوافقين.

تشدّد الرؤية الرومانسية للزواج على أهمية العثور على الشخص «الصحيح». ويُفهم هذا بمعنى أن يكون الشريك شخصًا متّفقًا مع جملة ما لدينا من اهتمامات وقيَم. لا وجود لهذا الشخص على المدى البعيد. نحن بشر متنوعون وفريدون إلى حدٍّ بعيدٍ. ولا إمكانية لوجود تطابق دائم. فليس الشريك الأنسب لنا حقًا هو من تشاء المصادفة (بفعل أعجوبة من الأعاجيب) أن يشاركنا كل ميل وهوى، بل هو من يستطيع التعامل مع الميول تعاملًا ذكيًا وراضيًا.
وبدلًا من فكرة واهنة عن التكامل التام، فإن القدرة على قبول اللاتماثل قبولًا متسامحًا هي ما يشير إلى الشخص «الصحيح». التوافق أمر ينجزه الحب، وليس شرطًا يسبقه.

رابح مستعدٌّ للزواج لأنه ضاق ذرعًا بأكثر قصص الحب، ولأنه ضاق ذرعًا بأنّ نُسخ الحب التي تقدّمها الأفلام والروايات نادرًا ما توافق مع يعرفه الآن من تجربته التي عاشها.

بمقتضى المعايير التي نراها في أكثر قصص الحب، تكاد

تكون العلاقات الحقيقية الخاصّة بنا معطوبة كلّها، وغير مرضية. ولا عجب إذًا في أن تبدو حالات الانفصال والطلاق محتومة أكثر الأحيان. لكن علينا أن نحاذر الحكم على علاقاتنا انطلاقًا من التوقّعات التي تفرضها علينا تلك المنتجات الفنية التي تكون مضللة في أحيان كثيرة. فالخلل موجود في الفن، لا في الحياة. بدلًا من الانفصال، قد يكون علينا أن نحكي لأنفسنا قصصًا أكثر صحّة... قصصًا لا تفرِط في الاعتماد على نقطة البداية، ولا تعدنا بالفهم التام، بل تسعى إلى جعل مشكلاتنا أمرًا طبيعيًا وإلى جعلنا نرى سبيلًا عبر مدرسة الحب قد يكون كئيبًا لكنه مفعم بالأمل.

مكتبة
t.me/t_pdf

المستقبل

إنه عيد ميلاد كيرستن. يرتّب رابح لأن يقضيا ليلتهما في فندق باذخ غالي الثمن في هايلاندز. يوصلان الطفلين إلى بيت ابنة خالتها في فورت ويليام، ثم يتابعان الطريق إلى تلك القلعة من القرن التاسع عشر. تعدهما القلعة (الفندق) بأسوار، وتحصينات، وخمسة نجوم، وصالة بيليارد، ومطعم فرنسي، وأشباح.

يعبّر الطفلان تعبيرًا واضحًا عن عدم سرورهما بهذه الخطوة. تتّهم إيثر أباها بأنه يُفسِد عيد ميلاد أمّها. وتقول بكل إصرار: «أعرف تمامًا أن الضجر سيصيبكما لأننا لسنا معكما. وأعرف أن ماما ستشتاق إليَّ. لا أظنه أمرًا جيدًا أن تغيبا هذه المدّة كلّها (سوف يلتقون كلّهم من جديد بعد ظهر اليوم التالي)». لكن ويليام يطمئن أخته إلى أن والديهما سيظلّان قادرَين دائمًا على متابعة التلفزيون وسيجدان في الفندق صالة مزودة بألعاب الكمبيوتر.

غرفتهما في برج في أعلى المبنى. حوض استحمام ضخم في الوسط. ونوافذ مطلّة على سلسلة قمم جبلية تعلوها كلّها قمة جبل «بِنيفيس» التي لا تزال عليها في شهر حزيران طبقة ثلج رقيقة.

يشعر كلٌّ منهما بقدر من الغرابة في حضور الآخر بعد أن يضع عامل الفندق الشاب أمتعتهما في الغرفة وينصرف. لقد مرت سنوات، سنوات كثيرة، منذ أن كانا معًا في فندق من غير طفليهما

ومن غير أن يكون لديهما شيء بعينه يفعلانه على امتداد أربع وعشرين ساعة.

يبدو لهما الأمر كأنهما شخصان بينهما علاقة غرامية، ويتصرّف كل منهما مع الآخر -في هذا الوضع- بطريقة مختلفة كثيرًا عما ألفاه. تجعلهما فخامة الغرفة الواسعة مرتفعة السقف وهدوؤها أكثر رسمية واحترامًا. تسأل كيرستن زوجها باهتمام غير مألوف عما يحب أن يطلبانه من قائمة خدمة الغرف؛ وأما هو فيُحضّر لها الحمام.

قد لا يكون الحلّ كامنًا في بدء حياة جديدة، بل في تعلُّم النظر إلى الحياة القديمة بعينين أقل سأمًا واعتيادًا.

يستلقي على السرير وينظر إليها وهي مستلقية في حوض الاستحمام. شعرها مرفوع؛ وهي تقرأ مجلة. يشعر بالأسف وبالذنب تجاه المشكلات التي سببها كل منهما للآخر. ينظر إلى مجموعة نشرات دعائية أخذها من مكتب الاستقبال في الفندق. يعرضون رحلة صيد في شهر أيلول، وبضعة خيارات لاصطياد أسماك السلمون في شهر شباط. عندما تنتهي من الاستحمام، تنهض من الحوض ساترة ثدييها بذراعيها. يتأثر رابح بتحفظها، ويُستثار قليلًا.

ينزلان إلى المطعم لتناول العشاء. شموع تنير المطعم، وظهور كراسيه مرتفعة، وقرونُ وعولٍ معلّقة على الجدران. يصِفُ كبير النُّدل لهما قائمة طعام من ستة أطباق، يصفها بطريقة منمّقة إلى حد السخف، يدهشهما اكتشاف أنهما مستمتعان بها كثيرًا. لكنّهما صار

الآن على معرفة وافية بمنغصات الحياة المنزلية فلا يرفضان فرصة التمتّع بهذه الضيافة المتقنة المترفة.

يكون أول الحديث بينهما عن الطفلين، وعن أصدقاء كل منهما في عمله. وبعد ذلك، بعد الطبق الثالث -لحم الغزال فوق طبقة من الكرفس المخفوق- ينتقلان إلى ميدان لم يألفا تناوله كثيرًا وهو طموحها المكبوت للعودة إلى العزف على آلة موسيقية ورغبته في دعوتها لزيارة بيروت. بل إن كيرستن تبدأ آخر الأمر بالحديث عن والدها. تقول له إنها تتساءل كلما وجدت نفسها في مكان جديد عن احتمال أن يكون أبوها مقيمًا في الجوار. لديها رغبة في التواصل معه. تلمع في عينيها دموعٌ تحبسها، وتقول إنها تعبت من كونها غاضبة منه، ولا تريد أن تظل هكذا طيلة حياتها. لو أنها كانت مكانه فلعلّها ستفعل ما فعله... تقريبًا. تتمنّى أن يعرف أبوها حفيديه، وأن يعرف (تقول هذا مبتسمة) زوجها الشرق أوسطي المتميز والفظيع.

يطلب رابح زجاجة نبيذ فرنسي باهظة الثمن إلى حد مجنون يكاد يساوي تكلفة الغرفة نفسها. يبدأ ظهور أثر النبيذ عليه. يريد أن يطلب زجاجة ثانية، وليكن ما يكون. يشعر بالدور النفسي والأخلاقي الذي يلعبه النبيذ، وبقدراته على فتح قنوات للإحساس والتواصل لم تكن مفتوحة قبل ذلك -لا لكي يتيح هربًا من الصعوبات فحسب، بل لكي يتيح طريقًا إلى مشاعر تظلمها الحياة اليومية ولا تترك لها مكانًا-. لم يشعر بحاجة إلى السُّكر منذ زمن بعيد.

يدرك أنه لا يزال لديه الكثير مما لا يعرفه عن زوجته. تبدو كأنها

غريبة بالنسبة إليه. يتخيّل أن هذا موعدهما الغرامي الأول، وأنها قبلت أن تأتي معه وتضاجعه في هذه القلعة الاسكوتلندية. تركت وراءها أطفالها وزوجها الفظيع. تمسّه من تحت الطاولة وتنظر إليه بعينيها الذكيتين المتشكّكتين، وتهرق بضع نقاط من نبيذها على مفرش الطاولة.

ما أشد امتنانه للندل ذوي البدلات السوداء، وللخروف الذي هو من إنتاج محلي... خروف مات من أجلهما، وكذلك للحلوى ثلاثية الطبقات المغلّفة بالشوكولاته السائلة، وللبيتيفور وشاي البابونج، لأن هذه الأشياء كلّها تتعاون معًا على خلق بيئة مناسبة تسمح بإظهار كل ما في زوجته من غموض وسحر.

إن زوجته لا تجيد تلقّي الإطراء، بالطبع. لكنه صار يعرف هذا، ويعرف المصدر الذي يأتي منه كلّه، المصدر الذي تأتي منه استقلاليتها ويأتي منه تحفُّظها... صفتان حيرتاه وأحبطتاه مرات كثيرة في الماضي، لكنهما لن تفعلا ذلك في المستقبل. يمضي في سبيله على الرغم من ذلك، ويقول لها إنها تبدو في غاية الجمال وإن عينيها ذكيتان كثيرًا، وإنه شديد الاعتزاز بها وشديد الأسف لكل ما جرى. لكنها لا تصدّ كلماته بواحدة من عباراتها الرصينة المعتادة، بل تبتسم له ابتسامة عريضة، ابتسامة متّسعة دافئة. تشكره، وتضغط على يده، بل لعل دموعها توشك على الانسياب مرة أخرى لولا قدوم النادل وسؤاله إن كانت المدام تريد أن تطلب شيئًا آخر. تجيبه متلعثمة قليلًا جدًا: «لا أريد إلا مزيدًا من الجمال»، ثم تتدارك نفسها وتصمت.

يصعد النبيذ إلى رأسها أيضًا، ويجعلها شجاعة... يجعلها شجاعة إلى الحد الكافي لأن تكون ضعيفة. تشعر كأن سدًّا قد انهار في داخلها. لقد اكتفت من مقاومته، وصارت راغبة في أن تهبه نفسها من جديد مثلما فعلت مرةً في ما مضى. تعرف أنها ستنجو مهما حدث. لقد تجاوزتْ منذ زمن بعيد المرحلة التي كانت فيها فتاة صغيرة. إنها امرأة دفنت أمَّها في مقبرة تومناهوريتش ذات التربة الطينية، وأتت إلى هذا العالم بطفلين. لقد صنعتْ صبيًا وباتت عارفة كيف يكون الرجل قبل أن يصير في موقع يمكنه من إيقاع الأذى بامرأة. تعرف أن أكثر شرِّ الرجال ليس إلّا خوفًا. ومن موقع القوّة الذي عثرت عليه مؤخرًا، تشعر بالكرم والتسامح إزاء ضعفهم الجارح.

«آسفة، يا سيد صْفُوف، لأنني لم أكن دائمًا مثلما أردتني أن أكون».

يداعب ذراعها ويقول: «لكنك كنت أكثر من ذلك كثيرًا».

يغمرهما شعور مدوِّخ بالإخلاص لما بنياه معًا: زواجهما الجميل، السخيف، الممتلئ ضحكًا، الممتلئ نكدًا، الممتلئ نزاعات؛ زواجهما الذي يحبّانه حبًّا أكيدًا ومؤلمًا لأنه لهما وحدهما. لديهما اعتزاز بأنهما استطاعا اجتياز هذه المسافة كلّها، وحفظا ذلك الزواج، وبأنهما يحاولان مرة بعد مرة أن يفهم كل منهما ما يصيب الآخر من جنون، ويعقدان اتفاقات السلام واحدًا بعد آخر. كان ممكنًا وجود أسباب كثيرة جدًا تجعلهما لا يبقيان معًا حتى الآن. وكان أمرًا طبيعيًا، بل شبه مستحيل تجنبه، أن ينفصلا.

لكن بقاءهما معًا هو إنجازهما الغريب، المتميّز. وهما يشعران الآن بالولاء لحبهما الذي عصفت به تلك المعارك كلها وجعلته أصلب عودًا.

وعندما يعودان إلى غرفتهما ويصيران في السرير، يحنو على العلامات التي خلّفها حملها بالطفلين على بطنها، فكم آلمتها ومزّقتها واستنفدتها أنانيتهما البريئة. تلاحظ فيه رقّة ونعومة جديدتين عليه. المطر غزير في الخارج؛ والريح تصفر بين الأسوار. وعندما ينتهيان، يقفان عند النافذة متعانقين، ويشربان ماء معدنيًا محليًا على ضوء مصباح الساحة في الأسفل.

يحمل هذا الفندق أهمية متيافيزيقية في نظرهما. ولن يبقى أثر إقامتهما فيه مقتصرًا على هذا المكان الغريب، بل سيحملان معهما دروسًا إلى عالم حياتهما اليومية الأكثر بساطة وبرودة. سيحملان تلك الدروس محتفيَين بها ومتصالحين معها.

تجلب ابنة خالة كيرستن الطفلين بعد ظهر اليوم التالي. يجري ويليام وإيثر لملاقاة أبيهما وأمهما في صالة البيليارد القريبة من مكتب الاستقبال. إيثر تحمل دوبي معها. والوالدان كلاهما يعانينان صداعًا كأنهما وصلا الآن من رحلة طويلة بالطائرة.

يتذمّر الطفلان بأشد العبارات من تركهما كأنهما يتيمان، ومن إرغامهما على النوم في غرفة فائحة برائحة الكلاب. يطلبان وعدًا قاطعًا بأن هذه الرحلة لن تتكرّر أبدًا. ثم ينطلق أربعتهم، كما كان مخطّطًا، في نزهة على الأقدام. يسيرون مع النهر برهة، ثم يصعدون سفح جبل بنيفيس. يخرجون من الغابة بعد نصف ساعة فتنبسط

أمامهم مساحات ممتدة أميالًا تحت شمس الصيف. وفي الأسفل، يرون الأغنام ترعى وبيوت المزارع تبدو صغيرة كأنها ألعاب.

يجلسون وسط رقعة من أزهار الخلنج. تخلع إيثر حذاءها وتجري على امتداد جدول مائي. سوف تكون امرأة بعد بضع سنوات، وسوف تبدأ الحكاية كلّها من جديد. يلاحق ويليام درب نمل حتى يعثر على وكره. هذا أكثر أيام السنة دفئًا حتى الآن. يستلقي رابح على الأرض باسطًا ذراعيه، وتتابع عيناه حركة غيوم غير منذرة بالخطر سابحة في السماء الزرقاء.

يريد رابح تسجيل هذه اللحظة، فيطلب منهم الوقوف معًا من أجل التقاط صورة. ثم يضبط آلة التصوير ويضعها على صخرة ويجري لكي يقف معهم. يعرف أن السعادة الكاملة لا تأتي إلا على هيئة وحدات صغيرة تتراكم شيئًا بعد شيء؛ ولعلها لا تدوم أكثر من خمس دقائق في المرّة الواحدة. هذا ما يتعيّن على المرء أن يقبض عليه بيديه الاثنتين، وأن يتعلّق به.

سوف تظهر من جديد صعوبات ونزاعات بينهما؛ ولن يطول انتظار ظهورها: سيحزن واحد من الطفلين، وستقول كيرستن عبارة قصيرة نافدة الصبر ردًّا على إهمال ارتكبه رابح، وسيتذكّر الصعوبات والمشكلات التي يواجهها في العمل فيشعر بالتعب والإرهاق.

ليس في وسع أحد أن يتنبّأ بالمصير الأخير لهذه الصورة. يعرف رابح هذا: كيف ستُقرأ في المستقبل؟ وما الذي سيبحث عنه في عيونهم من ينظر إليها؟ هل ستكون آخر صورة لهم معًا، صورة

ملتقطة قبل ساعات فحسب من حادثة اصطدام في طريق عودتهم؟ وهل ستكون صورة ملتقطة قبل شهر من اكتشافه أن كيرستن لها علاقة بشخص آخر فيترك البيت؟ أم ستكون صورة ملتقطة قبل سنة من بداية ظهور أعراض المراهقة على إيثر؟ أم إنها ستبقى عشرات السنين في إطار مغبرٍ على رف في غرفة المعيشة، منتظرة أن يلتقطها ويليام وينظر إليها من غير اكتراث عندما يكون عائدًا إلى البيت مع خطيبته لكي يتعرّف عليها أبوه وأمه؟ إن إدراك رابح مقدار ما في الحياة من عدم يقين يجعله راغبًا في التمسك بهذه السعادة تمسّكًا أكثر شدّة. حتى لو كانت لحظة واحدة فقط، فإن لها معنى. إنه يعرف كيف يحب كيرستن، وكيف يكون لديه إيمان كافٍ بنفسه، وكيف يشعر بالعطف على طفليه، وكيف يكون صبورًا عليهما. لكن هذا كله هشٌّ إلى حد يثير القنوط. يعرف تمام المعرفة أن ما من حقٍّ له في اعتبار نفسه رجلًا سعيدًا: هو ليس أكثر من كائن بشري عادي يعيش حالة صغيرة من الاطمئنان والرضا.

قليلة جدًا هي الأشياء التي يمكن الوصول بها إلى الكمال؛ صار يعرف هذا الآن. وصار يفهم الشجاعة الكبيرة اللازمة للعيش، بل حتى لعيش حياة متواضعة جدًّا كحياته. لا بد له من شجاعة حتى يستطيع إبقاء هذا كله مستمرًا، وحتى يضمن بقاءه إنسانًا يكاد يكون عاقلًا، وحتى يظل قادرًا على القيام بنصيبه من إعالة الأسرة ماليًا، وحتى يستمر زواجُه ويتألّق طفلاه. لا تقلُّ ما تتيحه هذه المشاريع الصغيرة من فرص للبطولة، عما تتيحه قصة من قصص الملاحم الكبرى. صحيح أن من المستبعد كثيرًا أن يُستدعى لخدمة بلاده أو

لمقاتلة عدو من الأعداء؛ لكن الشجاعة مطلوبة أيضًا ضمن مجال حياته المحدود. شجاعةٌ حتى لا يسحقه القلق، وحتى لا تجعله خيبةُ أملٍ يؤذي مَنْ حوله، وحتى لا يشتدّ حنقه على العالم أكثر مما ينبغي له أن يشتد جرّاء ما ينزلُه به من جراح، وحتى لا يصيبه الجنون، وحتى يفلح في أن يظلّ مواظبًا بشكل كافٍ عبر مصاعب الحياة الزوجية ـ هذه شجاعة حقيقية؛ وهذه بطولة قائمة بذاتها. لحظةٌ وجيزة على سفوح جبل اسكوتلندي تحت شمس عصر يوم صيفي (ثم مرات كثيرة بعد ذلك) صارت كافية لأن يشعر رابح بأنه قد يكون، مع كيرستن إلى جانبه، على قدر من القوة كافٍ لمواجهة كل ما تطالبه به الحياة.

المؤلف

آلان دو بوتون

كاتب وفيلسوف بريطاني. تركّز أعماله على النظرة المعاصرة لقضايا الحب والفن والأدب، وتقديمها من منظور وخلفية فلسفية.

يعتبر آلان دو بوتون من الكتّاب الأوسع انتشارًا، وينتظر القراء مؤلفاتهم التي تُباع بملايين النسخ.

أسس «مدرسة الحياة» التي صار لها فروعاً في 21 مدينة بينها لندن وباريس وبرلين وأمستردام... بهدف «تقديم نموذج مختلف عن الجامعات التقليدية وتوجيه المعرفة إلى الحياة».

من أبرز مؤلفاته:

- مقالات في الحب (1993)
- كيف يمكن لبروست أن يغير حياتك. منشورات دار التنوير، (2016)
- عزاءات الفلسفة. منشورات دار التنوير، (2016)
- قلق السعي إلى المكانة. منشورات دار التنوير، (2018)

- بنيان السعادة (2006)
- دين للملحدين: دليل غير المؤمنين لاستخدامات الدين (2012)
- الفن كعلاج (2013)
- والكتاب الذي بين أيدينا «دروس الحب»، وهو آخر مؤلفاته.
- له أعمال في فن العمارة، وأعمال تلفزيونية - وفيلم سينما مبني على كتابه «مقالات في الحب» - وفيلم وثائقي مبني على كتابه « قلق السعي إلى المكانة».

المترجم

الحارث محمد النبهان

من مواليد دمشق - سورية، سنة 1961. حائز على إجازة جامعية في الهندسة الميكانيكية من جامعة دمشق. كانت بداية عمله في الترجمة سنة 1991. صدر له أكثر من أربعين عملاً مترجَماً؛ من أهمها:

- نعوم تشومسكي: «سنة 501، الغزو مستمر»
- هوارد زِن: «ماركس في سوهو» - مسرحية
- إريك هوبسباوم وتيرنس رينجر: «اختراع التقاليد»
- تشارلز تايلر: «المتخيلات الاجتماعية الحديثة»
- إيفان كليما: «حب وقمامة» ـ رواية
- جورج أورويل: «1984» - رواية
- جون ستيوارت مِل: «سيرة ذاتية»
- سول بيلو: «مغامرات أوجي مارتش» ـ رواية
- سينكلير لويس: «بابيت» - رواية
- كارل أوفِه كناوسغارد: «كفاحي» - سيرة في 6 أجزاء انتهى منها 3.

- لاسلو كراسناهوركاي: «تانغو الخراب» و«كآبة المقاومة» - روايتان
- فيليب روث: «حكاية أميركية» - رواية
- دونا تارت: «الحسّون» - رواية

مكتبة
t.me/t_pdf

في هذه الرواية المرحة الحكيمة، يتتبّع مؤلّف "عزاءات الفلسفة"، الذي يعتبر واحدًا من أكثر المؤلفين مبيعًا على مستوى العالم، المسار الجميل والمعقّد للعلاقة الرومانسية. فنحن جميعًا نعرف كم تكون أيام الحب الأولى مثيرة ومذهلة. لكن، ماذا بعدها؟

يقع رابح وكيرستن في الحب... يتفتّح الافتتان بالآخر... ثم يأتي مسار الحياة بعد ذلك. يتزوجان وينجبان ـ لكن العلاقة على المدى البعيد لا تكون بسيطة، إذ تتغيّر مشاعرنا بعد أن تعيش ضغوط "العيش اليومي". عبر قصة رابح وكيرستن نرى بسطاً لفلسفة الحب... الحب هو الموضوع الأثير لدى دو بوتون؛ ومجدّدًا يُظهر ما يتمتع به من قدرة على كشف كل ما لدينا من مخاوف وآمال وأفكار. والحصيلة تجربة حسّية - روائية وفلسفية ونفسية - تجعلنا نفكر في تجربة الحب. إنها حكاية منعشة عميقة شديدة الجاذبية.

"حكاية آسرة فيها مادة وافرة للتفكير"

People (Best New Books pick)

"لا وجود الآن لكاتب يشبه دو بوتون، فعمله هذا لا يقل عن أعماله السابقة تنويرًا وأنسنةً".

Chicago Tribune

" الحبُّ هو ما يشغل دو بوتون؛ وهو يُظهِر مجددًا في هذا العمل ما يتمتع به من قدرة على كشف ما لدينا من مخاوف وآمال وأفكار.

The New York Times

"في نظري، يكون ظهور أي كتاب لـ آلان دو بوتون سببًا يدعو للبهجة بقدر ما يدعو للتفكير العميق. دروس الحب يقدّم نظرة وافية للحب الرومانسي ولمخاطره أيضًا. إن هذا الفيلسوف العمومي يكتب بحماسة متّقدة".

Wall Street Journal

telegram @t_pdf

ISBN 978-614-472-129-2

daraltanweer.com
التنوير
بيروت • القاهرة • تونس